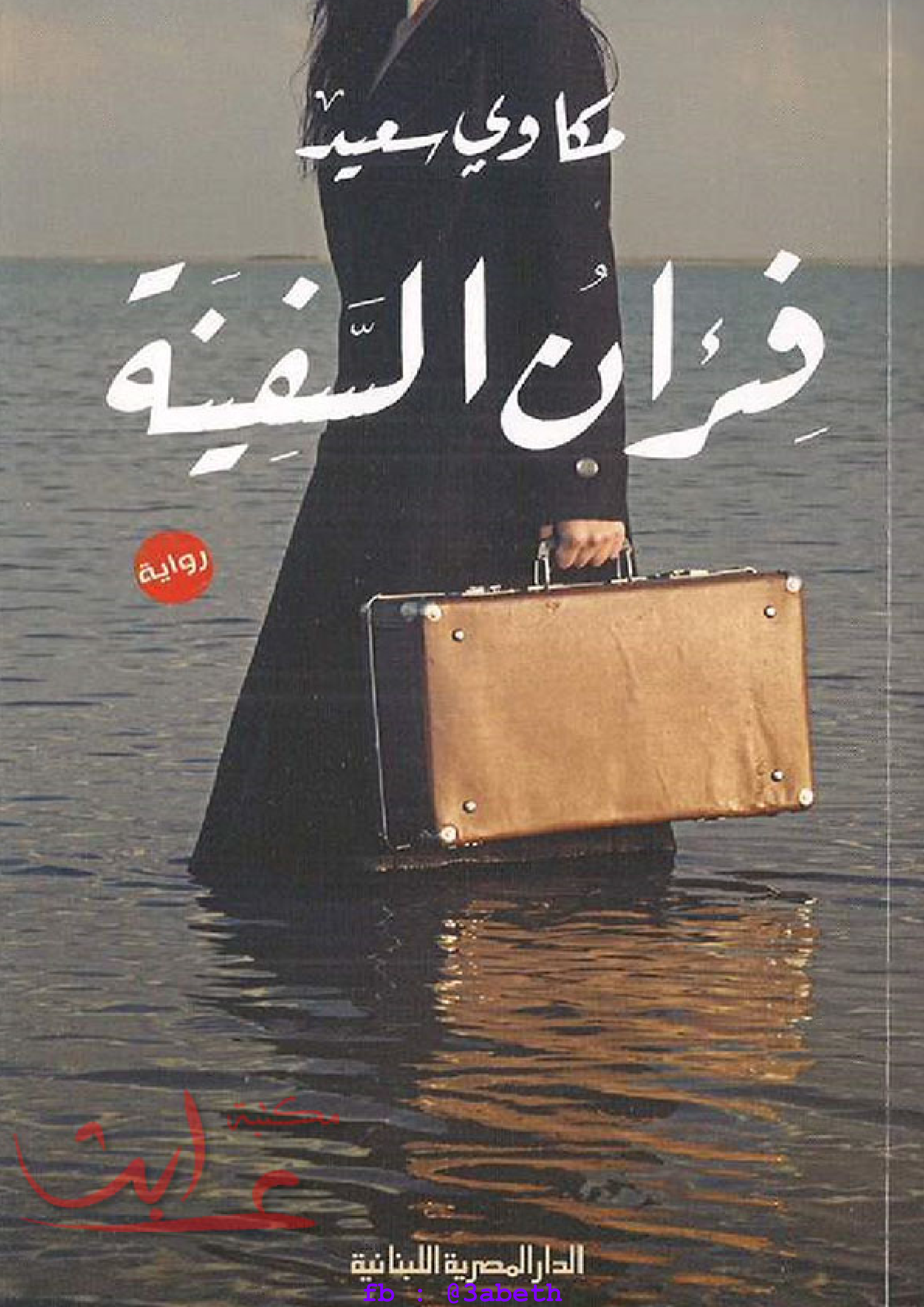

مكاوي سعيد
فِئرانُ السَّفينة
رواية
مكتبة
عابث
الدار المصرية اللبنانية
fb : @3abeth

مكاوي سعيد





الدار المصرية اللبنانية

1

كان حاملًا كل أشيائه فى حقيبتين، التي في يده اليمنى تبدو أثقل قليلًا، وكان كل بضع خطوات يقف ويتركها قليلًا على الأرض لعل يده تستريح، كانت المسافة التى بينهما كبيرة وكان يعرف أنها متيقظة وواجفة.. لعل حقائبها الآن خلف الباب مباشرة أو قد تكون كعادتها الأبدية لا تزال حائرة في اختيار ألوان جواربها.. مترددة فى انتقاء درجة لون أحمر الشفاه.. عاجزة تماما عن القرار. هل تترك رسالة؟ أم تكتفي بترك درفتي الدولاب مفتوحتين على آخرهما كإعلان عن القرار. وكان الضباب قد بدأ يغلف البيوت بغلالة ملائكية رقيقة رغم أرض الطريق الموحلة الناتجة عن أيام مطر غزير. وقد بدأ ليل القاهرة الجميل يصاحبه ويراقبه عن كثب، وهو يرفع قدمه بصعوبة من فوق الأرض الموحلة متبعا الطريق بعين غائمة، ملتوية بالتواء الأزقة والحارات حتى يصل إلى الطريق الرئيسي لعله يجد سيارة شاردة تلقيه بالقرب من بيتها، حتى إذا ما فتحت النافذة في الساعة المحددة وجدته مستندا على أحد أعمدة الإنارة كغانيات هوليود. كان لا يدرك كيف تورط في الأمر وقبل مثل هذه المغامرة المجنونة وكان قد وصل إلى قناعة بأنه سيظل أبد الدهر مطاردًا من جديد وبدأت خطواته تثقله وأنفاسه تخنقه حتى ود لو تنشق الأرض عن أخدود عميق يلقي بنفسه فيه حتى يرتاح من مصير مجهول.

اقترب الآن من نهاية الحارة التي بها الجامع الصغير ثم اتجه يمينا إلى حارة الليمون التي لم يشاهد بها ليمونة واحدة طيلة إقامته بهذا الحي، ولعل الاسم قد أُطلق عليها مجازًا لكثرة النساء الشاحبات اللائي تمتلئ بهن الحارة. سمع صوتًا مكتومًا كفحيح الأفاعي، تمهل، أبطأ خطوته، كان حريصًا على ألا يصدر منه صوت حتى يتبين كنه هذا الصوت، اقترب من نهاية الحارة، تلفت يمينًا بكل الحذر متبعًا الفحيح، وجده ممسكًا بخطاف حديدي يصوبه إلى أعلى مقتربا من (البلكونات) السفلية التي فى متناول الخطاف، ضاربًا بخطافه مشابك الغسيل وكل ضربة بثوب يسقط فى يد طفل صغير لا يتعدى العاشرة يدسه في جوال من خيش، كان من الصعب عليه جدًا العودة إلى المكان الذي جاء منه كما أن من الخطورة أن يكشف لهما عن مكانه صوت عفوي يصدر عنه، تجمد في مكانه محاولًا إيجاد المخرج، أيقن أن الثبات آلمن لحين الانتهاء من عملهما رغم تخوفه من ألا يكتفيا بهذه الحصيلة ويقتربا أكثر فيراه أحدهما، كان الوقت يمر ببطء وربما يتأخر عنها فتقتلعه كالإعصار. نعم كان يتمنى ألا تتم هذه الخطوة أبدًا، لكن ما العمل؟ أدبرت الدنيا ولا مفر ووجوده كله ضياع.. أن تفقد كل معنى لحياتك ولا تقدر حتى أن تحلم، وأن تترقب سرابا وتنتظر من لا يجيء.. ضياع ما بعده ضياع، والذي يحيره جدا رغبته الشديدة في البقاء حيًا رغم كل هذا الشوق للموات.

مدّ رأسه قليلًا، كان لا يزال منهمكًا فى عمله كجرادة دؤوب تاركًا خلفه حبالًا فارغة ممتدة. وكان قد اقترب منه جدًّا فرآه عن قرب، وعندما تحقق منه أكثر من مرة عرفه جيدًا ولم يستطع منع نفسه من الاندفاع نحوه، استطاع بصعوبة تفادي الخطاف المشرع نحوه وهمس بفحيح مندهش:

عادل.. عادل.. بوغت عادل تمامًا، سقط منه الخطاف محدثًا رنة هتكت عرض الليل، توقف الطفل مترددًا في منتصف في المسافة بين السيارة وأبيه متطلعًا في ذهول إلى الغريب وممسكًا الجوال بصعوبة عاقدًا الذهن من أجل التذكر، التقت الأعين مرة أخرى، قال عادل في محاولة لإخفاء خجله: نمشي بسرعة نتكلم بعيدًا، ثم هربت عيناه تمسح أوجه البيوت، اطمئن قليلًا للسكون المحيط، حمل الغريب حقيبته وألقاها بجوار الجوال داخل عريش السيارة النصف نقل التي كانت منتظرة ثم حمل الطفل المذهول وأجلسه فوق ركبتيه، أدار عادل السيارة بصوت حرص على أن يكون مكتومًا ثم انطلق أخيرًا مخترقًا الضباب.

اختارت سيارته طريقًا بعيدًا عن لجان المرور، سأله الغريب لمجرد قطع حبال الصمت: ملكك؟.. ردّ عادل بدون أن ينظر نحوه: إيجار، مرت فترة صمت أحس عادل بعدها بخشونة الرد، قال وهو يحاول أن يخفي خجله خلف الكلمات.. مسافر؟ قال الغريب محاولًا كسبه إلى صفه كأيام زمان: لا.. لكني هارب.. التفت عادل إليه بدهشة كبيرة وقال وهو يتفحصه جيدًا ومازالت يده فوق المقود: من ماذا؟ سكت الغريب تمامًا.. استرد عادل دماء وجهه المفقود، فبدا بشوشًا وهمس بود: لماذا الصمت؟ تكلم يبدو أنك قد نسيت العشرة. وعندما داهمه الصمت مرة أخرى خبط بيده اليمنى على كتف الغريب خبطة امتنان وهو يقول : ليس ضروريًا أن تتكلم الآن، المهم أن نصل إلى أقرب شاطئ أمان، ثم ارتدى عادل ثوب عنترة الذي كان يحبه دائمًا واستنشق الهواء القليل الباقي بالسيارة ثم قرر بصوت مليء بالثبات: سوف تجيء معنا إلى البيت، اعترض الغريب بصوت منخفض

يفتقد الحزم والتركيز، حسم عادل الأمر وهو يهمس: على الأقل تأتي لكي تسلم على المدام.. مرت سنوات طويلة على آخر لقاء، استند الغريب فى تلطف على رأس الصغير ومضت يده تداعب شعره القصير ثم نظر إلى عادل نظرة جانبية قصيرة مضت بعدها عيناه تلتهمان الطريق، احترم عادل صمته، كانت السيارة ترتفع وتنخفض في الطريق بارتجاج لم يعتده الغريب، أغمض عينيه في شبه إغفاءة وظلت ذاكرته تدور.. هل لايزال يذكر حروف الهجاء ويحتفظ بالقلم الرصاص مقصوص الذيل؟؟ هل لا يزال يتنافس مع زوجته فى الحفظ والتدوين؟ هل لاتزال أنبغ منه وأشطر؟ تنقل الطفل من ثدي إلى ثدي بدون أن تهتز الخطوط؟ وتبتسم بخجل عندما تلمح دهشتنا لذكائها وتطرق برأسها صامتة أمام كلمات المديح والإطراء، أيسأله إن كان قد اكتفى بالطفلين أم من الجعبة لا يزال يأتي بالمزيد؟ أيسأله عما لم يجرؤ على تذكره؟ عما واراه وأخفاه وكان يظن أنه قد دفنه ولم يعد ينبض به الشعور.. أيسأله إن كان دائنا أم مدينا؟ عاقلًا أم مجنونًا؟.. لكن لماذا هو الذي يجب أن يسأل؟!..عادل أيضًا لم يسأله عنها.. احتمال أنه يعرف أين تكون؟ ود لو جذب يده من فوق مقود السيارة.. لو صرخ فيه بكل ما يمتلك من صوت.. لو أنك يا عادل تخجل من كونك قد أصبحت لصًّا فأنا أيضًا ما عدت أمتلك الدماء الكافية لصبغ الوجه بالاحمرار. ما عدت أمتلك نفسي وذاتي.. أحس أن هناك فراغًا كبيرًا بين قدمي والطريق.. أخشى منك كثيرًا يا عادل.. أخشى من نظرة زوجتك الوادعة.. من تساؤلها المرتقب.. من لومها المكبوت.. لكن رغم خوفي وخشيتي سآتي معك ياعادل.. لأني أريد أن أشم عبيرها في بيتك وأتلمس أخبارًا عنها من حديثكما.. كما أني أيضًا أريد الفرار.

2

رأى فيما يرى النائم أنه أفلت من النار الكثيفة ودلف في دغل متشابك وقبل أن يلقى النبع الصافي، سمع صوتًا يتسلل خلفه من بين أفنان الشجر وقبل أن يتبين كنهه، صرخ، وحين تلاقت عيناه بوجه النمرة المتوحشة، صرخ.. فتح عينيه على وجه الطفل المذعور وحيرة الأم المضطربة وتساؤل الأب الحنون الذي سأله بلهفة: ماذا بك؟ وأعادت الزوجة السؤال بحنان الأم.. قاطعها الزوج وهو يشير لها بإحضار كوب من الماء .. وعندما اختلى به أعاد نفس السؤال. قال متخلصًا من فضوله.. كابوس مجرد كابوس.. تأمله الزوج بعمق وسكت.. عندما عادت بالماء رجاهما أن يعودا للنوم وجلس يرقب تسلل الطفل خلفهما بنظرته الفاحصة..

كان الخوف لا يزال يملكه ووجه النمرة لم يفارقه.. يتشكل في وجهها ويتشكل وجهها فيه.. يمتزجان .. لم يعد يعرف الفرق بينهما.. كان كل الذي بينهما هو حلم، حلم يخصه فقط.. حين كان يراها كانت تتملكه.. تدفع الدم إلى كل جسده وكان يكتفي بالتمني.. وحين عرفها أصبح يخشاها وكانت لا تدرك ذلك جيدًا.. فإن أدركته لضيعته.. استغل نقطة ضعف صغيرة بها، استفاد منها جيدًا لكنه كان يخشى أن تجد نفسها ذات مرة وحيدة محاصرة في ركن ضيق فتتمطى كالتنين وتقتلع كل شيء.. هل أتتها اللحظة الآن؟.. لم يعد يهم.. عرف من عادل أنه بالدريقة وهي منطقة تتبع الجمالية وفي مساكن

إيواء المحافظة بالتحديد، عشر عمارات كل عمارة بها خمسة أدوار، وكل دور فيه ثماني شقق والشقة الواحدة تضم غرفة وصالة بالإضافة للحمام والمطبخ، وكان قد جرب برد الصالة ورطوبتها ليلًا وندم على إصراره على النوم بها.. كما عرف من إشاراته أيضًا أن تلك العمارات الضخمة الرابضة على الشارع الرئيسي تتبع المحافظة أيضًا ومخصصة لمنكوبي الحوادث والإخلاء الإداري لكن يحتلها الآن زمرة من المحاسيب.

دخلت امرأة عادل بالشاي فوق صينية يتزاحم عليها كعك العيد الذي كان قد مضى عليه أكثر من ثلاثة أشهر، واجتهدت في إحضار كوب مكسور لبقايا السجائر وبابتسامتها البسيطة العذبة سألته عن وفاء.. استقرت عيناه في المنطقة الفاصلة بين عمارات المحافظة الفاخرة والمنطقة التي يجلس بها الآن وكانت عبارة عن مستنقع كبير من المجاري والأتربة وقطع من الحجارة أعدها المارة للعبور، تظللها سحابة من ذباب قذر، ثم رفع رأسه ببطء إلى السماء حيث كانت الشمس في أتم عفويتها، لم يجرؤ على مواصلة التحديق، فخفض وجهه قليلًا وأجابها وهو منكسر: لم أرها منذ سنوات.. أحس عادل بألمه فنهرها ولامها على ثرثرتها.. أحست بهزيمتها.. تراجعت وهي تقول باستكانة:

– أنا آسفة..

شعر بحرجها.. ناضل حتى يبدو طبيعيا.. خرجت الحروف من بين شفتيه بصوت لم يكن أبدًا صوته.. لا داعي للأسف فأنا أفتقدها أيضًا مثلكما.. ابتسمت بطيبة وقالت في محاولة لتغيير الحديث:

– تبدو في صحة جيدة..

قال في برود:

- الحمد لله..

انسحبت من أمامه إلى الداخل.. نظر نظرة طويلة إلى عادل وسأله عن ظروف معيشته.. أجاب عادل في ابتسامة ساخرة:

- لا تزال تسير.. استمر في توجيه الأسئلة.. ألا تزال تعمل بنظام اليوميات لدى الزبائن؟

أجاب عادل بتنهيدة:

- وهل لو كانت اليوميات مستمرة كنت ستراني أمس؟ المكاوي الكهربائية غزت البلد وهبط سعرها إلى الحضيض وراحت على الذي يعمل بمهنتنا..

قاطعه:

- ولماذا لم تعد للعمل بالمحلات؟

أجابه عادل بحسرة:

- أأعود صبيًا وقد بلغت الأربعين؟

قال :

- أليس أحسن من ..

ولم يكمل.. نظر عادل إليه بألم وهو يقول:

- الذي يده في الماء..

ثم استطرد:

- هل تعتقد أنه كان من السهل عليّ أن أصبح لصًا للغسيل.. داخت قدماي بحثًا عن محل يقبلني ولم أجد إلا الذين لا يعجبهم عملي، والذين يعيبون عليَّ البطء في العمل، في زمن كل شعاره السرعة.. وحتى الذين كنت أعرفهم وأعرف كم يتمنون أن أعمل معهم حولوا محلاتهم للتنظيف بالبخار والرفا وأصبحوا في غير حاجة إليّ .. قال الغريب غير مقتنع:

- ولماذا لم تغير عملك؟

أجاب عادل وعلى شفتيه بسمة سخرية:

- أبدل عملي بعد كل هذه السنوات وأعمل بمهنة ليست مهنتي.. ستقول أعمل بمهنة قريبة منها.. وهذا ما فعلته، اشتغلت بمهنة قريبة من الكي وخاصة بالملابس.. قال كلماته هذه ثم ضحك ضحكة طويلة إلا أنه عندما نظر إلى عيني زوجته التي كانت قد دخلت منذ قليل سكت فجأة وهو يرقب بألم دموعًا لامعة تحجب عينيها عنه.

لفحته أشعة الشمس القوية وكان غير متعود عليها فاستأذنهما في الدخول.. قام عادل مسرعًا مادًا يده بأكملها إلى داخل الشقة وهو يقول :

- تفضل؛ كما أفسحت امرأته الطريق.. اقترب عادل منه وهمس وهو يوازيه:

- لا تخف الناس هنا لا يفهمون السياسة وستبقى فى أمان..

تنبه الغريب لضحكته المكتومة وأحس بعدها بمدى قزميته.. كانت رائحة الشواء قد أفعمت أنفه بالكامل وأعادته إلى أيام قديمة معهم.. أتى على طبقه بالكامل وشكرها وهو يرجوها ألا تأتي بالمزيد، ووقف يراقب

زوجة عادل وهي تكوم الملابس وعلى وجهها نفس الألم العميق، حمل عادل الحقيبة الكبيرة وتناول منها المفاتيح.. سأله بحرج:

- إلى أين؟

أجاب عادل هامسًا:

- سوف أرد المفاتيح والسيارة لصاحبها ولن أتأخر.. ادخل لتنام فترة القيلولة وعندما أعود نخرج معًا ليلًا فالليل ستار .. ابتسم الغريب بفهم ثم تكدر وجهه لعدم صراحته ورفض بإباء احتلال غرفتهما الصغيرة واضطجع على أرضية الصالة وعيناه تحلقان في فضاء غير محدد ولا ترى أحدًا.

3

أسلم نفسه إلى القيلولة وجسده كله خدر جميل وأسلمته القيلولة إليها.. مرت يدها وأخذته من يده، عبرت به الجبل الأصفر متعدد الدروب ومرت فوق مراع خضراء، وتتبع نظره غزالة ضئيلة ضامرة الجسد، تنتقل بخفة بين الأعشاب متنشية بحريتها الجميلة.. مد يده إليها وكانت لاتزال بعيدة، استعاذ بها ورجاها متوسلًا.. ابتسمت وأعادته مرة أخرى إلى الأرض.. كانت بينه وبينها لوحات خشبية معلق عليها قصائد شعرية ومقالات، كانت وسط مجموعات غير متوافقة ومناقشات ومجادلات بكر لشباب حدث السن متفجر بالرغبة في المعرفة والثقة بالنفس والأمل العريض.. همس وهو يدّعي المعرفة:

- قصيدة جميلة..

فاجأه صوتها الخالي تمامًا من اللياقة والمجاملة كما اعتقد لحظتها. وهو مندهش لجرأتها وتدخلها في حديث بين شابين لا تعرفهما.. لم تتأثر بعيونهما المنفتحة المستهجنة وأكملت:

- القصيدة وزنًا ومعنى وقافية وليست فكرة فقط وهذا الذي تقرأنه مجرد نثر لا يمت للشعر بصلة، لو كنت قد ذكرت أن الفكرة جميلة ما اقتحمت حديثكما ثم علقت:

- على العموم أنا آسفة فقد يكون تعليقي صدمكما، لم يردا، فقط تابعاها وهي تنسل بهدوء وتختفي.. رآها فيما بعد منتحية بمجموعة من الشبان والبنات ركنًا قصيًا من (الكافيتريا)، اصطحب كوب الشاي معه وجلس بقربهم يتصيد كلامهم، وصله القليل من خلال جلبة الطلبة وضجيجهم، انتابت جسده قشعريرة خفيفة، فقد كانت الجامعة أيامها جسدًا حيًا يتفجر حيوية.. مصادمات شبه يومية ومظاهرات متتالية بسبب الخبز والغلاء والحرب فيما يعتقد، كما كانت هذه الأيام فرصة يومية لبعض الطلبة من أمثاله للهرب من المحاضرات، وفرصة لآخرين لادعاء البطولة والثورية، وضعها أيامها في حيز طالما رآه بالجامعة ممتلئًا بأمثالها من المدعيات المتمردات، ولإعجابه الشديد بجرأتها قرر أن ينتهز أقرب الفرص للتعارف، وللحقيقة لم يأخذ الأمر منه مهارة خاصة فقد فاجأته يومًا وهو يسير بحرم الجامعة متسكعًا قبل بداية المحاضرة وجاء صوتها عذبًا من خلفه:

- صباح الخير أيها الشاعر..

لم يكتب الشعر يومًا ولكن كان يتذوقه أو يدعي ذلك.

التفت إليها وكله حبور لتعرفها عليه بعد كل هذه المدة وقال بصوت أشبه بالهمس:

- لست شاعرًا..

ضحكت بطلاقة تنبئ عن حالة معنوية مرتفعة وهي تقول:

- أكرر أسفي.. صدمتك بآرائي دون سابق معرفة.. كلهم يقولون عني مندفعة ومتهورة.. بكرم حاتمي وحالة انتهازية بحتة دعاها للجلوس (بكافيتريا)

كلية الآداب وكانا قد اقتربا منها، بحياد تام قبلت الدعوة بشرط أن تدفع ثمن مشروبها، أيقن لحظتها أنها لاتزال في دور ادعاء الاستقلالية وأنها ستتعبه كثيرًا.

كان كل حصيلته من الشعر مجرد أبيات قليلة علقت بذاكرته أثناء دراسته بالثانوية العامة وبعض أسماء لشعراء محدثين قرأ عنهم في الصحف، توالت الأسماء من فمها سلسلة لا تنقطع، وتتابعت الأبيات منتظمة مدهشة، وبهره ذلك تمامًا. أن تكون لهذه الأنثى الناحلة الجسد الباسمة الثغر كل هذه القدرة على الحفظ والانتقاء، تابعها مندهشًا كطفل منبهر بحواديت الجدة، ولم يستبعد أن يخرج المارد من عنق زجاجتها، وعندما عرضت أن تأتيه بمجموعة من الدواوين للاطلاع عليها المرة القادمة، كان سعيدًا جدًّا، لم يكن الشعر في حد ذاته هو الذي يهمه، كان الذي يهمه أن هناك مرة قادمة..

بدأ الأمر سريعًا جدًّا ولم يلفت نظره في البداية، لم يكن له صداقات بالمعنى المعروف في الجامعة، رغم مرور سنتين وهو بداخلها كانت كل صلاته صلات مدرسية قديمة أو جامعية حديثة، أفلت منهم أو أفلتوا منه ودار في فلكها تمامًا كالمخدر، وأصبح عضوًا في جماعتها مشدودًا إلى تميزها برغم بنطلونها الجينز الضيق وبلوزتها البيضاء التي كانت لا تكاد تغيرهما.. وسط قوس قزح أزياء فتيات الجامعة. كان يراها متميزة.

انزعج جدًّا وهو يفض لفافة بها مجموعة من الكتب استعارها منها وارتعشت يده وهي تمتد إلى العناوين السياسية الفجة المحفورة على الأغلفة، طلباته كانت منحصرة في الشعر والروايات، أو كتب علم النفس

التي أصبح يفضلها، وعندما اقترحت عليه كتب التاريخ لم يمانع وقال لا يضر، لكن هذه الكتب تضر بل وتميت أيضًا، أخفاها في حقيبة جلدية صغيرة خوفًا من زوج أخته واقتحاماته المزعجة للأمكنة المغلقة، وتحاشى النظر إلى الإطار الفضي الكبير الذي يقيد حيوية والده وعقد العزم على توبيخها غدًا.

اعتذرت برقة بالغة وهي تهمس:

- هذه كتب تاريخ أيضًا..

قاطعها بحزم:

- لا تنسي أني مسؤول عن الأسرة بعد سفر الوالد إلى الخارج، أنا لست خائفًا على نفسي لكن تذكري لو حدث لي شيء فذلك يعني بالتأكيد ضياع أمي.

أطرقت برأسها خجلًا وحزنًا ثم نظرت إليه وصوبت عينيها تصويبًا حزينًا وقالت بانكسار:

- لم أقصد.... صدقني.

تغيب عن الجامعة لأكثر من ثلاثة أيام وبقي وحيدًا أمام الجدران والصورة المعلقة، ووجه الأم المكدود على حافة السرير، ودخول وخروج أخته بميزان الحرارة والدواء، وزوج الأخت برداء رجل البيت والعائل والوريث وابتسامة لاصقة بأسنانه واهتمام يدعيه.. كان قاسيًا عليها جدًا، ولكن كان ذلك لازمًا حتى تدرك الحدود، كان جبانًا بطبعه.. لكن هل اكتسب هذا الجبن من المدرسة أم الشارع، أم وُلد به وظل ملازمًا له حتى

الآن؟ هل سقاه له والده قسرًا، وهو يحذره من صحبة السوء، ويوبخه لطلبه الاستذكار مع صديق ويضربه لأنه رآه يتنزه على النيل.. كان يخشى عليه أن يسبح فيغرق أو يتنزه فيدخن أو.. أو..، كان قاسيًا عليه، كان يخشى من النار واللعب بها.. من البحر وأمواجه.. كان الخوف ماردًا داخل جسده وكان يعرف أنه لن يخرج منه أبدًا، فاجأته تمامًا وهو حديث عهد بالحرية، فلم يسافر والده إلا منذ بضع سنوات وكان في حاجة إلى قدر من الهدوء، لم يغادره والده أبدًا. ظل قابعًا فيه واستبدل وجوده الظاهري بزوج أخت أسكنه معه وأسلمه إليه وهو يقول له في ضراعة:

- أبني أمانة بين يديك، ثم يتجه برأسه إلى فلذة كبده ليقول بحدة: هو أبوك الثاني.. الطاعة والولاء.

كان قاسيًا عليها لكنه الخوف.. الخوف.. هل ستقطع الصلة به؟ هل ستتجنبه؟ تتحاشى وجوده!

كانت فرحته كبيرة عندما استقبلته ببرود واهتمام حقيقي، ومضت عيناها تتفحصه، وكانت الوحيدة التي رأت بوجهه شحوب المرض، وحاولت كثيرًا أن تخفف عنه، فقالت له جزءًا من قصيدة للجيار فيها معنى مشاركة الألم أو هكذا فهم، ثم بدأت تتجنب الحديث معه في الموضوعات التي تحس أنها ستكدره، واعتبر هذا نجاحًا كبيرًا إلى أن بدأت تنسل منه وتندس وسط المتظاهرين، وتتغيب ساعات ويعرف أنها كانت تحضر إحدى الندوات، تترك نصف الشاي قابعا بالكوب معه وتفر منه عندما ترى زملاء النضال.

أعاد مواجهة نفسه بالبيت، وكان زوج أخته قد بدأ يحاصره تمامًا.. سيطر كلية على أخته الضعيفة المنزوية. احتل كل عالمها.. أقنعها وبدون

أي مجهود يذكر من جانبه أنها بدونه ستضيع، ولم تكن أمه في حالتها الطبيعية لتدافع عن ابنها أو عنها فالسنوات تمر ولا يصل من الأب إلا بضع وريقات.. رسائل تحية أو استفسار أو نقود.. أهملت نفسها تمامًا، اعتقدت في البداية أن كل اهتمامها بهم ومجهودها الخرافي ستعوضه نظرة امتنان من عينيه أو لمسة شوق من يديه. لكن السنين تمر وجيران يأتون وأقارب يصلون، من كان عنده هناك يتكلم أول مرة بحذر ثم تتوالى الكلمات المبهمة التى تخفي أكثر مما تفصح. بالإضافة إلى مسلسلات التليفزيون التي تحذر من الغربة، رغم أنها تعرفه جيدًا وتعرف أنه لا يستبدل بها كنوز الأرض كلها فإنها تخوفت وتوجست وبذلت كل ما في جهدها للتماسك الظاهري، لم تكن تدرك أن كل هذا الجهد المبذول سيعجل بالسكر والضغط والدوالي والقولون العصبي ومعظم مسميات الطب.. وحين كانت تتشجع قليلًا وتكتب له بضع حروف بسيطة متلاصقة ليعود ويلتم الشمل، كان يرد طالبًا منها الصبر فالناس متمسكون به هناك وسيعود قريبا.. وكانت عبارة «الناس متمسكين به» التي يصر على تذييل كل خطاباته بها تثير عليها الزوابع والعواصف وتقلب عليها القولون الأوسط والمستعرض والغليظ وتظل تسأل نفسها من هم المتمسكون به؟ الطلبة.. أولياء الأمور.. الوزارة.. الوزير.. أم زوجة وابن يطلق عليه آخر العنقود؟

هل يدرك هذا الأب القابع هناك، متوسدًا الراحة والأمان، متكئًا على الحرير والأموال، أنها لم تغادر البيت منذ سفره إلا مرات تعد على أصابع اليد. وأنهم استبدلوا بوجوده أطباء وممرضات يأتون ويرحلون وأقارب وجيران يواسون ويشمتون، وبرغم ذلك فإن ظله يملأ المكان وهم في انتظار

خطاب أو سماع شريط بصوته أو حتى الموافقة على أمر قياسًا على أمر له سابق. وأصبحت سيرته كالهلالي والزناتي، وعندما يعود ممتطيًا طائرته حاملًا المسجل بيده اليمنى والفيديو باليسرى وخلفه الحقيبة الرقمية. يوم يركل بقدمه القوية باب المدينة الصغيرة سيجد خلفه هياكل عظمية كانت تحلم يومًا بأنه سيجيء.

هل تدافع الأم عن نفسها أم عنهم؟ وهل يستطيع هو الدفاع عن نفسه بعد كل الذي زرعه فيه؟ هل يستطيع أن يقف أمام زوج أخته ويعيده إلى حجمه؟ كيف؟ وأنت أيها الأب الذي ملأته هواء وجعلته أشبه بالبالون.. ترسل له الهدايا والأموال والموافقات على كل اختياراته.. لا يدري بما ميزته عني.. ببضع سنوات يكبرني بها، برجاحة عقل تعتقدها فيه.. أم لأنه فارس البنت ضئيلة الجسد فقيرة الجمال.. أهملت ابنك تماما واعتقدت أنه لا يزال يبلل الثياب ولعابه مازال يسيل فوق الصدر، وأدرت نفسك تمامًا تجاه زوج البنت.. تظل تداعبه بمشروعات سوف يؤسسها وشركات سوف تقيمها وتظل ترسل له برسائل مليئة بالحلم.. يحتضنها وهو يفرد الورق أمامه بالساعات، وينسى أنه موظف أرشيف وتتلبسه روح مهندس عظيم يخطط ويخطط ثم يهمس لك بشبق غانية خارجة توًا من السجن.. لو تحقق هذا المشروع تتحقق كل أحلامنا.. وعندما تجاريه في حلمه كمجرد مسايرة أو مجاملة وتعدل بعض الشيء في الاقتراح.. ينظر إليك نظرة الوالي للرعاع وهو يبصق الكلمات:

- لا تضّيع وقتك. التفت لمذاكرتك..

أصبح البيت قبرًا كبيرًا هو حارسه المقعد الضرير، سجانه والسجين ولا أمل في نجاة..ووفاء تنتظر بطلًا.. يكون الليل حارسه وهو يجوب العالم يوقظ القلوب، هل تحتاجه فعلًا؟ أم أن الأمر كله مجرد ادعاء؟.. لا يهم.. هو لن يكون هذا البطل أبدًا فما عادت كل رضعات العالم تشبعه وتخلق فيه هذا البطل.. أصبح أسير الأب وقضي الأمر.

4

صدمه جدًّا استخفافها المستمر به وتعمدها إهماله تمامًا بعد أن تلمست جيدًا جبنه، وكاد يفض الأمر نهائيا لولا الميزان الحساس الذي كانت تعامله به وتستشعر اتجاهاته. وكلما لاحظت تذمره. تراجعت وغمرته بدواوين السياب وعبد الصبور وغيرهم، وقبل اندماجها في نشاط أو مؤازرة صديق في انتخابات الطلبة، كانت تكثف له مجموعات الشعر أو روايات الغرام.

عندما فض اللفافة الأخيرة وألقى نظرة عابرة عليها وعلى عناوين الأغلفة، أدرك كم هو تافه وصغير وملأه الغيظ عن آخره. كما زاد ألمه مرارة رسالة والده الأخيرة والحوالة المالية التي أرفقها لزوج الأخت ليشتري بمقتضاها أرضًا لبناء بيت لهم.. يشتريها ويختارها زوج الأخت وكأنه مات من زمن.. هل يلوم الأب.. أم يلومها؟ أو هو فعلًا طفل صغير فاقد الأهلية.

قرر أمرًا في الصباح وعزم على تنفيذه ليلًا، اخترق المنطقة التي يسكنها من منتصفها وعند الطرف الشرقي. اختار الجدار العريض المواجه للميدان المليء بحركة السيارات نهارًا، وضع الحقيبة البلاستيكية على الأرض بعد أن أخرج منها علبة الدهان، وبكل الوجل والخوف غمس عود الخشب المسنون الذي اجتهد كثيرًا في شحذه نهارًا في علبة الدهان، ثم كتب بيد مرتعشة بلون أبيض متعجل الشعار الذي اختاره، وكان لا يتعدى بضع كلمات تبقت بذاكرته من الكتب والأفلام وملصقات حوائط الجامعة

بخط متعرج متذبذب، وعندما انتهى، ترك الحقيبة والعلبة بجوار السور، ولم يلتفت خلفه أبدًا، وحين احتواه السرير وغلفه الغطاء لم تتوقف الرعدة بجسده وهو يعد الدقائق ويترقب، ثم يتصور أن ضربات متوحشة ستفتك بالباب فتخرج أمه متسائلة وخلفها أخته تبسمل وتستعيذ وينتظر زوج الأخت بالسرير مستطلعًا الأمر، يدخل رجال أشداء يجذبونه من بين الغطاء ثم يلقونه في سيارة موصدة الأبواب في طريق مهجور إلى مكان مجهول لزمن غير محدد.

عندما داعبت الشمس وجهه صباحًا أحس إحساس الديك المتشي بضرب أحد منافسيه. ارتدى ملابسه على عجل، عرج على شارع قصر النيل قبل الذهاب إلى الجامعة، وانتقى عددًا من الكتب التي اعتقد أنها تفي الغرض.. كتب الين ين أو الرقص على السلم التي تتجاوز العشق والغرام ولا تطاول السجن والاعتقال.. ومجموعة من كتب علم النفس وبعض الدراسات التاريخية لفترات كان يعشقها كالحقبة الأندلسية، ثم تراجع عن فكرة أن يريها هذه الكتب وأحس أنها حركة مكشوفة، اتجه إلى الجامعة بعد أن أودعهم بالبيت وهو يقرر أخذ موقف أكثر صرامة منها.

كانوا يغنون أغنية شبابية مرحة على سلم المدرج الخلفي، رفعت يدها اليسرى مرحبة به ولم تتوقف شفتاها عن المشاركة بالغناء، جلس بينهم منتظرًا بصبر الانتهاء من هذا العبث ويبدو أن هذا كان مطلبًا عسيرا، فهم يصلون الأغنية بالأخرى بلا تعب ولا كلل وبنبرة صوت أكثر حماسة، فرغ الصبر منه تمامًا.. ودّ لو استطاع جذبها من يدها والخروج بها إلى أي مكان، لمحته بطرف عينيها، فخفضت صوتها قليلًا ولعلها كانت أكثرهم حماسة للغناء لأنها عندما خفضت صوتها بدت الأغنية فاترة وضعيفة أو هكذا

تصور، ماتت الأغنية وقبل أن يختاروا أغنية أخرى قامت واتجهت نحوه وهي تسأله:

- ماذا بك؟..

أجاب بهمس:

- نتكلم في مكان آخر..

أعطاهم ظهره وسبقها بخطوتين وغاظه جدًا قولها لهم:

- دقائق وأعود..

لم يتكلما أثناء الطريق، تجاوزا الكافيتريا ولم يدخل، لم تعلق ولم تنطق، تركته يأسرها تمامًا، وذلك ما أقلقه، عندما جلسا أخيرًا قالت:

- تكلم!

حاول أن تخرج البسمة طبيعية وهو يقول:

- بعد الشاي.

كان الدخول في الموضوع شاقًا جدًا كما لم يكن لديه تصور للموضوع أنه مجرد ضيق. كيف يعبر عنه؟ كيف يبرره، وكيف يتقبل ردها الذي قد يكون مرًا علقمًا؟.. تذكر وعدها للأصدقاء بالعودة السريعة قال:

- هل تأخرت عليهم؟

قالت بغيظ:

- كل هذا المشوار من أجل هذا السؤال؟..

اندفعت كلماته كالسيل متخلصًا من سخريتها:

- أريد أن أخرج معك خارج الجامعة..

سألته بدهشة:

- لماذا؟..

لم يستطع الإجابة فقط قال:

- (اعتبريه رجاء).

بابتسامة كانت تميزها قالت:

- ليس لديّ مانع..

اتفقا على اللقاء في السادسة مساء.

كان طلبه الخروج معها وليد اللحظة ولم يكن بذهنه إطلاقًا وتوقع ألا تجيب طلبه بهذه السرعة لأنه لم يكن لديه ما يقدر على قوله. وكان متضايقًا من تجنبه لهم فكل العيب به هو، ولا يستطيع تجنبهم للنهاية فهي معهم في نسيج متشابك، وهم دائما متواجدون لا أحد منهم يفصل من الجامعة أو يقبض عليه كما كان يتخوف، ويبدو أنه توهم كثيرًا ويجب عليه الآن نفض عباءة الخوف من فوق جسده ونزع قناع التوجس، لابد أن يزيح حاجز الوهم الذي كاد يفرقهما ولو قليلًا.

لم تسأله عن سبب اللقاء عندما تقابلا؟ فقط نظرت في عينه نظرة فهم وسكتت، تكلم كلامًا ذا معنى وكلامًا فارغًا، حدثها عن الكتب التي اشتراها فابتسمت ثم حدجته بنظرة غريبة وهي تقول:

- لا تورط نفسك..

قال بسرعة:

- أنا لا أخاف على نفسي فقط أخشى على أسرتي وعليك..

قالت بنظرة نكران:

- لا تجعل نفسك وصيا عليّ..

انقلب اللقاء السعيد أمامه..

تدارك وهو يقول بابتسامة مقتضبة:

- أنا لم أقصد، أنا أتمنى فقط أن أكون بجوارك فخشيتي تزداد وأنت بعيدة..

ضحكت ضحكة طويلة وهي تبعد يده التي تسللت لتلمس يدها، وعند العودة اقترب بها عامدًا من الميدان وتوقف أمام الجدار. كانت الكتابة لا تزال لينة براقة، تعمد القراءة ببطء ثم نظر إليها محاولًا معرفة رأيها.. قالت باستخفاف:

- كلام تافه وساذج. أكيد الذي كتبه أبله.

تغيرت تضاريس وجهه تغيرًا قاسيًا حتى إنها سألته بقلق:

- ماذا بك؟..

قبل أن يرد كانت قد أدركت كل شيء فضحكت ضحكة نقية صافية لم يسمعها من قبل، ثم جذبت كفه وعندما استدار بوجهه إليها كانت عيناها لامعتين تمامًا ولولا بقية من خجل لازمته لاحتضنها حتى الموت.

5

كان لوفاء إدراك متميز، يعود لما اكتسبته بحكم نشأتها الطفولية كبنت وحيدة لأب يعود متعبًا من إحدى ورش خان الخليلي، وأم بسيطة غير متعلمة اجتثت فجأة من أعماق الريف وزرعت بنفس السرعة في شقة صغيرة بالقلعة. لم تربت على شعرها أيادٍ حميمة وثيقة الصلة ولم تحتضنها قلوب دافئة تفوح بعطر الأهل والنسب، كانت أغلب العلاقات التي تنامت معها علاقات جيرانية هشة واهية. ومتأرجحة دومًا بين جذب أمها لخوفها عليها ونبذ جيرانها لكسر تعاليها كما كانوا يظنون، عاشت طفولتها كطريد الثأر.. جدران صماء وأبواب مغلقة ثم اكتشفت بعد توالي العمر أن لها أهلًا هناك وصلة دم، لها خالة لديها ابنة في مثل سنها اسمها ليلى وبضع أقارب متباعدو الدرجة والولاء، وكما تعودت من صغرها أن تكتشف عالمها بنفسها وتقيم العلاقات ببعضها لتصل إلى المحصلة وصلت إلى أسباب تفرقهم، عرفت أن أباها اختلف مع جدها والد الأم فترك له الأب الجمل بما حمل. وكان هذا الجمل عبارة عن محل بقالة يعمل به معاونًا للجد ردا لجميله عليه بعد أن رباه عقب يتمه وآواه ثم زوجه ابنته.. بالإضافة إلى ذلك كان هذا الجميل شوكة في حلق الأب، تؤلمه وهو يأخذ المصروف من الجد للصرف على نفسه أو على البيت بعد الزواج، تعود الجد على الراحة بعد زواجه وتركه كثور الساقية.. يسرع بالدراجة ليحضر البضاعة ويتعثر

فوقها وهو يحضر السلم الخشبي لوضعها فوق الرف، ويكاد يقع وهو يبيع للزبون ويوشك على الإغماء وهو يدوّن الديون في الدفتر الكبير.

لم يكن قرار السفر إلى مصر وليد اللحظة بل حلمًا كبيرًا طالما راوده وعندما أوشك على الاختناق همس به لزوجته وهو يخشى أن تتمسك بالبقاء بجوار أبيها، لكن لدهشته الكبيرة وافقت بعد لحظات تردد، لم يكن يعلم لإدراكه البسيط مقدار حبها له وكان واثقًا فقط من نفسه فهو لم يزل فتيًا قويًا يقدر على العمل والتحمل، بدأ خطوة بخطوة يضع بصمته على حرفته حتى أصبح من المتميزين فيها، وتشهد على ذلك بعض آثاره الباقية إلى الآن على المنضدة الخشبية والإطارات القليلة المشكلة بصدفاته، ولا تزال تذكر فرحته بإعجاب الأجانب بعمله والثناء عليه لكنه كان للأسف جهدًا عبثيًا امتصه وسكر من حلاوته صاحب الورشة بمفرده.

في يوم مأساوي عرفت بعض التفاصيل عن شجرة العائلة عندما عادت بحقيبتها المدرسية لتفاجأ بدموع الأم وردائها الأسود، جذبها الأب إلى الحجرة الأخرى واحتضنها وهو يهمس:

- لقد مات والدها، جدها..

عرفت في هذه اللحظة أنه كان لها جد كالآخرين! وفي الأيام التالية من حياتها رأت خالتها أم ليلى التي حلت محل أبيها تبيع البقالة بعد استشهاد زوجها بالحرب، تشممت في الجدار رائحة أسرتها ولهوها وأدركت كم كانت تعيسة وشقية بوحدتها، تغيرت حياتها تغيرًا طفيفًا، فقد أصبحت تقضي معظم إجازتها السنوية هناك بصحبة الأم وأحيانًا قليلة برفقة الأب وتعود بصوت مليء بالشوق والحب وتجيب بفخر عند السؤال.. بلدنا

فليوب. حتى أبوها بعد أن كان لا يطيق سماع اسمها كما كانت تقول الأم، بعد انهيار الجدار الذي كان يعزله عنها أصبح حلمه وأمنيته الوحيدة أن يقضي أيامه الأخيرة عندما يحال إلى المعاش هناك، يتشمم نسيمها الرطب وتتلون عيناه بخضرتها. لذلك كانت فرحته كبيرة عندما استدعته خالتها يومًا للبت في موضوع زواج ليلى، أعاد له الإحساس بأنه رب الأسرة الحيوية والقوة. لكنه للأسف استخدم حيويته خطأ فقد اعترض ورفض أكثر من مرة زواج ليلى وهي لم تزل طالبة بالثانوي، وكاد يتجاوز حدوده ويتشاجر، لولا ذكاء زوجته الفطري وجهودها لإيقافه عند حده، كانت قد علمت بمرض أختها من جلسة ثنائية بينهما ورغبتها الوحيدة في زواج ابنتها قبل موتها، بالإضافة إلى أن مصطفى شاب على خُلق ومتعلم فهو حاصل على ليسانس الآداب ويعمل بالتدريس إلى جانب استكمال دراسته العليا، وعائلته بسيطة كعائلتهم فلن يكون هناك أي منغصات، استطاعت إقناعه بعد جهد وهي تلوك بفمه المثل الدارج :

- أبوها راضي وأنا راضي.

ثم عقبت بابتسامة:

- احتفظ بآرائك لحين زواج وفاء..

سرح بنظره بعيدًا محاولًا أن يستشف الغيب ولما أعياه الأمر قال باستسلام:

- على بركة الله.. وتم الزواج في ليلة جميلة بسيطة ولم تنقض أشهر معدودات إلا وهوت الأم بعد اطمئنانها على الابنة. وهنا تدخل الأب مرة ثانية بشدة ورفض أن يبيعا المحل والبيت ليستقرا بالقاهرة بعد انتقال

الزوج إلى مدرسة بالعاصمة وحصول ليلى على الثانوية وقبولها بآداب القاهرة. بعد محاولات ومجادلات وتدخل القريب والبعيد وافق على أن يتم بيع المحل فقط ليشتريا بثمنه شقة بالقاهرة على أن يحتفظا بالبيت كتراث ومزار للعائلة ويبدو أن عينيه كانتا هناك إلى حيث يود أن يستقر، وافقت ليلى رغم وثيقة البيع الصريح التي أعطاها الجد لأمها قبل وفاته كيدًا في خالتها وزوجها، وأقامت معهم لمدة قد تزيد على شهرين إلى أن استطاعت الحصول على شقة صغيرة بأقصى الهرم.

توثقت الصلة بينهما بعد دخولهما الجامعة في كليتين متجاورتين وللحقيقة ساعدها مصطفى وليلى كثيرًا في إعادة اكتشاف عالمها وتكوين ثقافتها، تخلصت من قراءتها المتعجلة غير المبرمجة والتي كانت تساعدها على تجاوز وحدتها إلى قراءة متمهلة متأنية بمنهج واضح كان واضعه مصطفى، الذي أسعده جدًّا أن يمتد حبل التلمذة من ليلى إلى وفاء بعد أن شده إليها ذكاؤها وتلهفها على المعرفة، وبدأ يتدرج بالمنهج وهو يدس معتقداته وأحلامه خطوة خطوة، وما كادت تنقضي سنتان إلا وأصبحت وفاء أداة طيعة وحاملة لأفكار وعقائد قد تبدو عادية لبعض الناس إلا أنها بالتأكيد مخيفة لآخرين. قد نكون أعطينا لمصطفى قدرًا أكبر من حجمه وألبسناه قسرًا وعن عمد رداءً فضفاضًا يتجاوز قزميته الشكلية، فوفاء كانت مؤهلة تمامًا، طيعة وجاهزة للتشكيل، وقد يرجع هذا لنشأتها البسيطة ووحدتها المضنية، أو لمعاناة والدها أو لاعتقادها الدائم بأنها كائن هش ضعيف ستواجه العالم يومًا وحيدة، وفكرتها المهملة في هامش شعورها والتي تتواثب أحيانًا إلى البؤرة بأنها إسفنجة مبللة ملقاة في (صبانة) حمام،

كانت تود أن تتمرد.. أن تقفز كمارد وتأكل العالم قبل أن يأكلها، ووجدت بغيتها في كتب ومعتقدات وأحلام ثورية كانت من نتيجتها أن تتواجه مع الذين تود محاربتهم.. صاحب الورشة الذي أكل عرق الوالد حيًا ويريد أن يشتريه ميتًا والذي ما إن لمحها وقد كبرت فجأة أمام عينيه، متناسيًا دم أبيها الذي لم يجف بعد، أدار الكلام ولينه ودهنه بالعسل والزبد حتى يغريها بالعمل معه بأجر مجز.. الوقح يريدها أن تعمل في ورشة كلها رجال.. يريدها أن تعمل ولم يجتهد حتى في إخفاء الذئب خلف نظرته أو مع اللعاب الذي كاد يتساقط من شفتيه .. ليس رفضها للعمل معه نابعًا من خوفها من مشاركة الرجال فهي " قدهم وقدود" وأكثر منهم رجولة إذا لزم الأمر لكن الطريقة .. النظرة .. سبته ولعنته غير منتظرة مصروفات الجنازة ومكافأة نهاية الخدمة، اكتفت بمعاش الحكومة وقبلت على مضض أن تسير بالحمارة العرجاء خوفًا من سؤال اللئيم.. الحيوان.. هي تدرك جيدًا أنها ليست جميلة لكن الوهم الذي يركب أحيانًا خريف العمر ويوهمهم أن تفتح زهرة قد يمد لهم العمر.

اكتفت بالمعاش ومدخرات قليلة تركها الراحل وبعض عائد عملها على الآلة الكاتبة، وتفرغت للجامعة نهارًا والقراءة ليلًا، وثلاث ساعات بعد الظهر منحنية على الآلة الكاتبة تقابل فيها وجه الحازم.. والمتعجل.. المحب.. والشاكي.. المتذمر.. والذي تندب في عينيه رصاصة.. الخبيث الذي تلتصق عيناه بفتحة الصدر.. والخجول الذي يمنعه خجله حتى عن فحص الورقة بعد الكتابة.

وبدأت الحياة تكثف هداياها لوفاء، كان عليها أن تواجه رجال التنظيم بآدميتهم المنسحقة واللامبالاة والتهديد الساخر بالرحيل الجبري قبل الإزالة، تنكيس.. لا يجدي.. وهل تفهمين أكثر منا؟ اكتبوا تعهدًا بالقسم بمسؤوليتكم عن حياتكم حتى تسقط مسؤوليتنا، وكتبوا التعهد غير مبالين في أول الأمر وكلما سقطت ذرة من تراب أو قطعة صغيرة من الحجر كان ساكن يفر حتى لم يعد بالبيت غيرهما، البنت والأم في مواجهة الموت ودام الأمر لمدة لا تتجاوز الأسبوع، أدركت بعدها أن ثوريتها لن تفعل شيئًا، وما ذنب الأم في تحمل المخاطر، اقترحت على الأم الذهاب إلى ليلى حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، همست الأم بحروف مهزومة منكسرة:

- نبقى حتى يحين أمر الله فليس لدينا مال يكفي لتأجير شقة، وأمام المخاطر المتجددة تدارسا الأمر جيدًا ثم اتفقا على البقاء بالبيت نهارًا وقضاء الليل بشقة ليلى، وارتضيا الاقتراح الأخير ففيه إثبات لحقهما في الحصول على شقة - لو لا قدر الله وحدثت المصيبة - بديلة من المحافظة، لكنهما غفلتا عن شيء هام، الحجارة والخرسانة لا دخل للعواطف في بنائها وممكن أن تنهار فجأة عليهما أثناء الدخول أو الخروج أو حتى في عز الضهر، ما علينا.. أدركتهما رحمة الله وكتب لهما النجاة عند انهيار المنزل في منتصف ليلة كما قدرا ذلك. وبعد نحيبهما وبكائهما على المقاعد والمناضد والكنبة الوحيدة التي كانت كل متعلقاتهما بالبيت بعد فرارهما بالأشياء الثمينة في نظرهما قبلًا، تم تسليمهما المائة جنيه والبطانيتين من مندوب المحافظة، إثر بضع كلمات قليلة نشرت بصحف الصباح. كما حصلتا على وعد بشقة قريبة من

المندوب لكن مؤقتًا ستقيمان بخيمة الإيواء بمصر القديمة ولما احتجت الأم ونهنهت وتساءلت كيف سيبيتان مع أُسر برجالها؟ كاد المندوب أن يسحب البطانيتين. وعندما قبلت الأم صاغرة وأرخت وفاء هدبيها ألمًا، لمحها المندوب ورقّ لها وبجرة قلم أعاد توطينها في جامع شيخون، غير سامح بأدنى احتجاج وهو يوقف الحوار بكلمات حاسمة:

- هل ترفضا بيت الله؟ صدقاني سترتاحان هناك كثيرًا كما أنه قريب من منزلكما المنهار وعلى العموم هى مدة قليلة ونعيد تسكينكما في شقة حديثة وعندما أنهى حديثه.. غادر المكان خلف آخر ومضة فلاش...

6

لعل حيرتها تبددت قليلًا بمجرد دخولها جامع شيخون وتبخر تعجبها في كيفية الإقامة وسط المصلين، فقد أدى بها باب المدخل الرئيسي إلى دهليز غير منتظم الأضلاع، أرضيته مفروشة ببلاط من الحجر الجيري، وكان للدهليز بابان بالجهة الجنوبية يؤدي الأول إلى صحن المسجد وهو مربع الشكل تقريبًا وتتوسطه أطلال فسقية ماء ويؤدي الدور الثاني إلى سلم حجري، كما اكتشفت ثلاث وحدات سكنية بالجهة الجنوبية تتكوّن كل منها من ثلاثة طوابق .. الوحدة الأولى بأقصى الحد الجنوبي وهي فردية عبارة عن ثلاث خلاوٍ متجاورة، والثانية مزدوجة وهي تضم خمس خلاوٍ متجاورة، والوحدة الثالثة مزدوجة، يطل القسم الشمالي على الصحن ويتكوّن من ثلاثة طوابق، الطابق الأرضي يتكوّن من خمس خلاوٍ وأعلى مدخل كل منها فتحة ضيقة كالسهم وسقوفها أيضا مقبية، ويعلو تلك الوحدة السكنية الثالثة طابقان يحتفظان ببعض معالمهما بكل طابق عشر غرف متقابلة بينهما ممر طويل مسقوف ومن هذا الطابق الأخير كان نصيبها من الإيواء غرفتين متقابلتين.

اكتشفت بالمكتبة أيضًا أن هذا لم يكن مسجدًا بالمعنى المعروف بل كان يسمى خانقاه شيخون(*). والخانقاه من العمائر الدينية المهمة التي كثر

(*) كتاب «مساجد مصر وأوليائها الصالحون»، للدكتورة سعاد ماهر محمد، الجزء الثالث، ص 259.

انتشارها في العصر المملوكي وكانت تقام لإقامة المنقطعين للعبادة من الصوفيين، ولما كانت الخانقاه أساسًا وقبل كل شيء هي مكان مخصص للعبادة فقط، حرص المعماري على أن تحتوي على أهم مقومات المسجد ألا وهو المحراب والأروقة وكذا المئذنة، هذا بالإضافة إلى خلاوٍ المتصوفة التي غالبًا ما تقع خلف الأروقة وقد تشغل طابقًا أو اثنين بل قد تصل في بعض الأحيان إلى أربعة طوابق ولعل المئذنة والحصن هما سبب تسمية هذه الخانقاه بمسجد شيخون القبلي تمييزًا له عن المسجد المقابل المسمى الآن بمسجد شيخون البحري.

لقد أبهجها الحظ بأن تحتضن التاريخ وتنام على حجارته بل والسعادة الكبرى في حصولها على غرفتين متقابلتين، وقبل أن تأخذك السعادة لسعادتها استمع بتروٍ لوصف ابن عطاء السكندري لبيت الخلوة لتقف على مدى اتساع المسكن (يكون ارتفاعه قدر قامة الرجل وطوله قدر سجوده وعرضه قدر جلسته ولا يكون فيه ثقب ينفذ منه الضوء إلى الخلوة وأن يكون بعيدًا عن الأصوات وبابه وثيقًا قصيرًا في دار معمورة بالناس).. ويبدو أن المشرفين على بناء هذه الخلوات كانوا متساهلين بعض الشيء فسمحوا ببعض الاتساع في العرض وبعض الامتداد في الطول جعلها تكتفي كأغلب المقيمين بأثاث بسيط يشاركهما الخلوة موقد صغير وعدة صحون للطعام وصندوق كرتوني كبير للكتب.

بدأت إقامتها بالتعصب والتشاجر مع الجيران لأسباب بدت تافهة من وجهة نظر الجيران، وماذا في الأمر؟ نزعوا أبواب الخلاوي الخشبية المزخرفة الجميلة وجعلوها أسرّة لهم وهل هم أغنى من الحكومة؟ تقول "الهبلة" إنها آثار هل تتكسر ضلوعهم من النوم على الأرض لأجل الآثار؟

الحي أبقى من الميت يا آنسة.. فعلًا قد يكون عندهم بعض الحق، فإذا كانت حكومة طويلة عريضة يحركها عضو أو عضوة بالمجلس تحريكًا على الورق، وهو يعلن في لحظة تيه وخيلاء أسفل قبة المجلس أنه سيأوي المشردين فاقدي الإيواء، ويضع تأشيرته على الورق في غفلة من الزمن فيمحو أثرًا صمد كثيرًا أمام الزمن، هل يصدقون أن عمر الأَسرّة التي يضطجعون عليها تجاوزت مئات السنين؟ أو بالأدق ولدت عام 750هـ لكن لمن توجه اللوم وعلماء أجلاء لم يفيقوا بعد من الغطيط.. لم تزعجهم معاول الهدم وهي تَدُكّ الجدران الأثرية ولم يكلف أحدهم نفسه ويتفضل ويرى بعينيه دورة المياه المزروعة حديثًا في مدخل الخانقاه والمياه المتسربة في كل مكان من جراء الاستعمال السيئ للدورات والأسلاك الكهربائية الممتدة إلى الخلاوي لإنارة اللمبات، نزلت وفاء السلم الحلزوني المتآكل إلى حيث الصحن في فترة خلاء الخانقاه، مضت تتأمل الزخارف وهي تحاول قراءة الكتابات النسخية، أفضى بها الصحن إلى خلاوي الدور الأول التي كانت أضيق قليلًا، وخالية من المستعمرين الجدد، استرجعت كلمات ابن عطاء: (الخلوة وسيلة للوصول إلى سر الحق فهي تبتل إلى الله وانقطاع عن غيره تعالى) جاءها الأمير شيخون وقد وثب عليه المملوك «قطلوخجا» وضربه بالسيف ثلاث ضربات أصابت وجهه ورأسه وذراعه لأنه منعه من الخبز وأعطاه لغيره، طيبت جراحه فابتسم وكانت تعلم بموته بعد ثلاثة أشهر من إصابته، ربتت على رأسه بحنان.. سألها هل اقتص السلطان من القاتل؟ ارتاح كثيرًا عندما أخبرته أن السلطان أمر بتسميره فسمّر ثم سقط.

أفاقت من إغفاءتها منزعجة ثم قالت لنفسها لعل روحه تطلب الآن الرحمة، اتجهت إلى مربع بسيط من البناء بداخله قبره، قرأت لروحه الفاتحة، عند عودتها واجهت المحراب وأعمدة الرخام وبقايا لا تزال تدل على بذخه.. همست : لِمَ منعته الخبز يا شيخون؟ لِمَ منعته؟

أصبح يقلقها الآن الانتظار القاتل وهل هو لفترة محددة أم لأبد الآبدين؟ وهل ستجد الدولة في ذهنها الوقت لهم؟ أم لسكان البيوت المنهارة المتوالية أو الآيلة للسقوط؟ وإلى متى ستتحمل الوجود هنا؟ وإن كانت وهي التي لم تتجاوز العشرين عامًا تشك في مقدرتها على الصمود فما بال الأم! تحس بأن جسدها مليء بثقوب تعيش منها وكل يوم يمر يسُد فيه أحد الثقوب، من جهتهم ليس هناك أدنى مشكلة فقد تأقلمت كثيرًا معهم وشعرت بهم يسبحون في دمها، نفس الظروف المتشابهة وربما لبعضهم ظروف مأساوية أكثر منها، فمنهم من فقد أباه أو أمه أو زوجته أو أولاده، ومنهم المدّعي النصاب الذي حصل على ورقة معضدة من منحرفين بأنه كان يقيم في بيت تداعى وانهار، ثم اندس بينهم للحصول على شقة.. كم عانت من انفعالهم.. فهم متمردون.. ساخطون دومًا لكن العجيب أنه بمجرد تعقد المشكلة وارتفاع الصوت وغلظة الحناجر وتأهب الأيدي للتشابك على أي شيء حتى ولو كان تافهًا.. بمجرد أن يغرقوا في البنزين ويصبح أقل ضوء يمكن أن يشعل حريقة كان أحد المتنازعين يقدّر ظروف الآخر.

غالبًا أحدهم يتنازل فينفض الجمع الغفير وتتسلل بسمات قليلة تعقبها ضحكات أكثر، ثم يخبطوا على أجساد بعضهم البعض في شيء من المرح واللهو، قد يتطوع أحدهم بوضع التليفزيون في الممر الطويل الذي على

جانبيه تتكدس الغرف، وتخرج كل سيدة بطبق وكل طفل بحاجة من حاجات الطعام.. ملح.. زيتون.. برتقال.. وتنتهي الليلة ورجالها نائمون متراصون أمام التليفزيون وسيداتها داخل الغرف ينمّون.. يتشاورون أومتفرغات للتزين.

تغلب حبهم عليها وعلى خوفها القديم من الناس وتداخلت معهم تمامًا.. كوّنت منهم أصدقاء وإخوة، وخفف من وحدتها هناك أن بجوار الخانقاه عيادة شاملة لأطباء متطوعين بأسفلها حجرات أعدّت لتعليم الخياطة والتطريز اليدوي وفصول لمحو الأمية، وكل هذه الخدمات بالجهود الذاتية قدمت نفسها للمديرة متطوعة للعمل تحت إمرتها واختارت يومين خاليين من المحاضرات، قبلت المديرة شاكرة، انتظمت فى التدريس وأصبح لأيامها الآن معنى.

نحن بطبيعتنا إنسانيون، والخوف تركيبة من تركيباتنا المعقدة مهما ادّعينا القوة، مهما مثّلنا على الآخرين أننا لا نأبه لهم وأنهم في هامش الشعور، لذلك كانت علاقة وفاء بزملاء الجامعة تنتهي بنهاية شارع المبتديان على أنها من ساكني حي السيدة، ثم تنطلق وحيدة منزوية عبر شارع قدري، فشمالًا إلى سبيل أم عباس إلى امتداد الشارع حيث جامع شيخون.. هل كانت تخشاهم؟ أم تخاف أن تتضاءل في نظرهم؟ لا.. فاختياراتها لا تتعدى مطلقًا الفئة المتوسطة ومع ذلك كانت ترتعد من نظرات الشفقة أو الإحساس بأنها اختارت الوقوف في صفهم لعلة بها، حتى إذا ما انزاحت يبقى التأرجح في عقولهم هل ستظل معهم. أم سوف تدير لهم ظهرها؟

ولعل هذا التخوف قد تمكّن منها جيدًا بعد تركها محمود.. واجهت الخوف الحقيقي وجهًا لوجه وأكثر من مرة سألت نفسها هل تستمر؟.. كانت تظن أن الأمر كله مجرد لهو أطفال، وكانت إلى وقت قريب جدًا جادة إلى أقصى حد. لم تلتفت لمداعبة شاب أو يخفق في داخلها القلب، إلى أن دخلت الجامعة لأول مرة وبهرتها التشكيلات المتماوجة أمامها، وشعرت أنها مجرد عصفور صغير يتطلع إلى الغابة العريضة بوحوشها الكاسرة ويموت بين دهشته ورعبه، شجعتها ليلى قليلًا وجرأتها على التحدث مع الزملاء والزميلات بعد معاناة شديدة واجهتها لمجرد النظر إلى بعض الفتيات وإحساسها بعجزها عن صداقتهن أو حتى استقطابهن لحديث، فكل قدرتها جمال محدود وملابس متواضعة وقدرة تساوي صفرًا في التجميل أو إبراز المحاسن، كادت تفرُّ من الجامعة نهائيًا أو تنزوي إلى نهاية دراستها بين مدرجاتها الباردة، وقضت أيامها الأولى في اكتئاب شديد أدركه مصطفى بذكاء وأخبر به ليلى وتعاونا معًا على العبور بها من هذه المرحلة، أخبرها مصطفى وكان قد بدأ يصبح بالنسبة لها المعلم الأول بأن هناك سيفًا تستطيع أن تبارزهن به وتتفوق عليهن أو على الأقل تصبح به على قدم وساق معهن وهذا السيف هو الثقافة: القدرة على إقامة الحوار ووضع المتحاور في خانة "اليك" حتى الوصول به إلى الاقتناع بأنه ضئيل.. ضئيل، وطمأنها مصطفى وهو يقنعها بأنها تمتلك هذه المقدرة على التحاور، بما قرأته وبما عليها أن تلتزم به الآن من مناهج للقراءة حتى لا تقف يومًا موقفًا ضعيفًا أمام من قد يكون أكثر ثقافة منها، ولاقى قوله قبولًا رحبًا منها حتى أصبحت الأقدر على المجاملة والحوار بل وعلى التكيف الاجتماعي ذاته، فكل يوم يمر تتسع فيه علاقاتها وتتشعب.. تقود الطلبة في رحلات جماعية

إلى مختلف الأماكن، تناقشهم في كل شيء بدءًا من الحياة وانتهاءً بالكرة، حتى أصبحت باعتراف مصطفى نفسه أقدر من ليلى في التعامل، لدرجة قلبت تمامًا خوفها وتوجسها من الناس إلى جسارة، تخوف منها مصطفى يومًا وطالبها بالانتباه وتوخي الحذر فالأوضاع الآن متقلبة وقد يكون بين الطلبة مندسون على حد قوله.. دُهشت قليلًا وقالت:

- إنه مجرد نقد..

ابتسم بسخرية وقال:

- لا ينهي حياة الناس غالبًا إلا النقد.. كان اقتراب محمود منها في البداية لا يدهشها فقد اعتادت ذلك من طلبة كثيرين أثارتهم كثيرًا آراؤها ومحاوراتها وسايروها تدفعهم إليها رغبة أنانية في الهيمنة عليها فكريًّا تغذيها في رأسهم عروق نافرة في أعناقهم، وموروث قبلي اسمه الرجولة، وكانوا غالبًا بمجرد تعدد المناقشات يتخذون أحد طريقين؛ الهرب من أمامها بعيدًا عن وجع الدماغ وحفاظًا على رأس جميل أجوف أو الاقتراب منها بحذر والإعجاب بها من بعيد، ورأت محمود في البدء منهم وبتوالي الأيام تكتشفت لها ضحالة تفكيره السياسي وسلبيته التامة مع تسطيحه الكامل، توقعت فراره السريع لذلك عجلت بإهدائه الكتب الخطيرة بعد أن ملت من مدّه بدواوين الشعر، ولم يدهشها غضبه العنيف وثورته في وجهها.. لكن الذي حرك كيانها كله وجعل أوصالها ترتعد، صدقه وصراحته، وعندما خرجت كلماته عن الأسرة والأم والمسؤولية مست الكلمات قلبها بعنف،وأدركت أن ذلك الشيء الضئيل الذي يرقد بالصدر وأهملته كثيرًا من الممكن جدًّا أن يدق تضامنًا مع قلب آخر مثله

لإنسان يخشى ويخاف وهو يدرك حجم مسؤولياته، عقدت العزم على الاحتفاظ به كصديق وتجنيبه المتاعب بقدر الإمكان واستعارت من مصطفى مجموعة كبيرة من دواوين الشعر، تمدّه بها عند طلبها واستسلمت تمامًا لسخرية مصطفى وهو يتعجب. هل تمّ حل كل مشاكلنا ولم تبقَ إلا الرومانسية؟؟ لم تجب وإن كان الذي حيّرها كثيرًا شعور بدأ ينمو داخلها بأنه طفل صغير، يجب العناية به والخوف عليه والأخذ بيديه.

لكنه اقترب كثيرًا وتجاوز كل المنحنيات الخطرة، ولعلها اقتربت منه بنفس القدر أو أكثر، ولعله الشيء الوحيد بحياتها الذي تركته لسجيتها ولم تتدخل فيه برأسها وخلاياه المعقدة فقد كانت من أعماق أعماقها تتمنّى أن يحدث .. وإلى الآن لا تعرف هل حدث؟ أم أن حاجتها الشديدة إليه حجبت عينيها عن الرؤية.. لا.. مستحيل أن يكون هذا سرابًا.. العين الغائمة المسافرة في رحلة طويلة.. ارتعاشة اليدين.. ذبذبات الصوت الحالمة.. وأكثر من هذا.. الفعل.. أن يغامر الشخص بحياته ليكتب كلامًا سخيفًا على الجدران لمجرد أن يثبت لنفسه على الأقل أنه أهل لها.. فعل أهبل وخائب.. لكنه حمل سره على كاهله.. غامر به ليلًا.. حارب الأوهام وطاردته الكوابيس.. تمثلت له الكلاب الضالة جنودًا بأسلحة وذخائر وتشكلت له القطط بموائها الحاد زبانية جهنم.. أكيد تحمل كل هذا. مؤكد أنه ليلتها لم ينم.. وعندما أوقفها أمام الجدران وباحت ملامحه بكل شيء أدركت تمامًا أن الأمر لم يعد سرابًا وأن ذلك الشيء المقيم بالصدر كان صادقًا تمامًا واستلذت كثيرًا برجفته التي تشبه رجفة الحمام الصغير أسفل قطرات المطر.

كان عليها الآن أن تشركه في مجتمعها الصغير، أن تعرّفه على ليلى ومصطفى وبعض الذين كان يجلس معهم أحيانًا غير متدخل في الحديث إلا بالنذر اليسير. كما كان عليها أن تعرّفه على أمها وأن تقترب به من مقر إقامتها حتى يكتشف عالمها، ومن العجيب أنها لم تخشَ أن يهرب عندما يدرك تواضع أسرتها ويتلمس مقدرتهم المحدودة على مجابهة الحياة ويحتك بفقرهم وهو يراه رؤية العين، كانت تعتمد تمامًا على عاطفتها لأول مرة في حياتها وتحسن الظن به كلية وحتى لو حدث ما أهملته تمامًا وهرب.. لا يهم.. فستكون قد اكتشفت عالمًا آخر من الناس تضمه إلى سجلها وهي تبتلع جرحها القاسي وقد يكسبها ذلك مقدرة أكبر على الصمود والمواجهة.. مواجهتهم جميعًا إذا لزم الأمر.. ولكن لن يهرب.. أكيد لن يهرب، هل تكذب مثل هذه العيون؟ هل تكذب نظرته التي تخبرها في كل لحظة باستعداده للموت دونها؟ بسمته الرقيقة الحانية هل تخذلها؟ مستحيل.. كما أنه أيضًا ليس ثريًا فيتعالى على دقات قلبه.. ملابسه جيدة.. به بعض الكرم الذي لا يقدر عليها أمثالها.. يسكن في حى راقي.. كل هذا قد يشي بثرائه لكنها تشم فيه رائحة طبقتها وتعرف أن الحي الراقي يجمع النقيضين.. الشقق الفاخرة والزهيدة ذات الإيجار القديم ثم إنه قد باح لها مرة بعمل والده فى إحدى البلاد العربية، مما ميزه هذا الوضع نسبيًا من حيث المادة لكنه لم يتغير أبدًا.. لمساته.. إشاراته.. كلماته.. أفكاره.. طرق التعبير، كما أن أحلامه البسيطة المتواضعة تخبرها من يكون؟ لن يفرَّ أبدًا.. كما أكد لها قلبها الذي أهملته كثيرًا، لكن عليها الآن وبطريقة عفوية لا تبدو أبدًا أنها مقصودة أن تدخله شيئًا فشيئًا إلى عالمها بدون أدنى إبطاء ولا تأجيل.

7

اصطاده زوج أخته وهو يتسم وعقد العزم على تكديره والعبث به فقال له في استهانة:

- حاول أن تفرغ نفسك يوم الجمعة حتى أريك الأرض الجديدة.

لم يستطع منع نفسه من قسوة الرد:

-اذهبوا أنتم ليس لي أي داع.

لم يبتلع زوج الأخت الرد واستمر بسكينه الحاد يقول:

- أنت الخير والبركة.. كلنا ليس لنا داع أما أنت الكل في الكل.. أنا مجهز لك في الرسم محلًا مخصوصًا وكذلك شقة واسعة لزواجك ولو رغبت في فتح مكتب أجهزه لك.

قاطعه بخشونة :

- اذهبوا أنتم فأنا مشغول يوم الجمعة وخد معك ماما تغير جو.

استراح زوج الأخت لاعتذاره، فباستطاعته الآن الانفراد بالرأي والحلم والتخيل دون همهمة الأم المتعاطفة مع الابن وشرود نظرات الأخت الحائرة دومًا بينهما، فانسحب وهو جذلان.. احتاج محمود لفترة من الوقت حتى

يخرج من هذا الجو النفسي الكئيب الذي أحاطه به زوج الأخت، ولم يكن أمامه من واحة يتطلع إليها سواها.

بمجرد أن رأته استأذنت من زملائها.. وهي تسرع إليه الخطى بادرته:

- اليوم سوف أعزمك، حدّد الوقت المناسب.

بنشوة ظاهرة سألها:

- أين؟

قالت وهي تطرق الأرض:

- دعها مفاجأة.

حدد هو الساعة السابعة فقالت بابتسامة:

- في شارع المبتديان وجهّز نفسك فربما تتأخر.

عندما اقتربت الساعة من السابعة واجهته أضواء محل الحلواني الشهيرة المبهرة ووجدها معطية ظهرها للشارع وواقفة تتأمل (التورتات) الضخمة ذات الأضواء المتعددة، متنقلة برأسها بين تمثالي العروسة والعريس المشكلين من الحلوى وكوخ الكريما بمدخنته المصنوع من الشوكولاتة، اندسّ بين منتظري (الباصات) ووقف يتأملها عن بعد.

كان في حالة من النشوة والحبور يعجز عن وصفها لندرة ما مر به منها أو لخشيته أن يفقدها، انغرزت في وجهه عيون المنتظرين المندهشين من هذه الوقفة المخالفة للعادة، تحرك، ربت على كتفها بقبضة يد حانية، التفتت بانزعاج لهرب الحلم، لكن بمجرد رؤيته تكوّنت الابتسامة مرة أخرى على

وجهها، عبرا الشارع الفاصل ودخلا في العمق وكان الطريق يزداد ازدحامًا كلما توغلا وكان لا يزال مندهشًا خجلًا من أن يسأل، موعد على مشارف حي السيدة في يوم المولد؟ حتى عندما وصلا إلى عمق الميدان وظهرت لهما الزينة والأضواء والسرادق لم يسأل.. ظلّ فقط يساندها ويساعدها على اجتياز الازدحام وتفادي الجمال الباركة والمزدانة بالترتر والقماش الملون حتى العنق، وكان جذلانًا جدًّا بتلمسها واعتمادها على كتفه والتعليقات الساخرة التي كانت تطلقها على المناظر الغريبة، كان حريصًا جدًّا على منع الإيذاء عنها، مضت عيناه كعيني (الرادار) تكشف المكان وتحميها وسط هذا الجو الجنوني التي زادته الميكروفونات المزعجة جنونًا.

تبخرت فرحة صحبتها سريعًا بمجرد رؤيته لوجه مصطفى وليلى ورشاد وحسن وسلوى وآخرين، نظر إليها بعتاب، لمحته بمكر وجاهدت لتفادي نظراته وهي سعيدة باكتشافها دليلًا آخر، حياهم وهو يحاول كبت غيظه بقدر الإمكان، جذبت يده أثناء تجوالهم وهمست:

- خطواتك سريعة لا أقدر على اللحاق بها.

أبطأ خطوته ولم يرد، قادهم مصطفى إلى سرداق أعلاه "لافتة حزب" نرحب بضيوف المولد، استطاع رشاد بمعاونة حسن وقدرتهما الجسدية الحصول على عدة مقاعد، كان على يمين مصطفى مقعدان أجلس ليلى على مقعد وزعق بوفاء للجلوس على الآخر، دفعت وفاء سلوى للجلوس على المقعد الخالي ثم تعمدت أن تجذب يد محمود وتجلسه بجوارها في الجهة الأخرى حيث يجلس رشاد، أرضته هذه الحركة قليلًا فبدأ النغم المتشابك يرق ويصفو ويدخل إلى أذنيه مفسرًا حلوًا وجميلًا، كان قد

استمع إلى هذا المغني العجوز مرة في الكلية إلى جوارها وها هو ذا الزمن يعيد دورته.

كان الكلمات تمس العقل والإيقاع يشد المستمعين، كبرت الحلقة واتسعت وبدأ الناس يغنون مع المغني بصوت جهير، التفت إليها وكانت مندمجة تمامًا مع الأغنية وعيناها في شبه إطباقة تردد ما يغنيه، أحست بنظرته فمدت يدها النحيلة تضغط على يده المسترخية فوق فخذه، اقتنص يدها ولم يفلتها، ذعرت، اقتربت برأسها منه وهمست:

- الناس. كانوا ما زالوا يغنون، أفلت يدها، أدهشته أنها تركتها راقدة على يده.. غابت يومين بعد هذه الليلة الجميلة وظلّ يبحث عنها كالمجنون، رغم عدم استلطافه لمصطفى بحث عنه حتى وجده في المكتبة، سأله عنها، لم يفده بالرد قال وعلى وجهه ابتسامة معرفة:

- الغايب حجته معاه.

انتظر ليلى حتى أنهت محاضرتها، قالت له في حيرة :

- غريبة لا أدري ما الذي منعها عن الحضور؟ فهذه أول مرة تفعلها..

تركها كابتًا حنقه معلقًا تأرجحه بين المخاوف والظنون، عقد العزم على أخذ عنوانها من مصطفى أو ليلى أو حتى الشؤون الإدارية لو لم تأتِ غدًا.. لكن هل من اللائق زيارتها بمنزلها؟ أليس جائزًا أن تسبب لها هذه الزيارة حرجًا شديدًا؟.. ليس أمامه إلا حلًا واحدًا أن يقنع ليلى والزملاء بزيارتها.. لكن أليس من المحتمل أن يثير هذا الطلب الأقاويل وتكثر التلميحات.. لم

تطل أيام انتظاره وجاءت في اليوم الثالث وعلى وجهها بعض القلق أجادت رسمه، لم تنتظر أسئلته قالت من فورها:

- والدتي كانت مريضة..

وبعد دقائق معدودات استعادت روحها المرحة وهرجت وقلدت وتكلمت وابتسمت وضحكت، باح لها عند انفراده بها بقلقه أثناء غيابها ونيته زيارتها لولا جهله بالعنوان، ابتسمت لحسن فهمها وصحة توقعها وقالت بابتسامة:

- كأنك حضرت..

سألها متخابثًا:

- هل كان سيسبب لها أي إزعاج لو زارها؟ أجابت في محاولة لإحكام الفخ:

- لا.. فقط كانت أمي ستدهش فلم يزرني أحد من زملاء الجامعة قبلًا عدا ليلى، سأكلمها عنك.. حتى نجنبها أي مفاجآت قادمة وعقبت بضحكة، لو زرتها في مرضها.. احتمال أن تظنك الطبيب، على العموم في أقرب فرصة ينوي فيها مصطفى وليلى زيارتنا لابد أن تأتي معهما.

8

تصوره أمامه ظلًّا قاتمًا هائل الحجم هلامي التفاصيل، افتقد القدرة على التنفس، كان الظل يشاركه الهواء وكانت القسمة في غير صالحه تمامًا، وجلبابه الفضفاض يضيف امتدادًا للجسم وعصاه الأبنوس لا تزال في قبضة اليد، متجهمًا دومًا كعادته لاعتقاده بأن مجرد بسمة صغيرة قد تهدّ كيان البيت فينقلب الولد وتنفلت البنت.

لذلك كان يأتي دومًا إلى البيت ومعه وقار أقرب إلى العبوس، وجد أقرب إلى الغضب، وصمت يشابه سكون الموت.. تصوره أمامه وهو ما بين اليقظة والحلم يسأله في غضب عن سبب استدعائه الملح.. هل حدثت مصيبة؟ هل ابتليتم ببلوى؟ وعندما يجيبه الصمت والرجفة والبكاء، يصرخ في جنون مازلت تبكي كالأطفال.. ألن تصبح رجلًا أبدًا؟ أيها الطفل جعلتني أعتمد على الغريب وحتى بعد أن نبت في وجهك الشارب واخشوشن الصوت لا تزال طفلًا لا تقدر على مواجهة الحياة بدوني. هل تصورت أني أتنزه بالغربة؟ أنا أطفح الكيل كي تعيشوا في رغد وتستدعيني لأنك تخشى النوم في الظلام..

تصوره يقوم من مقامه يحجب عنه الضوء، يحاصره في ركن الغرفة وبيده اليمنى حزام جلدي ثعباني الحركة، ويده اليسرى تمتد بنصف دائرة حتى لا يهرب وينفلت، فقد الرؤية وأنفه ممتلئ برائحة عرقه، كان الجسد

لا يزال يئنّ من تأثير الضربات المبرحة وكان لا يزال متحيرًا كعادته لِمَ يُضرب هذه المرة؟ هل لأنه كسر الكوب أثناء سيره؟ لضحكه أثناء الأكل على موقف مختزن؟ أم لأنه بال على نفسه خوفًا أثناء الدرس..

صرخ بعزم صوته، قام منتفضًا، واجهته أشعة الشمس المتسللة عبر زجاج النافذة، تلفت في الغرفة، بسمل .. همس:

- اللهمّ اجعله خيرًا..

واصل سيره حتى المكتب، فتح درجه وتناول الرسالة، قطعها قطعًا صغيرة بدلًا من أن يرسلها، ارتفعت عيناه إلى البرواز الخشبي المعلق، كان لا يزال جالسًا هناك بجلبابه الفضفاض وعصاه الأبنوس.

سأل نفسه بعد أن تيقظ تمامًا. ألن يقدر على مواجهة الخوف منه أبدًا؟ لماذا فعلًا لا يستدعيه ويحاوره؟.. يلومه لأنه ترك للغريب الحبل على الغارب، يبيع ويشتري ويبني والوريث الشرعي لا حول له.. سيقول لك وهل أخلّ بواجباته تجاهك أو تجاه أمك أو أختك؟.. لم يخل يا والدي أبدًا ولن يخلوَ ما دمت تغرف وتمده بالنقود التي يحتاجها، لكن كيف أوصل لك الإحساس بمده؟ كأنه يقتطع جزءًا من كبده ويعطيني ويشعرني دومًا أنها نقوده ولولاه ما وصلت إليّ وأنا أخشى المستقبل جدًا يا أبي.. أن تعود هرمًا فتواجه أسدًا كنت قد تركته جروًا، أخشى المستقبل جدًّا وأنت في واد آخر تنسج الأحلام بخيوط العنكبوت.

جلس لحظات صامتًا ثم فكر أن يواجه الخوف ويكتب له رسالة ترجوه أن يعود، تغلب الخوف عليه وأقنعه بأن يؤجل الكتابة قليلًا ويتحين الفرصة،

ويظل متربصًا بمنتصر حتى إذا ما أخطأ أو ظهرت بادرة من بوادر التدبير السيء أسرع باستدعائه وبذلك يكون للطلب مبرر معقول، واستراح لهذا الحل فاستعاد وجهه صفاءه بعد أن كدرته كوابيس أمسية الأمس، امتدت يده إلى الكتاب الملقى على المكتب، سوى الصفحة المثناة التي كان قد اتخذها علامة، استعرض بسرعة عناوين الأجزاء التي قرأها فقد كان عليه أن يناقشها في هذه الأجزاء كما وعدها، كان كل يوم يمر تصبح فيه قدرته على الاستيعاب أكبر، سرّه هذا جدًا كما كانت تسره دهشة مصطفى من قدرته الكبيرة على الفهم، أصبح واحدًا منهم الآن وانضم إلى مناقشاتهم في الأدب والفن والدراسة، كما أصبح مشاركًا في أغلب اجتماعاتهم التي كانت تتم بمنزل مصطفى أو رشاد ومرات قليلة عندها، والغريب أنه كان يحس بأنه في سباق طويل مع مصطفى وكان واثقًا من أنه في نهاية السباق سيعود منتصرًا.

9

كان قد أعاد لوفاء كل توازنها الداخلي، ردّ لها أيام طفولتها أكثر إشراقًا، أعطاها الفم الذي تتذوق به بهاء الحاضر ونضارته، وكانت قد فقدت الإحساس بالمقاومة أمامه، خار منها العزم تمامًا، كيف تستطيع أن تقفل بابًا أمامه؟ أن تستأصل خطوات تودّ لو تلتحم معها.. كيان كامل يشتاق أن يتداخل معها ليواجها معًا الحياة، هل تستطيع أن تقاومه؟.. بطاعته العمياء.. بسكونه وإطراقه كتلميذ مؤدب.. تتبعه لها كالظل.. رائحته التي بدأت تتخللها.. هل تستطيع منع الأنف من التنفس؟ الأذن أن تسمع.. وترتاح لرنة ضحكته.

أعاد لها ثقتها بنفسها.. قدرتها على سبر الغور والاستنباط.. كانت واثقة من بقائه بجوارها، من أنه لن يخجل من معيشتها..كانت واثقة أن الأمر سيان عنده أن تكون ربيبة قصر أو ملقاة داخل غرفة في مسجد.. جعلها تخجل من خجلها منهم وزاد إصرارها على عقد المناقشات في صحن المسجد وفي الأروقة.. ودّت لو واجهتهم جميعًا في عقر دارهم.. في الطريق وفي الجامعة.. وأتت بهم كلهم إلى المسجد ليشاهدوا كيف تعيش فيه.. ليلتمسوا بأيديهم الناعمة مكتبتها التي طالما سألوا عنها وعن عدد الكتب، ولينفضوا بأيديهم الحبال الليفية الموثقة بها صناديق الكرتون ليتطلعوا إلى الكتب، ودّت لو تركتهم ليسألوا أنفسهم كيف تستطيع أن تقرأ

أسفل ضوء محدد نوره ومقننة ساعاته؟ كيف استطاعت اعتياد موعد إطفائه وتلمّس الجدار حتى سرير النوم؟ كيف تتوسل إلى الإمام ليتساهل قليلًا في الموعد، كما كان يتساهل في ليالي المنازعات ويطلقه حتى الصباح، وكيف كانت تشكره لسماحه بإطلاق الموعد في أيام الامتحانات، توسل ورجاء وضيق وشكر..

كم تتمنّى لو استبدلوا أماكنهم بمكانها أسبوعًا واحدًا وذاقوا طعم الحمّام المشترك والوقوف بالصف.. الضجيج.. الروائح.. الإحساس بأنك في سوق ضخم بضاعته كلها الروائح العفنة وحين يحل الصمت فإنه يحل كالموت.

كم كان جميلًا منه أن يبتلع دهشته لغرابة المكان، أن يرقد جالسًا بجوار أمها على الحصير، يتجاذبان الحديث، وأن يكلمها عن أمه التي تشبهها - كما يقول - وعن والده المدرّس البسيط الذي لولا الغربة ما استطاع تكملة التعليم، وفي غضون ساعات كان قد استطاع أن يضم الأم تمامًا إلى صفه وأن يحفر اسمه بإزميل من حنان في ذاكرتها..

أضاف إلى إدراكها أبعادًا جديدة فقد كانت تتصورعجزه عن مجاراتهم في الثقافة والسياسة والتنظير، حلقة من سلسلة طويلة تضم العجز عن كل شيء.. التعامل مع الناس.. القدرة على تكوين صداقات.. لكنها الآن اكتشفت كم كانت مخطئة، ويبدو أنها لم تكن الوحيدة التي اكتشفت ذلك فليلى أيضًا أخبرتها بتلك الملاحظة أثناء إعدادهما الشاي، كما أنها أرجعت ضيق مصطفى وتجهمه إلى قدرة محمود على الحكي الجميل الذي أدهشهم وبهر الأم، وعندما اختلست دقائق لتريه قبر شيخون، أدهشها

أنه بعد استماعه بآذان مصغية إلى وصف حياتها اليومية بالمسجد والمعاناة المستمرة، ابتسم بصفاء.. سألته بحدة عن سبب البسمة.. همس بصوت له رنين خافت:

- لأن وجودك بالمسجد جعلني أحس بمدى قربك مني ..

سرحت قليلًا ثم ابتسمت ثم تشاغلا معًا بقصة زواج أخته ومطاردات القط والفأر بينهما، قالت له :

- يجب أن تأخذ موقفًا حازمًا منه..

قال بسرعة وكأنه كان يتوقع هذه الكلمات:

- لابد أن يقع أولًا فيصبح في يدى دليل أرسله لوالدي فهو الوحيد صاحب القرار، كما أن المسألة أيضًا متعلقة بأختي ولن أهدم بيتها لمجرد ظنون..

وتعمد أن يهمل إخبارها أن والده قد لا يسأل عنه بالمرة فهو مازال في عينيه الطفل الذي لن يكبر أبدًا، ولن يتحرك هذا الوالد القاسي إلا بدليل قوي وأمر لا يقبل الشك.

10

استيقظ محمود على صوت منتصر العالي وهو يوبخ أخته. وصلت الكلمات إلى أجهزة استقباله غير المنتبهة تمامًا سريعة وصارخة كقاذفات المدافع. دامت المنازعة الزوجية دقائق مملة بطيئة ومتوترة جدًّا، كان يود لو ترك نفسه على سجيتها، وقام من رقدته وحاصره في ركن غرفته وكال له الضربات حتى يسحق وجهه لكنه لم يفعل ولم يكن عند الاستعداد، فقد كان حلمًا من أحلامه اليومية.

عندما سمع صوت إغلاقه للباب وخطواته المنسحبة على السلم، نهض بكل تكاسل وخطا ثلاث خطوات حتى جلس على المقعد المقابل للمكتب، أشعل سيجارة، وظلّ يأكل دخانها بشراهة وهو يستعيد كلماته.. هذا المنافق يتضرر من الذهاب إلى المقاول للاتفاق على تنفيذ بناء المنزل.. يقول إن عمله سيتعطل ومصالح الناس ستتعطل بينما أنا نائم كعروس صباح زفافها كما يدّعي .. يقول المفروض أنه زوجٌ لواحدة وليس لثلاث كما هو الواقع الآن، يقصد القذر أنا وأختي وأمي.. يصرخ كالطفل حين يفقد لعبته، وبصوت يحرص على إيصاله للجيران حتى يمتنع الحاسد عن حسده وحتى يعرف كل من يظن أنه في نعمة بيننا أنه مظلوم معنا وأننا نحمّله ما لا يطيق.. هذا الأفعى، أنا واثق تمامًا من أنه يكاد يرقص بالشوارع

والمصلحة.. يكاد يحدث الناس عن تغفيلنا لأننا أطلقنا له اليد التي لا تكف عن العبث بنا ومنه لله مَن كان السبب.

قام محمود من مقعده، قابل أخته وهو في طريقه إلى الحمّام همست:

- صباح الخير..

غمغم..

- أين ماما؟

ردت بصوت خفيض:

- لا تزال نائمة.

كان واثقًا من استيقاظها ويكاد يكون متيقنًا من بكائها الآن بصوت خلف بابها المغلق، تركها مكملًا سيره إلى الحمّام، سألته بود:

- هل ننتظرك على الغداء؟

قال دونما التفات:

- لا الغداء ولا العشاء.. انسحبت بخجل بعدما أدركت سماعه لصياح زوجها وتشاجره، قالت لنفسها إن أيام عمرها قليلة حتى لو دام الحال بها هكذا كقطعة المطاط الصغيرة المشدودة بين قسوة زوجها وعنفه، وجهالة ولين أمها، ورقّة أخيها وحبها أيضًا لهما.

خرج محمود من البيت ولا يزال على وجهه الكدر، وكانت بالشارع حركة غير عادية لم ينتبه لها وكانت وجوه الناس وحركتهم ترتد من عينيه بلا أثر، شوقه الكبير إليها دفعه لإيقاف (تاكسي) بسرعة، همّ السائق بتجاذب

الحديث معه واستدار ليكلمه لكنه عندما لمح الضيق والقرف الذي على وجهه ابتلع حديثه وانتبه للطريق. كانت بالجامعة تجمعات وتجمعات وأحاديث، تمنّى لو يراها ويخطفها إلى أبعد مكان بالكون حتى تخفف عنه، ظلّ يبحث عنها وسط المجموعات حتى وجدها، أشار لها أن تتبعه إلى (الكافيتريا) ولم تتبعه، أغاظه هذا جدًّا، عاد إليها مرة أخرى واندسّ بينهم مهزومًا منكسرًا. ارتاح قليلًا عندما لمح عينيها تتابعه وهي تتكلم وانبساط أساريرها عند عودته، كانوا لا يزالون في نقاش وجدال محتد وكلامهم يصل إليه مأزومًا وهو يسمع نفس الكلمات عن الغلاء والأسعار والديمقراطية والاستغلال، استوقفته هذه المرة حركتهم المتماوجة كالهدير والشعور الحماسي الكبير الذي كان يظللهم ويظهر على وجوههم وترتعش به حناجرهم. كما استوقفته الحمرة الخفيفة التي أبرزت فيها جمالًا كان مستترًا.

تعالت صيحات بدأت من جوارهم، وتجاوبت معها صيحات أخرى متعددة وفجأة وجد الجامعة كلها تستعر، انفرطت المجموعة التي كان بينها وانضمت إلى مجموعات أخرى ثائرة، وقف مندهشًا، عادت إليه لائمة:

- ألن تأتي معنا؟

سأل متحيرًا:

- أين؟

قالت بحدة:

- مجلس الشعب..

- لماذا؟

ردت بدهشة:

- ألست تعيش بيننا لقد زادت الأسعار اليوم!

قال باستهانة:

- وماذا في الأمر إنها كل يوم تزيد.. نظرت إليه نظرة عدوانية وهي تسأله سؤالًا واحدًا مباشرًا: هل ستأتي أم لا؟

أطرق برأسه وقال بصوت لا يكاد يبين:

-سآتي .

قالت وهي تشير إلى ساعة الجامعة:

- انتظر هنا حتى أحضر ليلى وأعود.

وقف تمامًا حيث قالت كطفل في انتظار أمه متسمرًا خلف جدار خوفًا من أن يضيع. عادت وبيدها ليلى ومصطفى الذي كان قد استشعر ما يحدث فلم يذهب إلى المدرسة وأتى إلى الجامعة حتى يكون بقرب الأحداث، بدأ مصطفى متوترًا وقلقًا سأل أكثر من مرة عن رشاد وحسن، أجابت ليلى بنفاد صبر:

- رشاد لم يأتِ الجامعة اليوم وحسن انضم للمظاهرات التي خرجت.

كان الموقف كله غامضًا ومحيرًا وبدا له أن هناك اختلافًا كبيرًا عن الأحداث السابقة لدرجة وترتهم فعلًا رغم كونهم من معتادي التظاهر أو بالمعنى الصحيح السير في مظاهرات، وهو قول صادق ويتفق هنا باطن الكلمات مع ظاهرها، لأن سيرهم غالبًا كان كالسير بالجنازات بالنسبة لمعزّين لا تعنيهم جثة الميت في شيء.. والمسألة كلها قضاء واجب لا أكثر ولا أقل واستقبال نظرات الناس المتعاطفة والمتحفزة والحريصة عليهم،

وغالبًا ما كانت هذه النظرات تلونهم بطبقة من التيه والخيلاء وتدفعهم دفعًا للهتاف بصوت أشد، تكاد منه عروقهم الصغيرة أن تخرج من الرقبة، وتظل تصاحبهم حتى بعد انتهاء المظاهرة بأيام آثار ادعاءاتهم الثورية والتي لا تنجح في شفائها تمامًا أقراص علاج الاحتقان كما وصفها الطبيب أو الينسون والنعناع كما توارثته الوصفات البلدية، وللحقيقة لم يكونوا جميعًا بنفس الدرجة من السلبية فقد كانت وفاء تتميز بحماس أكثر قليلًا منهم وإن كان أقل درجة من مصطفى.

اتضحت خطورة الموقف أكثر بالشارع فرغم أنهم كانوا يحيطون مظاهراتهم بنطاق من الحبال حتى لا ينضم إليهم أحد من خارج الجامعة إلا أن مجموعة، كبيرة من الناس اقتحمتهم بعد أن قطعوا الحبال وتسللت بينهم الأصوات مليئة بالأخبار.. حرقوا قسم الموسكي.. كسروا زجاج الشيراتون.. عمال شركة الحديد والإسمنت احتلوا حلوان.. طلاب جامعة عين شمس يحاصرون مجلس الشعب، تأكد محمود أن هذا اليوم لن يمر على خير فلن يصلوا إلى المجلس كالعادة ليصرخوا بهتافات فارغة، ثم ينفض الجمع فينزوي معها في الشوارع الجانبية يتقاسمان الضحكات على المواقف التي حدثت.. وتسأله بحب:

- هل كنت خائفًا؟

فيقسم أنه لم يكن خائفًا إلا عليها ولو أن عصا الجندي قد لمستها لأحرقهم كلهم.. فتضحك بصوت مسموع وهي تقول بخبث:

- أنا واثقة أنك أول من سيجري.

لكن هذا اليوم مختلف، الهتافات لم تعد نفس الهتافات بل أعنف وأشد

(هو بيلبس آخر موضة وإحنا كل عشرة في أوضة).

ما عادوا نفس الأطفال، أصبحوا يملأون الشوارع، وفي أيديهم حجارة مسننة يطلقونها على السيارات وواجهات المحال الزجاجية فيتناثر الزجاج كتناثر الملح في الزفة، وفي لحظة تختفي المعروضات. لن يمر هذا اليوم بسلام وهي غائبة عن الدنيا تحت تأثير التنويم المغناطيسي، فم يفتح ويغلق على كلمات وعين حمراء كالدم، جذبها من يدها، لم تنتبه، تراجع وخاف أن توبخه، بدأ يتشمم رائحة غريبة ويحس بألم في العينين، وكان شارع القصر العيني مكدسًا بالمتظاهرين، اقترب منهم مصطفى وصرخ محذرًا بأنهم يستخدمون القنابل المسيلة للدموع، قال بصوت هامس وهو يتفادى أن تلتقي عيناه بعيني وفاء:

- أنا رأيي أن نتجه إلى منازلنا فربما تتطور الأمور.

كادت تصرخ في وجهه وهى تقول:

- احتفظ برأيك لنفسك.

أزعجه ردها كما أزعجه وجهها الذي أصبح يشبه وجه النمرة المتوحشة فسكت، اقترح مصطفى أن يدخلوا في شارع المبتديان في إثر بعض المتظاهرين، وافق بسرعة فلعل وجودها بالقرب من بيتها يعيدها إلى عقلها، وصلوا إلى الميدان وكان يكتظ بالناس، بعضهم قد تفرغ لخلع اللوحات الإعلانية ودكّها بالقدم نكاية في الملابس الداخلية ومستحضرات التجميل والبعض الآخر تفرغ لمهاجمة قسم السيدة، لمح مصطفى حسن يهاجم السينما بالطوب، اخترق اللحم المتلاصق وعاد به، أحب محمود أن يستغل بادرة خوف اعترت وجه ليلى ليعيد اقتراحه بالعودة إلى المنازل، وقبل أن

تشكل حروفه لتكون جملة صحيحة عادت إليها النظرة المتوحشة، ابتلع الكلمات، اتجه مصطفى وكله رغبة تدميرية في اتجاه القسم وتبعه حسن ووفاء، وجد نفسه منـاقًا وراءهم يكاد يجر قدميه جرًا بصحبة ليلى، أمام القسم كان هناك عدد كبير من المتظاهرين وكلهم شوق لاقتحامه، اجتهد البعض وأتوا بعرق خشبي سميك وظلوا يدفعونه في الباب المغلق أمامهم غير عابئين بطاقم جنود الحراسة المتمركزين في الأعلى وبأيديهم البنادق المشهرة إلى أسفل، وكان من الواضح أن أوامر إطلاق النار لم تصدر إليهم بعد، وهم يتابعون مشهد الاقتحام كمن يتابع أحد أفلام الكاوبوي لحظة اقتحام اللصوص للبنك، وبالنسبة للطرف الثاني كان حماسهم الظاهري قد بدا يفتر وبدت لعبتهم في النهاية كمن يدخل في أذنيه عود ثقاب لتنظيفها بكل الحرص والانتباه.. كانوا يداعبون الباب بالوتد والدقائق تمر ثقيلة، فلم يكن بينهم القاتل الجريء أو المقتحم الجسور، راقب مصطفى الأمر في البداية بشغف، وعندما طال الوقت بلا طائل ويئس منهم تمامًا كاد يندفع خاطفًا منهم الوتد كاسرًا به الباب لولا أن هبطت عليه فكرة عظيمة تعجب كثيرًا كيف غابت عن ذهنه كل هذا الوقت، اتجهت عيناه إلى المتظاهرين يتفحص ويتفحص وينتقي ويختار، وأخيرًا اختار أعرضهم منكبًا وأضخمهم جسدًا وأكثرهم وحشية في القسمات، ثم اتجه إلى الذين انتقاهم ومن خلفه وفاء وحسن وليلى ومحمود حائرين، قال لهم مصطفى بصوت مليء بالخشونة: الأغبياء يضيعون وقتهم بدون فائدة أنا أعرف بابًا خلفيًا للقسم بدفعة واحدة من الكتف يفتح وليس عليه أى حراسة هل تأتون معي؟ تهللت أسارير العمالقة وذهبوا معهم وخلفهم أصحابهم.

دلف مصطفى من الحارة الصغيرة التي على يسار القسم مع المردة وأصحابه وبعض المتظاهرين، وعندما واجه الباب أشار إليهم وهو يكاد يتيه فخرًا بذكائه، وبحماسة زائدة فيه لم ينجح والده في محوها منه منذ كان صغيرًا يصمم على الذهاب إلى المدرسة بالكرة فيحاصره المدرّس الذي ما زال زجاج فصله مكسورًا في ركن الحائط ويظل يضربه حتى تتعب يداه وتمر الأيام فلا ييأس مصطفى ولا يكف المدرّس.. بنفس هذه الحماسة أو أكثر هاجم مصطفى الباب مع العمالقة حتى انفتح، لكن عندما همّ كالقائد المنتصر بأن يستدير للإشارة للآخرين باقتحام القسم فوجئ - ولدهشته الشديدة- بأيدي العمالقة تسحبه إلى الداخل وأقدامهم تركله في كل جسده مع صفعات متتالية على قفاه وقبضة يد في العين اليمنى أحس بها كأنها قاذف نار قبل أن يدخل في دور الإغماء.. للأسف الشديد كان الذين انتقاهم وشاركهم وشاركوه مخبرين.

غيمة كبيرة من الذهول والدهشة والخوف خيمت فوق الرفاق، لم يستوعب حسن ما حدث بينما تسمرت عينا محمود على الباب الذي ظلت وفاء وليلى تطرقانه في جنون..تراجعت القلة من المتظاهرين التي كانت تتبعهم، استداروا مهرولين ثم اختفوا عن الأعين، خرج الرعب ماردًا كبيرًا من عين محمود ومن كل الفتحات. هل تكلم مصطفى؟ قطعًا بمجرد تلقيه أول صفعة سينفلت لسانه ويخبرهم عن الجميع.. ستجرب السجن والمحن يا محمود وسيعود الأب سريعًا بمجرد تلقيه البرقية وستفرح وتشمت كثيرًا يا منتصر، وتظل تؤنب وتلوم الأم والأخت لأنهم دللوني منذ الصغر، وستهمس في أذنه بما يعكر مزاجه ويكدر وجهه حتى يفرّ عائدًا

تاركًا لك الحبل على الغارب، كان اليوم مشؤومًا من أوله ولا يزال طويلًا ممتدًا وشمسه حامية برغم أننا في يناير.

خرج محمود من ذاتيته عندما تساندت وفاء برأسها على كتفه وهي تهمس بصوت مخنوق:

ماذا نفعل الآن؟

كان يود أن يجري.. يهرب.. يصرخ طالبًا منها العودة إلى البيت لولا الجبن وعيناها النافذتان، نظر نظرة جانبية إلى ليلى، كانت في واد آخر باكية حتى الموت منتحبة على الزوج والحبيب، ساندها حسن حتى تستقيم وساعدها حتى الوصول إلى الرصيف تمامًا كما تسند الأم طفلها حين يبدأ في تعلم السير، وكانت غائبة عن الوجود مسافرة بخواطرها بعيدًا إليه هناك.

برغم دقة تحليلاتهم وبراعة استنباطهم في الأحوال العادية، لم يكن بمقدور أحدهم الآن تخيل ما يحدث خلف الباب.. لم يكتف المخبرون بكم الضرب الذي تلقاه عند الدخول، بل أتبعوه بوصلة أخرى في الداخل تتميز بفاصل بسيط من الراحة بين الضربات وسلسلة منتقاة من السباب والإهانات من أفحش ما يحتويه قاموس السباب، أحس مصطفى بأن نهايته أقرب من طرد هواء الزفير، وتمنّى من أعمق أعماق فؤاده أن ترحمه الأقدار وتصبح نهاية مطافه سجنًا طويلًا أهون من الموت على أي حال، أحدث الضرب والسباب جلبة كبيرة خرج على إثرها جنديان يعقبهما ملازم لاستكشاف الأمر، كانوا في حالة أقرب إلى الهياج الناتج من خوف مكتوم، فلأول مرة يذوقون الحصار وينتظرون النهاية المبهمة. تلقوه بشغف الجوعى لكن جاءهم الأمر على غير ما يتمنونه، فقد كانت الفريسة

خرقة بالية والدم المتساقط خلق قدرًا ضئيلًا من الشفقة. صرخ الملازم في المخبرين بأن يتركوه ثم اقترب من الجريح يتسمع الكلمات المترنحة التي تخرج من فمه مصحوبة بقطرات الدم وأزال بيده دمًا قد تجلط أسفل الخد الأيمن للجريح، ثم ناوله منديلًا يوقف به الدم السائل من الفم وهو يتطلع إليه مخمنًا.. هل كسروا له الفك أم أن الأمر لا يتعدى بضعة أسنان، تفحصه قليلًا وبدا له أن الوجه مألوف لديه ثم تأكد من رؤياه وكانت هذه النقطة الوحيدة التي جاءت في صف مصطفى في ذاك اليوم المشهود.. صدفة تأتي غالبًا لواحد في المليون أو هدية من إله عزيز قدير. تعرّف عليه الملازم فقد كان مصطفى مدرّس أخيه الصغير في مدرسة السعيدية، وتحيّر الملازم جدًّا ما الذي يدفع مثل هذا المجنون للاقتحام؟ وتحيّر أكثر وتردد عند المفاضلة والاختيار..

هل يطلق سراحه ويثير الشكوك؟ أم يقضي تمامًا على مستقبله.. وفي النهاية حسمت الأمور في صالح مصطفى هذه الكدمات وذلك السائل الداكن اللون، صرخ الملازم في المخبرين:

- يا أغبياء هل لم تجدوا غير هذا تمسكونه؟

ثم نكش شعر مصطفى وأسقط خصلة منه على جبهته وهو يقول:

- هذا شاذ ومعروف بشذوذه في كل المنطقة..

ثم تقدم الملازم خطوتين واستدار حتى أصبح خلفه وقال وهو يشير إلى أليتيه كلامًا فاحشًا أثار ضحكات الجنود بما معناه أن هذا الشاذ يتواجد دائمًا في الموالد ومناطق الازدحام لاصطياد الشباب.. ووسط دهشة المخبرين الكبيرة أكمل:

- الحمد لله كنتم ستفضحوننا في الداخلية لو علموا بالقبض عليه وكانوا سيقولون إننا لا نقدر إلا على الشواذ..

أمرهم الملازم بالانصراف بعد أن أوصاهم بعدم ذكر هذه الواقعة أمام المأمور، وإذا سئلوا عن سبب الضجة والجلبة فليدعوا محاولة الأهالي لاقتحام الباب الخلفي للقسم. انسحب المخبرون والجنديان وعلى وجوههم علامة استفهام كبيرة كسرها أحدهم وهو يهمس:

لابد أن هناك قرابة بينهما جعلته يسانده بادعائه شذوذه.. لكن لا يهم فقد تمّ ضربه ويكفينا جدًّا أن أحد أقارب الملازم شاذ باعترافه.

اقترب الملازم من الباب وهو مازال يؤنب مصطفى ويلومه ذاكرًا له أن اسمه كان سيوضع في أول كشوف الاتهام مما سيقضي على مستقبله كله، متعجبًا من تهوره وجنونه وحذره تحذيرًا كله وعيد لو رآه مرة أخرى هنا أو وسط التجمعات، لن ترحمه الضربات القاسية التي تلقاها ولا كونه مدرّس أخيه الأصغر سيشفع له، كاد مصطفى يقبّل يده وهو يقول بحروف متناثرة تمامًا:

أقسم بالله لن تراني أبدًا هنا.. هم الذين دفعوني عند الباب وكنت أقف متفرجًا فقط "ليس لي في التور ولا الطحين وتقدر سيادتك تسأل معتز شقيق سعادتك يخبرك عن أخلاقي".

بكل الحذر فتح الملازم فتحة صغيرة بالباب ألقى من خلالها مصطفى إلى الشارع، تعثر مصطفى وكاد يقع لكنه تحامل حتى ألقى بنفسه بينهم حاملًا وجهًا قد تحول إلى كتل منتفخة حمراء، علا نحيب ليلى وجاهدت

وفاء في حبس الدموع، انتشلوه بسرعة وقد استقر رأيهم على الذهاب إلى أقرب منزل. استقبلتهم أم وفاء برعب أيقظه فيها وجه مصطفى، حسمت وفاء الأمر بكلمات كحد السيف:

- مشاجرة بسيطة وسط المظاهرات.

بعد أن غسل وجهه وتناول الليمون، استغلت وفاء انسحاب أمها لقلي بيض الغذاء وقالت متسائلة:

- ما العمل الآن؟

كانت بعض الطمأنينة قد عادت إلى محمود، بعد أن أخبرهم مصطفى ببعض ما دار داخل القسم وكيف أخرجه الملازم صديقه كالشعرة من العجين دون حتى أن يسأله سؤالًا واحدًا، قال محمود وهو يظن أن هذه الأحداث قد ألجمت وفاء قليلًا: يعود كل منا إلى بيته في انتظار جلاء الأمور، تجنبته وفاء تمامًا وقالت بصوت كحدّ السكين:

- محمود يعود إلى بيته ومصطفى وليلى يبقيان هنا حتى يرتاح مصطفى، أما أنا وحسن فسوف نعود للمشاركة في المظاهرات..

تكاد تقتله هذه الفتاة بحلم البطولة المطلقة وعدم الإحساس بالخطر.. لو كان الأمر بيده! لو استطاع الإفلات من إسار قلبه. غرق محمود في خواطره ولكن سرعان ما انتبه على صوت حسن المتشكك دائمًا.

كان حسن قد بدأ يضع يده على مواطن الجراح بكل ما يمتلكه من حاسة الحيوان المحاط بالخطر.. بّين لهم ضرورة اختفاء مصطفى بسرعة لعدة أيام حتى تنجلي الأحداث، فربما تتطور الأمور إلى الأسوأ ويضطر الملازم

إلى الإبلاغ عنه إذا ما اقترب منه الخطر، فإنهم أكيد بالداخلية سيطلبون منهم قوائم مليئة بالأسماء وقد تعجزه قلة الأسماء فيضطر حتى للتضحية بالأصدقاء.. لابد أن يهرب مصطفى بعيدًا - والأفضل إلى خارج القاهرة - بضعة أيام فقط حتى يتم تسليم القوائم وتنتهي أيام القبض العشوائية.

وافقت ليلى على اقتراح حسن كما أيّد اقتراحه محمود واحترمت وفاء رأى الأغلبية، نهض حسن من جلسته الخشنة فوق السرير وهو يقول موجهًا حديثه إلى ليلى:

- لابد أن نفكر في مكان آمن تختبئان فيه..

تدخلت وفاء:

- المكان موجود.. بيتهما الموجود بقليوب وسأذهب لتوصيلهما وأعود..

بأخوة تلقائية تضامن حسن معها في الذهاب، قال مصطفى محاولًا بتر حالة الإشفاق التي تظلل المكان:

- لا داعي للتعب سأذهب مع ليلى وتبقون هنا تستطلعون الأمور..

أصرت وفاء على موقفها وأيدها فيه تمامًا حسن، اقتحم الغرفة أحد الجيران واسمه عادل على وجهه تبدو علامات البشر والحبور كالطفل حين يقذف البمب ويلعب بالبالون صباح العيد..

- ماذا تفعلون هنا والبلد مقلوبة منذ الصباح؟..

ردت وفاء بسخرية:

- ومادام البلد مقلوبة لماذا عدت؟

- خشيت على زوجتي أن تصاب وهي ذاهبة للسوق تركت اليومية وعدت..

قالت وفاء :

- صحيح أين هي الآن؟

علق عادل ببسمة:

- وجدتها تختبئ خلف الغسيل.

انتبه عادل لوجه مصطفى، انسحبت من قسماته علامات الفرحة وارتدت مذعورة، تحسس بيده الخشنة بحذر محسوب الكلمات ثم قال موجهًا سؤاله للجميع:

- ماذا أصابه؟

خرجت الكلمات من وفاء حاسمة: الأمر بسيط ثم انتبهت لردها الجاف فاستطردت بابتسامة مغتصبة: لا تهول الأمر يا عادل مصطفى يخاف، أدرك عادل الموقف. ربت على كتف مصطفى وهو يقول:

- ألف سلامة.

كما توقعت وفاء وجدت أمها في حجرة صباح زوجة عادل هربًا من ضيق المكان، استغرق منها الأمر جهدًا كبيرًا حتى أقنعتها بالموافقة على ذهابها مع مصطفى وليلى إلى الهرم وكانت قد تجنبت ذكر قليوب حتى لا تشعل في قلبها الخوف. كانت الأم في أوج درجات الانزعاج من الكلام المتناثر إلى أذنيها عما يحدث بالشارع والذي تعضده هذه الأصوات الضخمة

وقذائف الطوب والحجر التي كانت تصل إلى المكان، لم تكن أبدًا غافلة منهم وعما يفعلون.. وكم من المرات حذرت وفاء العنيدة الصماء وكم من المرات أكلت نفسها خوفًا عليها وعليهم.. هل من الممكن أن تصل المياه إلى الأعالي؟ كم من المرات ودت أن تأخذ موقفًا أكثر تشددًا منها رغم معرفتها الجيدة بفلذة كبدها وعرق الجنون الذي يتوارى خلف جلدها.. لكن كيف توقفها عند حدها؟! .. تمنعها من صحبتهم!..تقفل عليها باب الحجرة وتقيدها بالسرير، أممكن أن يحدث هذا؟ أن يجرؤ كائن ما أن يفعل هذا بوفاء وهي التي أرضعتها وربتها وعاشت معها أفراحها وأحزانها وأكثر الناس معرفة بها، تدرك جيدًا استحالة هذا .. فمن الممكن جدًّا أن تفعل هذه المجنونة أي شيء .. تترك المكان وتختفي ..تلقي بنفسها إلى الشارع.. أسفل السيارات.. لا تتورع عن فعل أي شيء تحس أنه دفاع عما في رأسها وما في رأسها لا يعلمه إلا الله.. عفن وجنون جنته من الدراسة والكتب.. ألا لعنة الله على الكتب.. ماذا تفعل؟ ما باليد حيلة..

- اذهبي يا ابنتي لكن لا تتأخري.

قالت وفاء غير عابئة بقلق أمها:

- لا تقلقي أنا لست طفلة صغيرة ولن أتوه.. لو تأخرت سأقضي الليل عندهما فلا تبحثي عني بالشوارع..

أسلمت الأم الأمر تمامًا لله وقالت بسكون:

- افعلي ما يتراءى لك «الأمر لله».

11

كان الموقف بالخارج قد ازداد خطورة وغوغائية، الأعداد تكاثفت وحمى الاعتداء زادت وتنامت، وشعور بالإخاء بدأ يصهر الجميع، وأصبح من المألوف أن تجدهم يتعاونون في حمل ثلاجة منهوبة أو يدافعون عن مَن هاجم واعتدى وبدأ في السلب والاستيلاء تحكمه عشوائية الاختيار. قال محمود وهو يتابع المشهد بذهول:

- السفر في مثل هذه الأحوال جنون.. مؤكد جنون..

مدت إليه يدها وقالت بحياد:

- اتخذ عند العودة الطريق الخلفي لدار الهلال سوف يكون أكثر أمنًا من شارع المبتديان..

ثم استطردت بكلمات أحس أنها مصطنعة تمامًا:

- أرجوك أن تنتبه لنفسك..

قال بحسم:

- لن أعود سأذهب معكم.

قالت بدهشة:

- الموقف غامض وسيقلقون عليك في البيت.

استمر في عناده:

- نوصلهم وأعود بك.

ابتسمت رغمًا عنها وقالت لمجرد مبادلته العناد:

- حسن سيعود بي.

أكمل سيره معهم ولم يرد. لم يكن دافع قراره شجاعة منه بقدر ما كان خوفًا من فقدها أحس به طيلة اليوم وتلمسه في خشونة الرد.. تجنب النظرات كما أنه كان قد تنبّه لحسن والتصاقه بها، ورغم أن هذا قد يكون ظنًا أو وهمًا أو غيرة فإنه خشى فعلًا أن يفقدها في هذه اللحظة بالذات، ثم ما الخطر في أن يوصلهم إلى قليوب ثم يعود بها؟ فيقطع الطريق على حسن وبذلك يتجنب أن ينقلب الظن إلى حقيقة. وأيضا يطمئن عليها ويحميها إذا لزم الأمر وفي نفس الوقت يبتعد مؤقتًا عن بيت مليء بالمكدّرات. أخت سكينة وأم سكينة وزوج أخت أسد همام..

كانت المدينة في حالة عبثية تمامًا والمخارج والمداخل تكاد تكون مقفلة بالكامل. عدد قليل من سيارات تهرب في كل الاتجاهات وكم من عربات الترام واقفة مكانها حيثما اتفق مكان الوقوف لهرب سائقيها أو تهشم زجاجها أو كنتيجة إجبارية لخلع القضبان، وكان السير وسط هذه الأعداد الكثيفة والتصرفات الهوجائية ضربًا من الجنون، ثم تغير الشكل قليلًا بوسط البلد فقد كان زحامها أقل حدة لاتجاه غالبية الجموع إلى التمركز في الميادين وبخاصة ميدان التحرير ولتشعب شوارعها واتجاهها الدائري وبرغم ذلك فقد عجزوا عن إيقاف أي سيارة تقلهم إلى ميدان رمسيس فتحاملوا وقرروا الاعتماد على القدمين حتى شارع أحمد حلمي آملين أن يكون الحال به

أقل صخبًا فيعثروا فيه على وسيلة تنقلهم إلى قليوب. كان الناس هناك يتخاطفون السيارات فرارًا من رعب جماعي حوّلهم إلى مهوسين، احتكوا واصطدموا وتنازعوا حتى وجدوا أنفسهم بداخل (ميكروباص) صغير وبضعف الأجر أو يزيد، وعندما قابلتهم الأرض الخضراء عادت السكينة إليهم وبدأوا يسمعون أصوات الراكبين.. هربوا.. رجعوا في قراراتهم.. الإحساس بالغلابة.. يشتوا في أسوان.. حرام ثمنها سندفعه من دمنا.. وفي الطريق تلقى السائق إشارات بالنفير مرسلة من سيارات قادمة عبر الاتجاه المضاد فتفهّم الأمر واستدار إلى الركاب وهو يخبرهم بأن هناك على مدى قريب لجنة متمركزة بجوار نقطة المرور والحالة اليوم خطيرة فمن نسى بطاقته بالمنزل أو متهرب من التجنيد يتخذ هذا الطريق ماشيًا (وهنا أشار إلى شريط ضيق موازٍ للطريق تكاد تخفيه المزروعات) إلى أن يصل بعد النقطة وهناك سيجدنا منتظرين.. هبط شابان حدثان بمجرد انتهاء الكلام تنطبق عليهما إحدى المخالفات واستدار حسن لمصطفى هامسًا:

- لابد أن تنزل فوجهك الجريح والكتب التي بأيدينا ستجلب لنا المشكلات.

أومأت وفاء لمحمود بأن يتبعهما.

لم تكن المسافة قليلة كانت تتجاوز نصف الكيلو أجهدتهم تمامًا حتى ألقوا بأنفسهم مرة أخرى داخل السيارة وهم ينظرون إلى السائق بامتنان، سار محمود ملتويًا معهم في الشوارع الترابية الضيقة تداعب أنفه نسمات من الهواء الرطب ممتزجة بروائح الماشية والطيور الداجنة، كانت الرائحة مختلفة قليلًا بالبيت الريفي الصغير تشبه الهواء الراكد الآسن.

جرت وفاء تفتح النوافذ ثم هرولت مع ليلى لتنظيف الدور العلوي، بينما تعاون مصطفى وحسن ومحمود على القيام بنفس المهمة في الدور السفلي، استأذنت وفاء في الخروج لإحضار بعض المأكولات. حاول محمود أن يمد يده لها بنقود قالت بخشونة: عندما أحتاج سأطلب.. قال محاولًا التخلص من الحرج:

- أصابنا الظمأ بالطريق فهل من الممكن تناول قليل من الماء؟

هرولت ليلى بإحسان المضيف السخي لإحضار الماء بينما قالت وفاء محذرة:

- انتبه فماء الطلمبة مذاقه مختلف بعض الشيء لكنه لا يضر..

سمعوا صوت خفض ورفع يد الطلمبة أكثر من مرة لكن بدون أن يعقبه صوت تدفق المياه، عادت ليلى بالإحباط وخيبة الأمل وهي تخبرهم بأن الطلمبة قد سُدّت لعدم الاستعمال، ظهر حجم المشكلة وتعقدها على وجه وفاء التي قالت بعد تفكير:

- نحضر السباك يصلحها.. دليني على مكانه يا ليلي، شردت عينا ليلى وهي تتجه إلى وفاء وانطلقا إلى الغرفة الأخرى يتكلمان.. كان من الواضح أن هناك مشكلة ما وغالبًا مادية، وكان محمود لا يستطيع بأي حال إعادة عرضه بتقديم نقود فوفاء اليوم على غير ما يرام.

انطلقت وفاء خارجة بنشاط مفتعل من الغرفة وخلفها ليلى بوجه يتقاسمه الضيق والحرج، عادت وفاء بعد قليل محملة بحبات البطاطس والخضر وبضع أرغفة بيتية الصنع وبعض لوازم الطهي، سكتت لحظات ثم أخبرتهم

بأنها وجدت السوق منفضًا لوصول أنباء الاضطرابات إلى هناك وخاليًا إلا من بعض الباعة المقيمين بنفس المكان مفترشين الأرض أسفل دورهم منيقظين لأدنى بادرة من الفوضى والقلق تهب فيسحبون بضائعهم إلى الداخل مهرولين.. أردفت وفاء موجهة الكلام لليلى ومصطفى وهي تذكر لهما بأنها قابلت فلان وفلان (ذاكرة أسماء يعرفونها) وقالت بأنها أخبرتهم بتواجدهم هنا للاستفادة من هدوء المكان في المذاكرة والتحصيل استعدادًا لامتحانات نصف العام، وأكدت على ليلى أن تبلغهم نفس الكلمات خاصة وقد كانت تتوقع منهم زيارات الترحيب، سمعوا طرقًا على الباب فانتبهوا وأشارت وفاء لمحمود وحسن بأن يتواريا بالداخل ثم تحركت في اتجاه الباب.. كان الطارق هو صبحي السباك وابنه الذي يساعده في عمله، افترشا أرضية المدخل وسحب صبحي الحرية وبدأ العمل.

سألتها ليلى بخجل كيف استطاعت التصرف؟ أجابتها وفاء ببسمة رضاء:

- ذهبت إلى أم إسماعيل.

بحذر قالت ليلى:

ألم تسألك عن السبب؟

أجابت وفاء ببسمة استخفاف:

- لم تسأل فالصفقة كانت بالنسبة لها أكثر من مربحة.

غمغمت ليلى بالشكر والامتنان، قالت وفاء بحدة :

- هؤلاء ضيوفي ويكفي أنك فتحتِ لنا بيتك.

ناداها مصطفى بصوت ضعيف لتجربة الطلمبة بعد إصلاحها ثم دخل إلى الغرفة التي بها حسن ومحمود، كانوا أشبه بساكني جزيرة منعزلة عن الحياة فالبيت قطعة من رقعة صغيرة مقتطعة من الأرض الزراعية بدأها أجير منذ سنوات بعيدة، أعجزته ظروف الحياة عن الإقامة بالبلد وتبعه آخرون بنفس الظروف حتى استقامت هذه القطعة وأصبحت شريطًا ضيقًا من البيوت العشوائية، يفصلها عن البلدة المساحة المزروعة والسوق، ولعل الذي حبّب هذا البيت لجدهما الهدوء المثير بعد عناء العمل الكثير في محل البقالة.. هذا الهدوء الذي كاد يقتلهم الآن ولا يوجد حتى جهاز راديو صغير يخبرهم ماذا يحل بالبلد الآن، هل هي ثورة جديدة آتت تقتلع كل شيء؟ أم أن الأسد السجين كان يتثاءب فقط قبل أن ينام؟؟ تحير مصطفى كثيرًا ولم يدر ما هي إجابة السؤال! لم يفق بعد من المهانة والتحقير.. شاذ.. حمدًا لله أنه لم يدسّ العصا في مؤخرته ليثبت لهم شذوذه.. أهذه هي بداية الطريق؟ الطريق إلى الدكتوراه والدرجة الجامعية المهيبة، حيث تقف لك البنات بالبسمات أمام المدرج راجيات شطب بعض المقررات أو يرتعد مسؤول من حرارة نقدك.. بعد كل هذا الحلم الطويل يأتي من يسمك بالشذوذ ويهددك بالاعتقال وهي نهاية ليست ببعيدة فيومًا ما ستعتقل.. تندس في زنازينهم.. تقابل وحوشهم المحرومين من الحياة والمتعة والجنس.. الحاقدين على كل شيء.. المخرّبين من الداخل وسيتلذذون باغتصابك.. سيبدأون بإدخال العصا ثم يتدرجون ويتدرجون.. وكلهم سيقولون ذلك.. كلهم.. وجاءتك إشارتهم اليوم فرغم أنه كان يخدمك وينوي إطلاق سراحك لم يجد منفذًا لينقذك إلا أن يقول أنك شاذ.. كلمة دائمًا ساطعة في

بؤرة شعورهم وفعل مرتسم أمامهم يشكل إحدى متع الحياة .. وأنت كيف سترد اعتداءهم.. بالمنطق.. بالجدل.. ستقول أنك دكتور، هذا لو أخذت الدكتوراه أصلًا وحتى لو أخذتها من الممكن أن يوقفوا كل شيء بدعوى أن تقارير الأمن تقول وتقارير المباحث تقول.. نوصي بأن لا يعين بالجامعة حرصًا على الطلاب الأبرياء.. ويمنعونك عن كل شيء وتقعد بدكتوراتك في البيت. أسفلها.. وهي معلقة في إطار مذهب يلفت نظر الزائرين.

أحس حسن بالثورة التي تشتعل داخل مصطفى، ربت على وجهه وهو يسأله:

- أما زلت متعبًا؟

أومأ مصطفى برأسه ولم يجب، تطلع محمود من النافذة ثم عاد بوجه بشوش وهو يقول:

- يبدو أن الأمور قد بدأت تهدأ، لا أرى أي مظاهر للعنف.

أجابه مصطفى ساخرًا:

- أنت لا ترى شيئًا فلا يميز هذه البلدة إلا الهدوء حتى لو احترق العالم كله.

انتظر محمود بعد انتهاء الغذاء أي بادرة منها توحي باستعدادها للعودة وخاب مسعاه.. راقبها وهي مسترخية ساهمة ثم عاد إلى النظر في النافذة. كانت الشمس على وشك المغيب. ماتت الكلمات فوق شفتيه بمجرد النظر إليها، أدركت حيرته فقالت:

- تبدو قلقًا تريد العودة.

تصنع اللامبالاة وهو يقول:

- بالنسبة لي لا تفرق لكن أخشى أن تقلق عليك والدتك.

قالت بنفس الابتسامة المحايدة:

- بالنسبة لي لا تقلق فأنا أخبرت والدتي، وبالنسبة لحسن أيضًا لا تفرق فأهله بالمنيا، ولا أحد سيسأل عليه في المدينة الجامعية باستثناء رشاد لا يبقى غيرك سيسبب لأهله الصداع (ابتسمت ابتسامة أكبر عند نهاية الكلمة).

اغتاظ منها محمود جدًا لحشرها حسن في كل حوار، فقال في انفعال تلقائي:

- من رايك أن أعودا

تداركت الأمر عندما لمحت في عينيه ألمًا مكبوتًا وقالت بسرعة:

- أنا لا أقصد لكني عندما كنت بالسوق سمعت من الأهالي أن الناس قطعوا الطريق والبوليس يحاصر شركة الأخشاب خوفًا من الاقتحام فلم أشأ إخبارك خشية إزعاجك، على العموم أنا من رأيي أن نبيت هنا إلى الصباح حتى يرجع للطريق أمانه..

تساءل مصطفى ليقطع حدة الحديث:

ترى أين رشاد الآن؟

رد حسن بابتسامة:

- سوف تجده يبحث عنا في كل مكان وعندما لن يجدني بغرفتي في المدينة الجامعية لن يأتيه النوم وسيظل طوال الليل في الحمام يحرق في الأوراق..

ضحك الجميع عدا مصطفى ومحمود ضحكات لم تتخلص بعد من التوتر والقلق. تمنّى محمود الانفراد بوفاء ولو لدقائق معدودات لكن كيف؟ وحسن بجوارها كالديدبان وليلى هائمة في البيت كأشباح الحواديت تقضي حاجة في دقائق ثم تعود للاطمئنان على مصطفى بنفس الوجه القلق الكئيب، نائمًا هو في أمان الآن، وهي لا تزال تصرّ أن يشاركوها الانزعاج، لم تعد القضية بالنسبة لها بلدًا يحترق ومصيرًا مجهولًا، ولكن كان كل ما يشغلها الاطمئنان عليه والعناية به لدرجة ضجرت وفاء منها ومن مبالغتها في وصف معاناته، كادت تصرخ فيها لتسكت وأمسكت نفسها بجهد جهيد وقالت وهي تجز على أسنانها:

- أرجوك يا ليلى الهدوء وكفى ما بنا.

ثم استأذنت لتعد الشاي، انتهز محمود الفرصة وهو يتصنع الضجر . وقام من مجلسه، ثم قال ليرد على عين ليلى المتسائلة عن سبب قيامه:

- لا تقلقي مصطفى بخير وكلنا سنكون بخير.

ثم استدار بوجه كله خجل وعيون مليئة بالرجاء تجاه حسن وقال:

- سأذهب لمساعدة وفاء، فهم حسن رسالته فلبد في مكانه كما فهمتها ليلى رغم معاناتها. فقد كانت عيونه قد فضحته تمامًا.

- هل هذا يعتبر تصرفًا سليمًا أن تتركهم بالداخل وتأتي إلى هنا؟!

باغتته باللوم، وجد نفسه كالطفل الذي استشعر بلله، قال وهو يحس بأن الروح قد بلغت الحلقوم:

- وجدت ليلى متعبة فقررت مساعدتك.

نظرت إليه بجانب عينيها وهي تقول:

- لابد أن تراعي أن هناك حدودًا لا ينبغي تجاوزها خاصة ونحن ريفيون.

كان الخنجر قد أغمد تمامًا في منتصف بطنه فاستدار ليعود، جذبت الحبل إليها مرة أخرى وبدا أنها مستمتعة تمامًا باللعبة؛ لأنها ابتسمت وهي تقول:

- هل كنت تريد أن تخبرني بشيء؟

كان رأسه قد أصبح حظيرة دواجن مليئة بالبيض والكتاكيت والديوك والصياح والقط يسدّ بجسده الضخم فتحات الحظيرة وكل مَن بالحظيرة يرتعد في جنون..ماذا يقول؟.. يقول إنه أحس بالحنين؟ ويريد أن ينفرد بها لحظات.. يريد أن تكلمه وحده.. تنطق له وحده.. تسأله عن أخباره.. يحلفها أن تكون له.. يقسم بحبها وسط هذا الجنون.. كيف يقول؟ وهي لم تتخلص بعد من الوعظ والإرشاد والإحساس بتميّزها عنه في التفكير.. أم تؤنب ابنها .. كيف تجيء إلى هنا وتترك الضيوف؟ ادخل لتنام فمَن هم في سنك راقدين بالفراش.. لا يقدر على الكلام ولا المواجهة فليتنظر حتى تبدأ هي الكلمات. بنفس إحساس الأم المتسلطة قالت لتؤكد له عجزه عن فهم الآخرين:

- لا تنسَ أن حسن غريب.. صحيح أنه صديق وزميل لكن ماذا سيقول عن وجودنا بمفردنا الآن؟

كبت بسمة السخرية ومنع كلمات كادت تقذف من فمه. كيف يكون غريبًا من تطمئنين إليه ليكون رفيق الطريق؟ ناولته الأكواب ليضع بها قوالب السكر وبدأت في صب الشاي، تخللته رائحتها.. رائحة الجسد والشعر

وطغت على رائحة الشاي، رآها بانحناءتها البسيطة وهي تصب الشاي كفتيات الجيشا رمز الطاعة والولاء. لو كان به قدر من الشجاعة لانحنى وقبل شعرها، رفعت رأسها ببطء، رأته محدقًا بها، ابتسمت ابتسامة فهم، نجرأت عينه عليها، تأمل وجهها ببطء، تشاغلت عنه بتقليب الشاي قالت:

- تعبت جدًا معي الأيام الماضية.

لم يرد، نظرت إليه تجرأت عينه أكثر، سرح في رقبتها قليلًا ثم انتبه، لم تكن السلسلة الذهبية ذات الخرزة الزرقاء بها، سألها عنها، ردت باقتضاب:

- ضاعت في المظاهرة.

حملت صينية الشاي أمسكها منها وهو يقول:

- كانت برقبتك بعد المظاهرة.

قالت في محاولة لتغيير مجرى الحديث:

- أفهم من كده أن عينيك لم تنزل من عليّ طيلة الطريق؟

بإلحاح أعاد السؤال:

- أين هي؟

عادت إلى تضاريس وجهها القوة المعتادة وقالت وهي تسبقه إلى الداخل:

- سبق أن قلت ضاعت في المظاهرة لا تفتح مرة أخرى هذا الموضوع.

انحلت أخيرًا عقدة من عقد الغباء وفهم وظل فترة طويلة يفكر كيف يرد لها هذه التضحية دون أن يخدش كبرياءها.

استيقظ مصطفى نشيطًا من تأثير جرعة النوم فوق المعتادة التي حصل عليها، وبفضول ملازم له منذ الطفولة لم يشأ إيقاظهم وانسلّ إلى القرية يتسمَّع الأخبار وعاد بها بعد فترة مع بعض الطعام، قابلته ليلى بوجوم فعرف من فوره بأنه سبب لها إزعاجًا كبيرًا عندما استيقظت ولم تجده، امتصه بابتسامته التي كانت ضعيفة أمامها، أنصتوا إليه بشغف مصحوب بقلق وظهر عليهم عدم التصديق لكلامه.. ثورة تجتاح كل مصر من الإسكندرية حتى أسوان.. كلام مبالغ فيه والدليل هنا.. قرية بأكملها نائمة في العسل، أكد لهم مصطفى بأنه رأى الكثير جدًّا من أبناء القرية تضمهم مظاهرة متجهين إلى الطريق الرئيسي، قال محمود بقلق..

- وماذا سنفعل الآن؟

ردت وفاء:

- أكيد سنجد طريقة للعودة ففي مثل هذه الظروف يبدأ دور الانتهازيين والمغامرين، كما أن المتظاهرين لا يحطمون إلا السيارات الفخمة كنوع من التمييز بين الطبقات.

انطلق مصطفى كالقذيفة متصنعًا الدور الوطني:

- سأذهب معكم لن أظل هنا.

لكنه قَبِلَ بعد رجاء واستعطاف منهم وبكاء ونحيب من ليلى أن يظل بالقرية وبعد أن تأكد من إيمانهم المطلق بشجاعته وثوريته، بصعوبة وجدوا عربة نقل قبل سائقها اصطحابهم، ركبت وفاء بجوار السائق وكان التباع

يجمع النقود في نهم وهو يحذر في نفس الوقت البعض من الركوب فوق حافة الصندوق حتى لا يقعوا في الطريق، أحس محمود بنوع ما من الرضا النفسي أرجعه إلى اطمئنانه عليها فوجودها بجانب السائق أكثر أمنًا من فوق السيارة لحرصه على تجنيبها المشاركة في الحركة الغوغائية التي تتحد في نغم هادر فوق السيارة، أما من حيث سماحه لركوب حسن بجوارها فقد يعود لأحد أمرين ردًا لجميل الأمس عندما تفهم موقفه ولم يضايقه أثناء حديثه مع وفاء، وكذلك لأنه دفع الأجر بالكامل ومن غير اللائق أن يجلس بجوارها ثمنًا لذلك في عين حسن على الأقل واستراح عندما دفعه بجوارها وسط اعتراضه ليخلو بنفسه.. وسط هذا الهدير الثائر.. كيف؟.. فليؤجل التفكير في أي شيء وليتمنى من الله بحق الخلق والميلاد والبعث والكتب والنبيين والعرش أن يعودوا سالمين.. وأن يستطيع أن يغمض عينه فوق الوسادة..(طنين.. طنين).. أصوات متداخلة .. شعارات.. تعليقات.. هتافات وسيارة متأرجحة تتلوى كالثعابين في مسارات منحنية كمسارات الملاهي ويقودها سائق محترف يجيد قراءة الطرق ويعرف المخارج والمداخل والبدائل، لم يتوقف إلا لتنزيل بعض الراكبين وإحلال آخرين مكانهم ثم العودة لاستئناف المسير المتعجل وأخيرًا توقف فجائي نهائي أخير، سأل محمود التباع بصوت متوجس:

هل وصلنا؟

ردّ التباع بضجر:

- نعم نهاية سيرنا شبرا.

دلفوا في الحواري والأزقة بعيون متفحصة قلقة، رأى عينيها تتطلع إلى الجانب الآخر من الطريق حيث المجمع الاستهلاكي الكبير كما تشير إليه لافتة كبيرة هي الوحيدة الباقية من الحريق قال بتلقائية:

- حرام.

نظرت إليه بثبات وهي تقول:

- تجاوزات.. غالبًا ما تقترن بالأحداث العظيمة التجاوزات.

كانت الشوارع قد بدأت تهدأ بعض الشيء لنزول بعض وحدات من الجيش والشرطة العسكرية إليها وكان من الواضح أنه لم تكن لهم السيطرة الكاملة على الموقف، كانوا يتحركون في كل مكان مدججين بالسلاح ينظمون ويرتبون أوضاع الشوارع، كانت الساعة تتجاوز الثانية عندما تم إذاعة القرار، استمعوا له من راديو حارس إحدى العمارات، عندما لفت نظرهم تجمهر عدد من الناس حول الجهاز، هلل المستمعون وهم يسمعون الإعلان بإيقاف العمل بالقرارات التي كانت المجموعة الاقتصادية قد انتهت إليها بشأن زيادة الأسعار، لكنهم توجسوا عند إعلان حظر التجول الذي سيبدأ من الساعة الرابعة، نظروا إلى بعضهم. همست وفاء:

- لابد أن الموقف خطير.

قال محمود في وجل:

- يجب أن نجد طريقة للعودة قبل بدء الحظر.

همس حسن:

- فعلًا فما داموا قد أعلنوا الحظر فهذا دليل على أن الجيش سيتدخل.

دبت في الشارع حركة مجنونة.. إشارات وصرخات سيارات متعجلة غير حافلة بأحد وتوسلات للركاب.. حظر تجول.. كلمات لم يسمعوا بها من قبل ولا يعرف أحد ما ستجيء به الأيام، اعترض حسن على اقتراح محمود بالترجل حتى الوصول وقال وكله وعي بالموقف:

- لابد أن نتفادى الاحتكاكات خاصة ومعنا وفاء.

قالت وفاء بثقة:

- لا تخافا سنعرف كيف نتصرف.

ابتلعا كلامها وسارا حتى فوجئا باقترابها من إحدى سيارات الشرطة المتمركزة في الميدان ثم طلبها الرقيق من الضابط ورفاقه بأن يساعدوها في إيقاف سيارة تنقلها إلى البيت لأنها على حد قولها تركت أمها مريضة هناك، وبمجرد إشارة صغيرة من اليد الرسمية وقفت سيارة يقودها شاب بجوار خطيبته لو صحّ التخمين.. قال الشاب بابتسامة مفتعلة توددًا للضابط:

- تحت أمرك ياباشا سوف أنزلهم بالطريق.

ومن خلال الزجاج الفاصل كانت الشوارع تبدو فوضوية عبثية.. سيارات مهشمة وأخرى محترقة.. حجارة متفاوتة الأحجام تملأ الطريق وأشكال هلامية تتحرك في ضبابية مخيفة، بدا الموقف لعينيه المسبهلة في ذهول كأن ماردًا ضخمًا هبط من الفضاء ومضى يعبث ويدمر في جنون.

12

افترش محمود الأرض منفصلًا عنهم متحدًا مع كأس الويسكي، وبين الفينة والأخرى يمد أنامله الرقيقة ملتقطًا بعض شرائح الخيار، وبالكاد تلتقط أذناه أصواتهم فاللهجة العربية التي تغلب على الحديث شكلت فاصلًا بينه وبينهم، بالإضافة إلى سكره البين، كان معظم ما يصله ضحكات، شرد قليلًا مع ضحكاتهم.. ولماذا لا يضحكون؟.. لا هموم ولا مشاكل.. جاءوا للدراسة فاكتشفوا كل متع الحياة وها هو الآن بينهم ولابد أن يعيش كما يعيشون، بدأ تعارفه معهم برسائل أتت إليه من الوالد بصحبتهم، ونقود تجنب أبوه إرسالها بالطريق الرسمي خوفًا من أشياء كثيرة، كانوا يستقبلونه بترحاب كبير لكونه ابن مدرسهم الفاضل هناك، لكنه رغم زمالته الطويلة لهم بالكلية كان منفصلًا عنهم باستثناء تحيات من بعيد أو جلسات قصيرة إذا رغب في إرسال أشرطة أو احتياجات سبق أن طلبها الوالد لتصل إليه هناك معهم، رفض تمامًا أن يكون دليلهم بالقاهرة كما رغبوا في بداية التعارف أو حتى التزاور، كان متوجسًا من صحبتهم قلقًا من انغماسهم الغريب في الحياة بحكم انطوائيته الشديدة آنذاك، اعتادوا منه ذلك وألفوه، يأتوه بهدايا الأب ورسائله في الكلية وهم يرقبون ملله وضجره إذا ما طال الحديث، لذا كانت دهشتهم شديدة عندما بدأ في التودد إليهم مؤخرًا واستقبلهم بالأحضان في فناء الكلية بحجة أنه افتقدهم كثيرًا،

ثم زارهم في شقتهم المطلة على النيل واكتفى في المرة الأولى بكأسين وسهرة امتدت حتى منتصف الليل ثم توالت السهرات وتعددت الكؤوس. كان من الواضح أنه بداخل شرنقة ضخمة من الصلب عاجزًا عن الإفلات، فظنوا أن الخمر قادرة على حل عقد لسانه لكن يبدو أن أطنان من خمر العالم كله لا تكفي لدفعه للكلام.

راقبهم محمود بعين غائمة كليلة متعبة وهو يحس بأنه في مسرح عرائس كبير.. حركات غير متزنة وعشوائية وكلمات خارج السيطرة مع صخب كبير، عائد إلى دقهم بالكفوف وطرقهم على الأكواب والصحون والتهريج المصاحب لغناء أحدهم لإحدى أغنيات الخليج بصوت قوي جهير، قامت سعاد للرقص بدفعة من مختار فازدادت الضوضاء، سرح في خصرها المحكم النحيل والتواءاتها المثيرة وارتدت به ذاكرته إلى ليالي سابقة جمعتهم سويًا فاستلذ بالذكرى، واستشعرها تحل به من جديد وأعدّ نفسه للاستفراد بها عقب انتهاء الرقصة. كان قد بدأ يطلق العنان لنصفه الأسفل واتحد تمامًا مع الحيوان الذي بداخله فرارًا من دوامة الفكر والتنظير.. لن يعود بنا أحد القهقرى مهما كان، فلكل إنسان رأس واحد يجب الحفاظ عليها، وليتركها تعيش قليلًا في عش العنكبوت التي نسجته بإرادتها إلى أن تفيق وترضخ وتعود.. أعاد له التذكر حالة الاكتئاب فجرع ما في كأسه وطلب المزيد، نظر إلى منى وهي تعيد صب الكؤوس واستقرت عيناه على مفرق ثدييها، ودّ لو استطالت يده قليلًا فيتلمس شعرها الأسود الجميل.. وعندما عادت إلى مكانها بجوار مختار بدأت رغبته كلها تتجه إليها، لماذا هذه بالذات يا مختار التي تحتفظ بها وتمنعنا عنها؟ ليست أجملهن ولا هي الشريفة العفيفة إنما هي مثلهن عاهرة نظير أجر، حيّره هذا التساؤل كثيرًا

ويحكم خناقه الآن.. أيحبها مختار؟ قطعًا لا.. الإنسان الذي يعيش حياته بالطول والعرض كمختار لا يحب بهذه السهولة ويقع في مثل هذه الفتاة، لم يمنع مختار عنك أي فتاة تمنيتها أو حتى بدون التمني.. كان يتقرب إليك بهن.. ويبتسم في وجهك وهو يقول .. ادخل مع هذه.. هذه أجمل، لماذا عندما طلبت مني شرد وفكر وقال بانكسار:

- أنا آسف يا محمود دع منى تقضي لنا الطلبات وانتقِ أي واحدة من الأخريات، تدّعي يا مختار أنك تأويها لمجرد الطهي وشراء الاحتياجات وشكلها لا يدل على أنها طاهية أو خادمة بالبيوت، تبدو كتلميذة مرتعدة أسفل لافتة (أتوبيسات) في ليلة شتاء.. وعلى فرض أني صدقتك فهل عندما يقفل عليكما الباب تكون هي في هذه الأثناء تشرح لك إحدى وصفات الطعام.. وتسللات يدك إلى عنقها وثدييها.. أأغفلها؟ القبلات المثيرة المستترة والعلنية أغمض عيني عنها؟

أفاق محمود من منولوجه الداخلي على صوتها الهامس:

- اصب لك كأسًا أخرى..

أومأ بالإيجاب.

استطردت:

- لماذا لا تشاركهم الرقص؟

ثم عقبت السؤال بنصيحة:

- لو تسمع رأيي عش اللحظة ولا تفكر في الذي مرّ وفات. ثم انسلت بسرعة كما ينسل الضوء من المصباح. قرر أمرًا وجعلت الخمور رأسه أصلب من

خرسانة البناء، قام متسانِدًا على الأرائك التي تحف بالمكان حتى وصل إلى مختار وهمس في أذنه بأنه يريده في أمر مهم؛ نهض مختار متثاقلًا ودخلا غرفة ملحقة بالبهو، تجرع محمود كأسه في جرعات متوالية وهو يفكر في مدخل للحوار، مرت فترة صمت ثقيلة، بدا مختار ملولًا، نطق محمود أخيرًا:

- منى.

سأله مختار في دهشة:

- ماذا بها؟

أجاب محمود وهو يتفادى عينيه:

- أريدها.

أطرق مختار صامتًا لحظات ثم قال بصوت بطيء:

- أنا آسف يا محمود هذه بالذات ابعد عنها..

سأله محمود بحزن:

- أتحبها؟

ضحك مختار ضحكة جهورية:

- أحبها.. هل أنت مجنون؟

عقب محمود:

- تغار عليها؟

ضحك مختار ضحكات أعلى وأشد:

يبدو أنك سكرت جدًّا.. مَن هذه التي أحبها أو أغير عليها.. أفق يا محمود وانسَ الموضوع كله.

بإصرار قال محمود:

أريدها يا مختار..

بنفاد صبر قال مختار:

أنا آسف مرة أخرى يا محمود.

صرح محمود بالقرار الذي كان قد اتخذه:

وأنا أيضًا آسف يا مختار لن ترى وجهي بعد الآن.

شرد مختار وهو يرقب قيام محمود الفجائي وتلبد وجهه ثم قال بعد تفكير:

تأكد أنه ليس لديّ مانع لكن يجب أن أخبرها أولًا.

شعر محمود بخيبة أمل كبيرة فقد كان يظن أنه سيسعد بموافقة مختار لكن الغريب إحساسه بالإحباط بعد الموافقة، فهل هذا راجع لإجباره مختار على فعل شيء لا يرغبه تحت ستار الصداقة؟ كاد يصرخ به ليعود، كاد يمسك به قبل الذهاب إليها طالبًا منه أن ينسى كل شيء لكن حيوانه الداخلي الذي نما كثيرًا الآن أجبره على السكوت.

انتقل محمود إلى الغرفة الداخلية ثم جلس على السرير المواجه للباب واضعًا رأسه بين كفيه، مرت فترة طويلة مترقبًا دخولها ولم تدخل.. هل

المفاوضات طويلة إلى هذا الحد؟ هل كانت تستقبحه لذلك بدا مختار مترددًا قلقًا، لم يحدث أبدًا أن قال أحد عنه إنه دميم حتى تأتي هذه العجفاء فتدّعي ذلك.

بدأت خطواتها تقترب كخطوات سجين مثقل بالأغلال، رفعت رأسها إليه كقاتل يواجه المشنقة وجهًا لوجه، ابتسم لعل عدوى الابتسامة تنتقل إليها، لم تتحرك أي عضلة من عضلات الوجه الشمعي النحيل، فقد تقدمت وخلعت البلوزة الحريرية وألقتها على الأرض ثم أعقبتها بالصديري القطني الذي كشف عن ثدي ناضج التكوين، اقتربت منه ثم ركعت على ركبتيها بين قدميه وبحركة آلية ميكانيكية حاولت رفع جلباب النوم الذي كان يرتديه وهي تعدّ نفسها لممارسة فعل يبغضه من العاهرات، أمسك يديها بكلتا يديه، ارتعد من برودتهما، حاول أن ينهضها ويرفعها إلى مستوى رأسه، تمسكت بمكانها في جنون، قام في غيظ وانحنى عليها محاولًا الإمساك بخصرها ورفعها إليه، أوقفته نظرات عينيها المرتعدة/ الدامعة/ القلقة/ الراجية/ المتوسلة، همس في ذهول:

- هل لازلتِ بكرًا؟

هزت رأسها بالنفي، تمكن الغيظ منه تمامًا فكلبش على خصرها بكلابات حديدية وهو يرفعها فوق السرير غير عابئ برفرفتها كالطير الذبيح، ولا بإشارتها الواهية كي يطفئ المصباح ومضى يقبّلها بجنون.. في رأسها.. في وجهها.. في ثدييها وعندما امتدت يده لتنزع جونلتها السوداء انحنت فوق يديه تقبّلها في رجاء، امتزجت فوق يده الدموع والشجون، أرهقته تمامًا لدرجة دفعته إلى دفع رأسها إلى حافة السرير بيد صلبة وعنف

ملحوظ وأمام حمرة عينيه لم تجد مفرًّا من الاستسلام. باعدت بين قدميها وأغمضت عينيها تمامًا، جذب الجونلة بغضب وأدهشه سروالها الداخلي الطويل الذي ظهر أمامه فجأة كشراع مراكب الصيد، خلعه بإحساس النازي المنتصر، تجمّد دمه في العروق فقد كانت أمامه كتلة شوهاء! وطيات من جلد ميت ومحروق ممتدة حتى أعلى الفخذ، ارتد مذعورًا إلى الأرض محاولًا أن يجنّب ذاكرته الاحتفاظ بالصورة البغيضة المريرة.

كانت نهنهتها قد بدأت ترتفع متضامنة مع صوت لملمة الثياب، اندفع القيء فجأة من الحلق وانطلق كقاذف النار مفترشًا الأرض، نزلت من فوق السرير بإحساس ذليل. جذبت البلوزة الحريرية كي تمسح بها القيء، كان غير قادر على رؤيتها. دفعها بعيدًا، عاد صوت بكائها مرة أخرى بأنين جريح، شعر بالذنب تجاهها، نهض بصعوبة، اقترب منها وهو يهمس:

- آسف.

ثم دخل إلى الحمام الملحق بالغرفة وهي في إثره، مضت تدلك بطنه والصورة المشوهة تملأ أمامه أرضية الحوض وهي تتكلم بصوت ممتزج بالبكاء، راح منه السكر تمامًا وهو ينصت لسيناريو ممل ومعاد عن قصة حب يعقبها اعتداء ثم نذالة وفرار الحبيب تنتهي بمحاولة فاشلة للانتحار بسكب الكيروسين على عضو الفضيحة وموطن الشرور وإشعال النار به، قضت بالمستشفى أكثر من شهرين تعاني الأمرّين وفي مساء ليلة باردة فرت ملاقية هذا المصير، مسح على شعرها في محاولة لاسترضائها وهو يسأل نفسه هل هذه حكاية محض خيال أم حقيقة أدركها بنفسه وفوجئ بها ولا تزال تثير فيه الغثيان؟ أراحها على صدره لعل ذلك يخفف عنها وعنه،

ومازال صدى ضحكاتهم يصل إليه حتى غفت فأراحها على الوسادة وألقى بنفسه بجوارها جسدًا بدون حراك.. استيقظ على صداع قاتل يلتهم الرأس والعينين، ارتدى ملابسه بعد أن خفف صداعه قضاء الحاجة والاغتسال، عبر الطريق إلى البهو النظيف المرتب بأيدي الفتيات في الصباح، أتته إحداهن تسأل، إن كان يريد الشاي قبل الإفطار، غمم متسائلًا:

- أين منى؟

انكسرت نظرة البنت وهي تجيب:

- ذهبت لشراء الخضار..

أدرك أنهن كن يعرفن ومختار ورفاقه أيضًا كانوا يعرفون وهو الوحيد الغبي الأبله، صرفها طالبًا القهوة، دخل عليه مختار وعيناه متفختان من أثر شرب الأمس، بادر، محمود بالاعتذار عن إلحاحه أمس، ابتسم مختار وهو يقول:

- لا عليك كنت رجلًا وتحملت.

كثيرون غيرك لم يتحملوا وضربوها وأهانوها ثم استعادوا نقودهم، وكانت تموت في اليوم ألف مرة لذلك أخبرت كل مَن يشاركني السكن بحالتها حتى أجنبها الألم، وللأسف لم أشأ إخبارك فقد كنت أخشى أن تظن بي أنني أبخل بها عليك وتأخذك بي الظنون، والحمد لله كنت كما أظن من معدن أصيل لم تجرحها ولم تؤلمها، أنا آسف فقد فتحت عليكما الغرفة ليلًا لأطمئن وحين وجدتكما نائمين استرحت.

سأله محمود بفضول:

- كيف تعيش وهي لا تصلح حتى لأن تكون عاهرة؟

أجاب مختار بألم:

- من أراد منها وجهًا جميلًا وفمًا مدربًا لن يفتقد الكثير.

نهض محمود مستأذنًا وعند مواجهته للباب التفت لمختار وقال:

اعتنِ بها يا مختار.

ابتسم مختار وهو يقول:

- لا تخشَ شيئًا فالقدر الذي منحها لنا بكل تأكيد سيعهد بها إلى آخرين أفضل بكثير، عندما همّ محمود بفتح الباب تناول مختار بعض الكتب والملخصات من المكتبة المجاورة وناولها لمحمود وهو يقول:

- كنت ستنساهم.

قابلها وهو يجتاز آخر درجة من الدرج الرخامي الكبير سألته:

- ألن تتغذّى معنا؟

أجاب متحسسًا كلماته كمن يعبر جسرًا متهالكًا فوق نهر مليء بالتماسيح:

- لا فأنا مشغول لكني أرجوك أن تنسى ليلة أمس تمامًا..

بيسمة قالت:

- لقد نسيت..

استطرد:

- وأن تتحملي كل ما يصادفك في حياتك..

نظرت إلى عينيه مباشرة وهي تقول:

- لا تخف الذي ذاق الموت مرة يصبح من الصعب عليه إعادة التجربة.

وعندما بدأ صوت خطواتها يصل إليه مبتعدًا ومتباعدًا كانت كلماتها تحفُر في ذاكرته بإزميل من نار.

13

تنبّه محمود لحالة السكون المخيمة على البيت وسعد به فالأم قد صحبتها الأخت لزيارة السيد البدوي والتبرك به كي يشفي أوجاعها ويعيد لها السيد من غيبته ويهدي لها الابن ويبعد عنه رفاق السوء الذين تعرّف عليهم أخيرًا، أما منتصر الزوج الرابح على جميع المستويات، فقد ذهب لشراء الإسمنت والحديد والاتفاق مع عمال صب الخرسانة، ولعله الآن منكبًا على آلته الحاسبة يحسب مقدار ربحه من هذه الأعمال، كان محمود سعيدًا أيضًا لاكتشافه مفردات جديدة في العلاقات الإنسانية كانت غائبة عنه وأولها علاقته مع منتصر، فعندما عاد من قليوب في أحد الشهور الماضية أيام الاضطرابات والقلق الداخلي كان يظن أنه قد أعطى الفرصة لمنتصر كي يحكم خناقه، وأن منتصر بالتالي لن يتورع عن الاتصال بوالده وإبلاغه ولو كذبًا بأن ابنه ترك الدراسة وانضم لخلية سياسية وسيقضي بذلك على مستقبله؛ لكن الغريب أن منتصر شارك أمه وأخته في القلق عليه أو ادعى ذلك، وبعد أن أخبرهم محمود بأنه حوصر وهو بمنزل صديق فبات عنده حتى الصباح وأقنعهم على مضض بذلك، انفرد به منتصر وهو يقول بأنه كان يعرف أنه يشارك في الأحداث وكلنا شاركنا فيها أو كنا نتمنّى المشاركة على حد قوله، ثم عقب كلامه بتوسل مزيف:

- أرجو أن لا يشغلك هذا عن المذاكرة والاهتمام بالدراسة.

اندهش محمود لهذه الكلمات وظل فترة متحيرًا هل هي كلمات صادرة من القلب فعلًا؟ أم أنه وجدها فرصة وطريقة للخلاص منه وإزاحته من أمامه؟.. لم يهتم محمود بأمر منتصر كثيرًا فقد كانت أمامه أمور أهم، كانت مواجهة العنف والقلق والرعب قد أزاحت الغشاوة من أمام عينيه.. لو استمر في هذا الطريق لمجرد التودد إليها والتقرب منها قد يكلفه ذلك حياته، أو على أهون الفروض سيقضي شبابه خلف جدران صماء وقضبان حديدية وستضيع هي الأخرى أيضًا.. أيمكن له إغفال الحب الكامن في قلبه والانفصال عنها؟.. سيتعذب.. سيعاني.. إنها الحياة بكل ما تحمله من جمال والإنسان لا يعيش مرتين.

بعد تفكير مضنٍ ومجادلات كثيرة مع النفس قرر الاستمرار معها على الجانب العاطفي فقط والامتناع عن المشاركة السياسية أو حتى النقاش.. مجرد الحوار حتى ولو كان يتعلق بالأسعار، ثم يحاول أن يحرك عاطفتها وقلبها إلى أن يبتعد بها شيئًا فشيئًا عن هذا المجال، وكان يعرف أن هذا الطريق طويل وصعب؛ لكنه صمم على خوضه حتى النهاية واستقطابها تمامًا إلى جانبه، وكانت أول خطواته نحو هذا الطريق استرجاع بعض صداقاته القديمة وتكوين صداقات أخرى جديدة، وبدا في فرض نفسه على الآخرين معتقدًا أنه بذلك يفلت من أسرها ويبتعد قليلًا عن مدارها وكان أولى ضحاياه مختار ورفاقه وبصحبتهم اعتاد التغيب عن البيت وأحيانًا الدراسة، والغريب أن منتصر كان في صفه تمامًا وطالما سمعه وهو يوبخهما على قلقهما عليه وهو يقول: إلى متى ستعاملونه على أنه طفل صغير! وأكثر من ذلك أنه دعاه مرة على سهرة بأحد بارات وسط البلد عادا بعدها آخر الليل مترنحين.

الوحيدة التي استشعرت الخوف كانت وفاء، قالت له أكثر من مرة هذا انسحاب للداخل، ضحك من تعبيرها وإحساسها الدائم بأن الحياة كلها معارك. كان قاسيًا ليلة الأمس مع منى فهل سترضيها النقود التي تركها أسفل الوسادة؟ هل تعوّض النقود لحظات الألم؟ مرّ أسبوع كامل ولم يرَ وفاء.. ومن الأفضل أن يرتب كلماته استعدادًا للغد فغالبًا هي الآن في حالة غير متزنة وستلقي إليه بكلام من صخر.. هل سيبتلعه ككل مرة؟ أم يرده؟ فتتسع الفجوة اتساعًا يهدد بضياع كل شيء.. ما هذه الأفكار المتشائمة؟ فلينم الآن في انتظار ما يأتي به الغد.

استند بيده على السور الحديدي للكوبري ومضى يتطلع إلى المياه الساكنة، داعبت أنفه رائحة مميزة للربيع، كان يكره أن يشمها لأنها تذكره بالامتحانات وقربها ومواد ثقيلة لابد من قراءتها على الأقل والزمن محدود، لا تفتح الزهور أعاد له البهجة ولا قوارب العاشقين حركت الحنين، وكلما خطا خطوة تجاه الجامعة توجس خيفة وهو يستشعر القلق، فبقدر ما يتمنّى رؤيتها بنفس هذا القدر أو أكثر قليلًا أصبح يخشاها.. يخشى أن تظن أنه يتهرب منها بينما كل ما يريده أن تخاف فقط فتقف عند نقطة وتفاضل وتختار.. يا ويله! إنه يخشى أيضًا أن تختار فلو أحست بمناوراته وأسلوب لوي الأذرع مؤكد لن تختاره خاصة في مثل ظروفها الآن، مصطفى ابتعد بحجة الاستعداد للرسالة وليلى في ذيله بالقطع، وهو أصبح يتواجد بالجامعة كضيف يقضي معها فترات قليلة محدودة، يسكب في أذنيها كلمات أغلبها تورية وكناية محاولًا إخبارها بأسلوب غير مباشر بأنه معها وسيظل لها ما بقيت قصة الحب، وهي شاخصة إليه كمشاهد السيرك حين

تتعلق عيناه ببهلوان الحبل، لم يبقَ معها الآن إلا رشاد وحسن وبعض زملاء غير دائمين، ولم يبقَ لها إلا دورًا صغيرًا تمارسه للتنوير الثقافي بالجامعة كإحضار بعض الشعراء، أو الاتفاق على عروض سينمائية متميزة أو إقامة بعض الندوات عن المسرح المعاصر، أتكون قد اكتفت بهذا القدر أم أنها محاولة للإفلات من بين البراثن المحيطة بطلبة الجامعة الآن؟ ترى ماذا تقول عن تراجعه.. جبان.. وهل اقتنعت بكلام مصطفى عن الرسالة والتحضير؟ كان الله في عونها.. لابد أنه في رأسها تدور معارك ضارية.. آه لو تترك لقلبها العنان.

تجاوز الساعة العتيقة بدقاتها الحادة، التفت إلى يمينه حيث السرادق الضخم وبدأ في قراءة اللافتة بتأني.. معرض لبيع الكتب الدينية، جذبت انتباهه الأعداد المتزايدة من الجلابيب البيضاء والفتيات المحجبات، تساءل هل بدأت عملية الإحلال؟ استعاد الصور في ذهنه ببطء للفحص والتمحيص، هل يعود الزمن القهقرى؟ استعاد المناقشة التي كانت بينهما وكلماتها الحادة المتشنجة والكتب التي زودته بها والمقالات التي تؤيد أقوالها، ظلت تضرب برأسه الأسئلة.. هل رجعوا لإعادة محاكمة عباس بن فرناس؟ ويبدهم السيف المسمى بالزندقة.. سيتهمونه مرة أخرى بالمروق وتسخير القوى الشيطانية وسيتقدم أمامه الشهود ويقسم أحدهم بأنه سمعه يستدعي الجان ويقول مفاعيل.. مفاعيل..مفاعيل، وسيشهد آخر أنه رأى بأم عينيه دماء كثيفة تجري في قناة بيته وأطفالًا يدخلون ولا يخرجون.. لكن هل سيخدمك الحظ مرتين يابن فرناس وتجد نفس القضاة واسعي الأفق؟

هل عادوا مرة أخرى وتركوا الكهف؟.. وهل ستعود صرختهم تدوّي من فوق المنابر(*): (يا أهل مصر يقول رسول الله ﷺ لا يستحي العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم.. فقولوا هذا لمن أحلوا تعليق الفوانيس أمام البيوت والدكاكين هنا ندخلهم في زمرة الكافرين، قالوا! سبق لعديد من الأمم أن علق حكامها الفوانيس في شوارعها فهل ذكروا لنا مثلًا بعينه؟ هل كان رسولنا يمشي على هدى الفوانيس؟ في رحلتي الشتاء والصيف إلى الشام واليمن.. نقولها ورقابنا على أيدينا لهؤلاء الذين يدّعون العلم بالحكم التاريخية والأحاديث النبوية والمتون الخفية وهم جهلاء يخفون جهلهم، نقولها ولا نهاب: يا أهل مصر لم يحدث تعليق الفوانيس من قبل، لقد أمرنا رسولنا الكريم بغض البصر عن عورات الخلق والفوانيس تكشف عوراتنا، خلق الله ليلًا ونهارًا، ليلًا مظلمًا ونهارًا مضيئًا، خلق الليل ستارًا ولباسًا، فهل نزيح الستار؟ هل نتطاول ونبدّد سواد الليل من كل شبر بالمدينة؟ هذا كفر لا نقبله، هذا خروج عن الحق لا نرضاه يا أهل مصر توجهوا إلى بيت الزيني بركات أفرادًا وجماعات، قوموا إليه، إلى بيته، طالبوه بمنع الفوانيس التي تهتك الستر وتشجع النساء على الخروج بعد العشاء، قوموا إليه ضارعين متشددين، راجين حازمين، لا يرجعنكم لين حديثه عما انتويتموه، لا تغيبوا عن مقصدكم، الفوانيس علامات آخر الزمان من علامات دنيا تخرج عما رسمه الباري عز وجل، طالبوا سلطاننا بتوسيط كل من أوحى إلى الزيني بهذا، بحرقه، برجمه، هؤلاء الجهلاء أدعياء العلم،

(*) جزء من خطبة الجمعة التي ألقيت من فوق المنابر آخر ذي القعدة 909هـ وهذا الجزء قاله الوعاظ كلهم على اختلاف مذاهبهم "الزيني بركات" رواية جمال الغيطاني.

آه من يوم تسود فيه الفوانيس، اللهمّ قنا شره، اللهمّ أبعدنا عنه، اللهمّ لا تمد أجلنا حتى نراه (وهنا تعالى بكاء الناس في الجوامع وزعق بعضهم اللهمّ اهدم الفوانيس، اللهمّ اسحق الفوانيس)..

هل عادوا ومعهم شيخ مشايخ مصر؟ ليفتي(*) بأن ماء القناطر آسن وشربه حرام واستعماله في وضوء باطل ثم يقف مرتعدًا أمام أحمد بن طولون الذي وقف صامتًا يرنو إلى المياه الباردة المتدفقة من أعلى إلى أسفل منحدرة بشدة نحو بيوت المدينة ثم ينحني الحاكم ويعبّ من المياه، عبّ ظمآن طال به العطش والشوق ثم يدعو شيخ المشايخ إلى الشرب فينحني الشيخ ويشرب حتى تمتلىء بطنه ثم يتجشأ في سرور وهو يهتف بفرح بالغ.. ياله من مذاق أطيب من مذاق نهر الجنة.

تجاوز السرادق الآن وعلى ثغره بسمة خفيفة عندما خطر بذهنه خاطر، أن يراها يومًا مرتدية الحجاب، والغريب أنه لم يستبعد هذا الخاطر، وجدها بنفس المكان، جلس يتابع الحديث بلا تدخل، لمح حسن قلقه فلمس بقدمه قدم رشاد واستأذنا بحجة الذهاب للمكتبة، لم تعلق على ذهابهما واتحدت رغباتهما لأول مرة على المواجهة، مرت الدقائق بطيئة ملولة وخرج الكلام من فمه غصبًا عنه خشنًا متوترًا رغم ان أغلبه سلامات، قالت له بصوت حيادي: تغيبت كثيرًا عن الكلية هذه الأيام، ادّعى أن هناك مشاكل مع زوج الأخت، بدت غير مقتنعة وقالت في استسلام: السنة أوشكت على الانتهاء وبدأ المحاضرون يركزون على الجوانب المهمة في المنهج، سألها عن مصطفى وليلى في محاولة منه لتغيير الحديث، وكانت محاولته غير

(*) كتاب مصر من تاني، محمود السعدني.

موفقة فقد احتقن وجهها وهي تقول: كل واحد أدرى بظروفه، ثم نظرت إليه نظرة غاضبة متنمرة لظنها بأنه يتشفى منها، اعتذر بلطف، قالت بخشونة: لا داعي للاعتذار، ناولها الملخصات التي كتبها نخبة من مدرسي الكلية أثناء دروسهم الخصوصية لمختار، قلبت الأوراق كما يقلب الأمي جريدة خالية من الصور والرسومات ثم أعادتها إليه وهي تقول: ليس لها لازمة فأنا أعددت ملخصات لنفسي ولا أحب أن تتضارب أفكاري، بدهشة قال: لكن هذه سيأتي منها الامتحان.. بسخرية قالت: لست معتادة أن آخذ شيئًا بلا ثمن.. هل دفعت فيها الكثير؟ سرح بنظره بعيدًا وذهنه غائب تمامًا.. نفس الموقف مع اختلاف بعض التفاصيل عندما قدم لها حلقًا ذهبيًا بمناسبة عيد ميلادها مجاملة منه وتعويضًا عن ذهبها الذي باعته من أجلهم، ورفضته بنفس البسمة الساخرة وهي تقول إنها لا تتلقى هدايا، خاصة أنها لن تقدم أبدًا لأحد هدية.. كانت الملخصات فوق حجره أشبه بحجر ثقيل يزداد ثقلًا كل لحظة ومازال نظره بعيدًا هناك حيث الشمس البرتقالية التي أوشكت على المغيب.

14

عاد إلى التطلع إليهم وهو يحمد الله على أنه لم يقع بين أيديهم بوجوهم الغليظة وبنيانهم الضخم المتحد مع صعوبة الفهم، أعاد الشرح مرة واثنتين وثلاثة ولم يتبه إلا القليل، فاض به الكيل والإحباط وفقد حماسته الأولى قال لنفسه شهور قليلة وتنقضي وقد يأتي غيري من هم أكثر حماسة وأكبر قدرة على الاحتمال والصبر، أمرهم بالانصراف وظل وحيدًا في الغرفة القذرة والمعدّة للدرس، مشروع عظيم كأغلب مشروعاتنا التي على الورق، الخدمة العامة لمن أعفي من التجنيد، وعندما جاءته ورقة رسمية تطلبه ليصبح معلمًا لأمين، فرح جدًا ثم تخوف عندما عرف أن مقر الخدمة (معسكر الأمن المركزي).

غادر محمود الغرفة ثم عرج على غرفة الضابط (النوبتجي). تبادل معه السجائر والأحاديث المرحة كخطته التي رسمها في رأسه منذ الدخول، لاستقطاب أكبر عدد منهم حتى يصبحوا له أصدقاء؛ فربما يحتاجهم يومًا إذا ما اعتقل صديق.. ومن المؤكد أنه سيحتاجهم مادام الحجر الصلد لا يزال رابضًا داخل رأسها.. رأس جان دارك المصرية أو جميلة بوحريد الجديدة، كان يعتقد أن نهاية الدراسة بالجامعة ستضع نهاية لما في رأسها وستنتبه للحياة الجديدة التي تبرز أمامها؛ لكنه اكتشف كم السراب الذي كان يتطلع إليه ووجد رأسها أصلب وأكثر ميلًا للتهور، وكرد فعل طبيعي

لانفضاض الأصدقاء من حولها باستثناء قلة قليلة، يبدو أنها استبدلت الجامعة وحرمها المقدس بمقهى متواضع بوسط البلد، أصابه ذهول عندما زارها بالبيت عقب النتيجة وهي تخبره بأنه من الأفضل أن يتقابلا مستقبلًا بالمقهى، تماسك ثم قال لها بعتاب:

- هل من اللائق أن تجلس فتاة في مقهى؟

نظرت إليه كما ينظر الأسد إلى فأر صغير وهي تقول: أنه مقهى ثقافي يجلس به الصفوة من المثقفين وتعقد به بعض الندوات التي تدور حول القصة والشعر والمسرح والنشاط الإنساني بوجه عام.. كما أنك من الممكن أن تجد هناك نجيب محفوظ أو يوسف إدريس.

تخوف عند ذكرها للندوات فخاطبها بصوت ناعم يذكرها بالأخطار، قاطعت كلامه وهي تقول بحزم:

- إذا أردت أن تراني فاذهب إلى هناك فقد انتهت الدراسة وليس من اللائق أن تكثر التردد على البيت.

أغرقه الخجل وانتبه للحقيقة التي كانت غائبة عنه، وقبل انصرافه وجد فمه مدفوعًا بالسؤال عن مكان هذا المقهى.

تردد عليها هناك عددًا قليلًا من المرات وظل حريصًا على الجلوس أقل مدة ممكنة، متجنبًا المشاكل بقدر الإمكان، حرك القلق قلبه لتواجد حسن الدائم معها وتابعه رشاد ولكن خوفه كان فوق الحب، صمّم ألا يترك لقلبه العنان فيجد نفسه بلا مستقبل، أحيانًا كان يرى مصطفى برفقة ليلى وعرف منه نبأ حصوله على الماجستير وبداية التحضير للدكتوراه مع دراسته الحرة

بمعهد النقد الفني، استشعر جفاءها لمصطفى واهتزاز علاقتها بليلى، حضر معها عددًا من الأمسيات لكن رغم إعجابه ببعض العروض الفنية التي كان يقدمها بعض الهواة فإن عينيه كانت كثيرًا ما تتفحص الوجوه وهو يخمن كم منهم من المخبرين والمدعين وفاقدي الإيواء واللصوص والعاهرات، وحينما كان يخرج في نهاية الندوة وتقابله العربات المصفحة المتمركزة عند كل ناصية، كان يقسم لنفسه أنه لن يعود ثم يجد نفسه مدفوعًا إليها من جديد وهي بنفس المكان تنتظر وعيناها تقول إنها كانت تعرف أنه سيعود.

كان يتمنى أن يسبق الزمن ويقتنصها من الضباب.. من نهاية مجهولة ومستقبل غامض خطير، لذلك كانت سعادته أكبر من أن يحتويها الكون وهو يتسلم رسالة من والده كان يتوقعها، فضّها بسرعة وهو يأكل الحروف، وافق الوالد أخيرًا أن يأتي إليه للعمل هناك بعد انتهاء خدمته العامة كما أكد له أيضًا بالخطاب أنه سيرسل إليه مع صديق بعقد العمل وتصريح الزيارة..

وافق أخيرًا هذا الوالد القاسي العنيد بعد مراسلات كثيرة متبادلة، بعد أن رفض في البداية أكثر من مرة، معترفًا بأنه يعتمد عليه كرّب للأسرة أو مدّعيًا لذلك، كتب برجاء أعمق وكذب أشد إليه بأن متصر يقوم بالمهمة على أكمل وجه، ورد الأب يغريه بأنه سيرسل إليه كل ما يحتاجه كما لو أنه هناك، لم يجد محمود مفرًّا من التهديد، أرسل إليه يخبره إن لم يرسل إليه بالعقد سيغادر مصر نهائيًا إلى أي بلد أجنبي، رضخ الأب وها هو قد أرسل له الخطاب، وها قد أتت الفرصة لانتشالها ففي كل خطاب لوالده كانت وفاء في ذهنه، وكل هذا الإلحاح من أجل السفر ليس لذاته لكنها فكرة واتته ورأى فيها الخلاص مما في رأسها. لذلك من أجلها مضى يتسول الموافقة

ويرتجي ويلح في الرجاء.. كان قد أرجع كل ما تفعله إلى وحدتها وعزلتها وخوفها من مواجهة الزمن وحيدة منفردة، مما يدفعها دفعًا للاندماج في المجموع.. المجموع الذي يشكل في ذهنها بأفراد من طبقتها أو ما دونها فقط وجعلها تقف موقف المقاتلة معهم وضد الآخرين، الأقوى والأكثر تملكًا لأدوات القتال.. تقف معهم غير منتبهة أنها في حالة انتحار جماعي، بفرض أنهم معها بينما الظاهر لأقل عين مدركة أن حولها قليلًا نقيًّا والباقين أفاقين ومدعين وفاتضين بالأمراض النفسية من البارانويا حتى النرجسية.. لن ينتشلها من عزلتها إلا الحب وحبه ناقص غير كافٍ فهو لم يطلبها رسميًا، بحيث تنشغل بالزفاف وتشغلها أحلامه الوردية، لذلك من الصعب عليه أن يتزوجها هنا وليس في الأمر عجز مادي لكن خوفًا عليها من أفكار تتمطى برأسها ولن تتخلص منها إلا بالبعد والهرب بعيدًا.. أصبح العلاج الوحيد هو السفر، لذلك قبل محمود ما كان يرفضه دائمًا وما كان يعيبه على الوالد رغم الفارق الكبير بين غرضهما فالأب هناك للإثراء وهو سيذهب هناك للفرار.

كانت فرحته كبيرة بالخطاب، انطلق من فوره إلى المقهى يبشرها بالخبر، انتظرها لأكثر من ساعتين ملولًا ضجراً، كان من الأفضل أن يذهب مباشرة إلى البيت فالخبر يستحق، لا الأفضل أن ينتظرها هنا فمازال الموقف الأخير ماثلًا أمام عينيه.. تعب كثيرًا مع هذه البنت رغم أنه جرب الكثير.. انتقل من عالمه الضيق المحدود إلى عالمها الرحب اللامتناهي.. فهل يشفع له ذلك؟ لا تزال تضيق به وتتنمر له وتعامله كطفل متخلف. ألا تدري كم التضحيات التي بذلها من أجلها؟ كم التوتر الذي يعيشه؟ سيعاقبها على ذلك كله عندما يقفل عليهما باب واحد بورقة شرعية وسيكون له رأي في كل شيء في حياتها، وإذا رآها يومًا تلقن طفلها أفكارها سيلقي بها من النافذة.

سمع رنين عملات معدنية، التفت ففوجئ برشاد إلى جواره يدق العملة على المنضدة ليتبه، همس رشاد.. مشكلة عويصة.. ابتسم محمود وهو يقول لا لكنني كنت أفكر فيمن سيأخذ الدوري، ضحك رشاد ضحكة جهورية وهو يسخر:أخيرًا وجدتك تهتم بشيء، نظر إليه محمود بغضب وهو يقول:

- أنتظر وفاء لأمر مهم..

فهم رشاد المطلوب منه ونفذه بالحرف واستأذن مسلمًا عند حضورها، قالت له وفاء:

- إلى أين؟

أجابها رشاد وهو يشير إلى محمود:

- محمود يريدك في أمر مهم سألف قليلًا بالبلد وأعود قبيل وصول الجماعة.

التفتت إليه بعد أن غاب رشاد عن النظر وقالت:

- ألن تتوقف عن أفعالك؟

قال مدّعيًا عدم الفهم:

- أي أفعال؟ ..

قالت:

- لماذا دائمًا تضع فرقًا بينك وبينهم؟ كلنا أصدقاء.. لو كنت تريد قول أي شيء فعليك أن تقوله بينهم فأنا لا أخفي عن أصدقائي شيئًا.. أرجوك أن تسمع هذه المرة الكلام ولا تدفعني لإحراجك لو تكرر هذا.

آه تبًا للوعظ ومن اخترعه.. لكن لها عذرها فالدراسة قد انتهت وأنت واقف بمكانك كعود القصب وهي معلقة منتظرة أي كلمة تخرج من بين شفتيك إما أن ترتبط أو تترك الجمل بما حمل.. عبء كبير تحمله فوق كاهلها.. لها ألف حق لكن حذار فللصبر حد وهي بكلمتها الأخيرة تؤكد أن الأمر فاق الحد.. فلتضرب على الحديد وهو ساخن لتضيء بسمتها كل الكون..

ظلت تنظر إليه مشدوهة وهي ترى نظرته تعبر كل الأمكنة والحدود وتكاد لا تستقر.. قاسية جدًا معه وكم آنبت نفسها على ذلك، لكنه لم يفهم أبدًا ولا يود أن يفهم أنها ليست ملك يمين ولا جارية وأن مَن يريدها لا تريده أبدًا فارسًا على جواد بل إنسانًا عاديًا يقاسمها اللقمة والحلم والمصير.. سمعت الكلمة التي تكرهها دومًا من شفتيه:

- أنا آسف..

لم تعلق، قال بانكسار:

- هل من الممكن أن نتحدث في أي مكان آخر.

قبل أن تعترض قال مشيرًا إلى كثرة رواد المقهى..

- أرجوك فهذا موضوع خاص.

أبدت امتعاضًا كبيرًا عندما ذكر لها اسم (كافيتريا) فاخرة بوسط البلد وقالت بلا اهتمام:

- نجلس في أتيليه الفنانين، اعترض بشدة فروّاده تقريبًا نفس رواد المقهى، اتجه بها إلى كافيتريا أصغر قليلًا ووافقت ربما لفضول شديد يحتلها

ورغبة في معرفة ما يود أن يقوله، أشارت له ليتكلم قبل تناول العصير تكلم بصوت متهدج وخانته كثيرًا العبارات.. تكلم عن كل شيء.. الرسالة.. الأخبار السريعة.. ورغبته في الرحيل القريب عقب انتهاء خدمته العامة، لم تعلق، قال بشوق:

- ما رأيك؟

قالت في حياد:

- سافر..

همس:

- وأنت؟

قالت:

- بالتأكيد هنا بجوار أهلي ووسط بلدي، بتوسل قال:

- نأخذها معنا.

بيسمة استخفاف علقت:

- نأخذ البلد كلها معنا؟

كاد يصرخ:

- البلد.. البلد وماذا سيجرى للبلد؟ وماذا سنفعل نحن للبلد؟ لو ضاعت سنضيع معها بالتأكيد.

نظرت إليه مليًا ثم قالت بهدوء:

- إذن رأيك أن نهرب كفئران السفينة..

بألم قال:

- رجاء إعادة التفكير.

بحسم قالت :

- ولا لحظة واحدة للتفكير، سافر انت بسلامة الله. دمعت عيناه وهو يهمس:

- والحب؟

ضحكت وهي تقول:

- انتهى يوم أن فضلت عليه الخوف.. أعترف لك بأن ما جذبني إليك توهمي باستعدادك للمجازفة معي حتى الموت.. وعندما رأيت الرعب بعينيك خوفًا عليّ، لم أكن سعيدة بل كنت أرثي لك.. أنا آسفة يا محمود حبي لوطني لا يعادله شيء.. أرجوك لا تحاول معي مرة أخرى وتغريني بالسفر كما تغري الأطفال بقطع السكر. سأذكر لك ما يزيدك رعبًا، لقد انضممت للحزب رسميًا وأصبحت مصدرًا للإزعاج كما أصبحت مراقبة من أكثر من جهاز وصداقتي بهذا أصبحت خطرة فرجاء أخير أن تقطع صلتك بي لقد يمنعونك من السفر.

قامت وهي تشكره على العصير وعندما لم تسمع صوته وتتلقى إجابته همست.. محمود، رفع رأسه إليها ببطء، تمالكت نفسها كثيرًا أمام غزارة دموعه ثم ربتت على يديه المتشنجة وهي تهمس:

- أكرر أسفي.. سافر ولا تنظر أبدًا إلى الخلف.

15

كلما انقضى يوم توهم أن أيام الحزن تقلصت شيئًا أو تناقصت عددًا، لكن يبدو أنه كان كمن يحفر حفرة في كل لحظة تتسع وتزيد. أيام كثيرة مرت وشهور توالت وطعم المرارة مازال في الفم وقد يكون متقاسمًا الدم في العروق، أصبح حاله في البيت فظيعًا مرعبًا.. مشاجرات ومنازعات يومية على حق وباطل وصوت جهير أصبح ملازمًا له، واتهامات كثيرة يوجهها لزوج الأخت بالتصريح والتلميح غير عابئ بتحذيرات الأم المستترة وبكاء الأخت المتواصل، لكن الغريب أن هذه المشاجرات جاءت في صفه تمامًا فقد جعلت منتصر يخشاه ويهابه وأحيانًا يتملقه ولا يدري كيف يرضيه؟ فإذا ما طلب حسابات البناء وموقف المحل، سرعان ما يهرول منتصر عائدًا بها ويجلس هو مفندًا كل بند من البنود، معلقًا بأي تعليق وغالبًا سخيف.. سرقة.. نصب.. احتيال.. ضحكوا عليك، ويتغير لون وجه منتصر ويحتقن ثم يرتعش كالتلميذ البليد ولا يجيب.. هرب محصل المحل بالعهدة ولم تبلغ عنه.. ثلاثة آلاف جنيه تتغاضى عنها كحفنة قروش..ماذا أقول؟ أأقول إنك متضامن معه.. النقود يجب أن تعود في خلال أسبوع، فتنكسر رقبة منتصر وهو يقول سأذهب إليه في بلدته وأهدده بالشرطة حتى يعيد النقود، ولماذا لا تبلغ عنه يا فالح؟ لماذا تنتظر شهرين؟ ثم ما هي حكاية الشيخ الذي يأتي كل جمعة لتبخير المحل وقراءة القرآن؟ هل يستحق راتبًا كمدير عام؟ يبخر المحل بخمسين جنيهًا.. اشتري مسجلًا يا أخي وادخر النقود،

يجيب منتصر باستكانة: بإذن الله سأشتري مسجلًا.. تنظر الأم بإعجاب إليه وقد حلّ محل الأب بنفس الجبروت والهيلمان وغادر الطفل جسده نهائيًا وتقلب الأخت النظر بينه وبين زوجها وهي ترجو الله ألا يتمادى أكثر بما هو أكبر من طاقة واحتمال منتصر مما يدفعه إلى إطلاق يمين الطلاق والفرار.

كان منتصر ينظر إلى المارد الذي خرج فجأة من الزجاجة برعب وفزع، بدأ يعيد حساباته من جديد بعد أن فطن أخيرًا أن ليس كل المقدمات تؤدي إلى نفس النتائج، كان يظن أنه امتلكه نهائيًا بين يديه.. وهو يتصنت إلى صوت دخوله المترنح آخر الليل ويتسمع خبطاته العشوائية للجدران المصاحبة لصوت قدمه غير المتزن ويتشمم رائحة فيه المليء بالكحول وهو يسنده ليجلس على الفراش، وبكل هذه المقدمات أحس أنه قد اقترب كثيرًا من الهدف وكاد محمود أن يصبح صلصالًا مرنًا طيعًا في يديه.. صحيح أنه لم يكن يخشاه في الماضي وهو طفل أبله إلا أنه كان يتخوف مما ستجيء به الأيام عندما ينبت شاربه ويشتد عوده؛ ويبدأ في محاسبته، لذلك كانت سعادته غامرة بمعرفته بانضمامه للمظاهرات وعبث الشباب وتفرغه للقراءة واحتمال كتابة المنشورات،غير ملتفت لما يفعله هو بالبيت والمحل ومدخرات الغائب، وبلغت سعادته مداها باكتشافه لاتجاهه الأخير وهو السكر والعربدة والغياب عن البيت، وكثيرًا ما دافع عنه أمام أمه وزوجته وهو يخبرهما بأنها أفعال من طيش الشباب، وكثيرًا ما أهمل سماع الأم وهي ترجوه بإعلام والده بالأمر حتى يتدخل .. الحمقاء، كانت تظن أني سأرسل إليه ليعود.. دعيه هناك يتمتع بالطيبات ودعيني أنا أنفرد بتلافي مخاطر الزمن وعوز الحاجة عند الكبر.. لكن كيف انقلب هكذا محمود، إنه لا يذكر إلا عودته ذات مساء وإحراقه لكل كتبه ثم اتجاهه إلى الشرب

والسكر والعربدة والتعرف على الحثالة والأوباش، ظن أن هذا في صالحه تمامًا لكنه أدرك أخيرًا أن المقدمات لا تؤدي دائمًا إلى نتائج منطقية، فقد انقلب محمود إلى نصفين أحدهما عابث ماجن ليلًا والآخر مدقق مهووس نهارًا كجابي الضرائب المتعنت.. فهل يرسل ليأتي بالمغترب؟ لا وألف لا.. فقطعًا هي فترة ولن تطول وسيعود محمود كما كان حالما تنتهي نزوته، سياسية كانت أم عاطفية كقطعة فلين طافية فوق مياه البانيو يجذبها ويبعدها أينما شاء.

غادر محمود المنزل فخورًا منتفشًا كالليث الهمام حين يتجاوز ما بقى في فريسته، جلس على مقعده المفضل بجوار صلاح صاحب محل الأدوات المنزلية وبعد أن تطلع إلى أرجاء المحل وتيقن من خلوه من الزبائن، غمد يده في جيبه وخرج بها بصحبة حفنة من الدولارات، أعطاها لصلاح الذي دسها في جيبه واستأذن لدقائق ودخل إلى دورة المياه الملحقة بالمحل لاستبدالها، عاد محمود لخواطره مبتسمًا.. لولا تلك المشاجرة ما كان منتصر القذر قد أعطاه الدولارات لاستبدالها بدلًا منه مضحيًا بالربح، ناسيًا ما كان يدّعيه قبلًا من الخوف عليه من الاحتكاك بالشرطة وتجار السوق السوداء..الآن عرف دواءه..منازعة بسيطة بمجرد علمه بوصول رسالة من الأب يرتعد بعدها منتصر ويعطيه الدولارات متفضًا لاستبدالها. هل أصبح انتهازيًّا؟ وما الخطأ في ذلك؟ هو صاحب الحق ومن حقه أن يستفيد بدلًا من الغريب، تناول محمود النقود ودسها في جيبه بدون عد وهو يسأل صلاح عن أخيه علي، أجاب صلاح: في الهرم بصحبة فوج سياحي وسوف يكون موجودًا غدًا فالأحد إجازته. استأذن محمود وغادر المحل متجهًا إلى كافيتريا على شط النيل.

جلس رانيًا إلى صفحة النيل الهادئة، متوقفًا لحظات أمام جمال تلك الشجرات العملاقة على الشط الآخر، متبعًا في تأمل الطيور الصغيرة التي تحلق وتهبط في أشكال جمالية لا تحدها قدرة فنان، كان محتاجًا إلى قدر من الهدوء بعد عنف وصخب الصباح.. سأل نفسه.. هل أصبح راضيًا عن حياته هذه؟.. لا..ولكنها الحياة لا تمضي على نفس الوتيرة.

فترات وفترات ومن المؤكد أن هذه الفترة هي الفترة الكبيسة في حياته، أنهى الخدمة العامة وبقي بالبيت كالزوجة الحامل منتظرًا تدفق الطلق واندفاعه على هيئة رسالة من الوالد تعلنه بميعاد الرحيل، لم يكن متلهفًا على الرسالة متشوقًا لها فإن طعمها ضاع بابتعاد وفاء، لكنه ينتظرها كما ينتظر القاتل موافقة المفتي على الإعدام، حتى يغادر هذه الوجوه.. ويرحل ليعيش هناك مدفونًا في حفرة حتى الرأس يتلقى الرجم في ثبات.. سيقاطع الصحف والإذاعات والمصريين وكل من يكون همزة وصل بين الوطن وبينه، وسيتفرغ لاغتراف الأموال وقبل أن يموت سيذهب إلى هايتي ليدفن نفسه بين الحسان.. أليس هذا هو الأفضل.. بدلًا من النفس الأمارة بالسوء التي لا تتوانى عن بث سمومها في عقله كل يوم وتأمره بأن يلازمها ويخدمها طول العمر كأصغر جندي مراسلة بأصغر سرية، وعندما تموت ويكون لها تمثال مكتوبًا على قاعدته (ناضلت في صخب وماتت في هدوء) سيتولى حراسته للأبد، وإذا ما أغتيلت أو قتلت غيلة، سيظل يتشمم دمها فوق سواعد الجنود وهم يلعبون النرد على المقاهي، خيالات السكر جميلة لكن المؤلم استيقاظه في الصباح على الواقع المرير.. حتى "علي" يسوح اليوم بالسائحين فمن يسكر معه.. من يمضغ معه الأيام العفنة ويتجشأ الدم والصديد؟

تسلل صوت فيروز من مذياع صغير:

هل تحممت بعطر وتنشفت بنور!

وشربت الفجر خمرًا

في كؤوس من أثير..

سرقه الصوت إلى لحظات فريدة ممتعة حبيته فيها إلى فيروز وجعلته يعشق صوتها، وهزّ رأسه بعنف متصورًا أنه بهذه الهزة يطرد الذكريات منها، ابتسم ساخرًا من تشفي الحياة به واعتقد للحظات أنه لو خلت الحياة من الناس كلهم ستذكره الطيور والأشجار بها، أصبحت همًا كبيرًا مهما غاب وعدا وجاهد وجرى وتخيل أنها بعدت ونأت سيجدها دائمًا في نهاية السباق حقيقة ماثلة أمام عينيه، هل عاد الآن جديرًا بها بعد أن سكر وعربد وزنى وتعامل مع النصابين واللصوص والقوادين والعاهرات؟.. هل يجرؤ حتى على تذكر ما فعله بعد فقدانها وكأنه آدم يهبط الأرض من جديد؟.. تعامل مع صلاح في تغيير العملة واستعاد علاقته بأخيه (علي) زميل الدراسة القديم الذي فتح له بابًا رحبًا على حياة لم يعرفها من قبل، علي بلطجي الدراسة الذي طالما مارس عليه الفتونة قديمًا وحرمه من المأكولات والأقلام. يدور الزمن دورته ويصبحان الآن أصدقاء.. نديمين في البارات الرخيصة وزميلين في آخر الليل في أحضان العاهرات، كما مدّه كذلك بصنف آخر لم يذقه من قبل، مكوّن من حثالة السائحات لكن لا يهم فالجسد أشقر والعيون خضراء، عرّفه عليهن بحكم عمله كسائق على عربته الخاصة تحت إمرة أحد الفنادق بعد توقفه الإجباري عن التعليم، وكذلك عرّفه على برعي سمسار الحي، الذي يؤجر الشقق بالساعات بالخدمة

وبدون .. هل يجرؤ أن يقول لها ذلك في جلسة مصارحة لو صفا بهما الزمن وعاد كما كان؟..وماذا في الأمر.. ألم تقل له لا تترفع عن البسطاء التحم وتلاحم معهم فهم وقود الثورة الآمن.. وإذا قال كل ذلك أيجرؤ أن يذكر لها الواقعة الأخيرة .. أيخبرها أنه هاجم شقة مفروشة، وصفع شابًا في الثامنة عشر من العمر وركل زميله وهو يأمرهما بإبراز جوازات السفر، كما ترك المخبرين يصفعون العاهرات ثم قبل في النهاية شفاعة برعي لهما فسامحهما بعد أن دسّ في جيبه المائتي دولار.. أيقول لها إنهم ملأوا القاهرة ضحكًا ليلتها على الشابين الساذجين اللذين هبطا ليستمتعا بالقاهرة فداعبتهما بأسنانها القاسية .. وهل ستصدق أنه رغم ثناء برعي عليه لإجادته تمثيل الدور وسرور علي الشديد لأنه جعله على أول الطريق، بصق على نفسه في المرآة وفي الحوض.. خرج البصاق مصحوبًا بلون أحمر لا يدري إن كان دمًا أم بقايا براندي! .. وبكى..

وفي اليوم التالي صرخ في وجه علي وكاد يفتك به لكن علي أهمله وهو يطمئنه بأن الضحايا قد سافروا ولم يعد هناك قلق، ابتسم برعي ابتسامة لزجة وهو يقول:

- كل هذا القلق لأنها أول مرة وقد واجهنا قبلك مثل هذا القلق..

نظر محمود إليه بحنق وهو يلعن الزمن الذي جمعهم معًا وتساءل كيف قبل أن يفعل مثل هذه الفعلة.. هل حقدًا على الناس والحياة؟.. هل ردًا على تجاوزتهم حين يحضرون؟.. أم لأنه أراد أن يلقي بأقذاره إلى النيل قبل الرحيل؟

لكن الشيء المؤكد أنه فعلها غير طامع في المال، خاصة وقد تركه لهما كله.. عقد العزم لحظتها على مقاطعة أصدقاء السوء، لكن تبدو الحياة وكأنها خلت إلا منهم.. بعد اعتذار وقسم ويمين بأن لا يعودوا لمثل هذه الأعمال، تمّ الصلح واستقرت الأمور.. كاد يصرخ ويقول: أتدرين ماذا فعلت يا وفاء بي؟..

كور علبة السجائر الفارغة وألقاها في النيل ثم نهض بعد أن وضع النقود أسفل كوب العصير.

انتابت البيت نفس الحالة التي كثيرًا ما تنتابه عند وصول رسالة، ترك منتصر التليفزيون الجديد الذي كان يختبر إمكانياته وهرول إليه هاتفًا.. العقد وصل، ما عاد يدري أيفرح أم يحزن!

التفت إلى أخته المنهمكة في فحص الخلاط وعندما تلاقت عيناهما قالت: جاء العقد مع صديق لوالدنا ترك لك عنوانه لتذهب إليه .. تساءل مندهشًا:

- ولماذا لم يترك العقد؟.. أجابت بحيرة:

- احتمال أنه سيدلّك على خطوات السفر.. تناول منها العنوان ودسه في جيبه، تحركت قدماه المثقلتان بأكياس الرمل إلى غرفة الأم، تجاهل الدموع الحبيسة وسألها عن هدايا الوالد، أومأت إلى سوار من الذهب ملقى على الفراش وحقيبته بها بعض الأغراض، جاهد حتى خرجت منه كلمات تمدح السوار ويدها التي تليق بها لكن خرجت كلماته خجلى كخجل عذراء اكتشفت عريها أمام الناس.. تساءل هل هي حزينة من

أجل سفره؟.. هل تخشى أن يكرر المأساة؟ وكان قد أدهشه من قبل عدم اعتراضها على سفره كأنها كانت تتوقعه منذ أمد بعيد.. هل عندما واجهته كحقيقة ماثلة أفاقت وبدأت في الانهيار؟.. أو ربما تأكدت الآن أن الغائب هناك غالبًا لن يعود.. قبّل يديها وانسحب في هدوء، قبل أن يجاوز الباب قالت له بصوت متوتر أن يسأل الصديق عن موعد سفره حتى تجهز للوالد بعض الاحتياجات، أغلق الباب وراءه بيد متشنجة واستقرت نظراته على منتصر الذي كان واقفًا يهلل في سرور بعدما استطاع أن يولّف الإرسال.

16

لا يدري سر تقديمهم للتفاح وحبات الفستق وإصرارهم المقزز على أن تتناول أكثر من تفاحة، وأن ترحل ومعك كميات من الفستق للأهل .. هل هو دليل على حسن الضيافة؟.. رقية يرتقون بها من الحسد؟.. وعرف اكتسبوه من الغربة؟.. أم نوع من أنواع التيه والفخار؟ عاد الرجل بعد قليل بجلباب النوم الحريري ثم أشعل المروحة العامودية الميقاتية، وتكلم وأفاض وأطنب وأسهب في الوصف وعقد المقارنات وشرح المميزات واستخدام مصطلحات اقتصادية بحتة كسعر الصرف وسعر السوق ووسائل الادخار، كما ذكر الفرق الذي بين الشاي (الليبتون) المكور كحبات الفلفل وشاي التموين (الجمهورية) عديم الطعم والرائحة. امتدت مساحة الملل وطالت. سأله محمود عن العقد.. قال الرجل وهو يداعب سبحته:

- ليس معي عقد لكن الوالد أرسل لك بتصريح الزيارة.. فوالدك له علاقات ممتازة هناك.

مدّ محمود كفه لأخذ التصريح ومدّ الرجل كفه ممسكًا بكف محمود في مزاح رقيق ومقسّمًا بأنه لن يعطيه الأوراق إلا بعد الغداء، تناول محمود أكلًا فاخرًا ممسوخ الطعم ونافق وجامل زوجة الرجل التي كانت بخجل تقول:

- إنها تعلمت طهيه على أيدي الكوريين هناك.

شرب الشاي حريصًا على امتداد المجاملة إلى أقصى حد وحتى ينقل الرجل كل الوقائع إلى الرابض هناك، فيأخذ عنه أجمل انطباع، أخيرًا مدّ الرجل يده وفتح حقيبته الدبلوماسية وفتح مجموعة من الأوراق أعطى بعضها لمحمود، تناولها شاكرًا وهو يهم بالانصراف، همس له الرجل وهو يجذبه من يده لمعاودة الجلوس:

- أريدك في موضوع.

بوغت محمود فتمتم:

- خيرًا ..

نهض الرجل على أطراف أصابعه وأغلق الباب الفاصل، لعب الفأر في صدر محمود وانتبه تمامًا لكلمات الرجل بفضول قاتل، انخفضت عينيه ببطء شديد متأملًا محمود، كان لون وجه محمود قد تحوّل إلى لون مداد الرسائل القاتم، ربت الرجل على ظهره بحنان أبوي خالص، فوجئ الرجل بأنامل محمود تفتك بالأوراق وتحيلها إلى قطع صغيرة ولم يستطع التدخل لمنعه، فقط ظل يتابعه بدهشة كبيرة، فلم يكن يتوقع أن يخفي هذا الوجه الوديع كل هذا الغضب خلف قسماته، تمنّى الرجل أن يبكي محمود فيتخلص من بعض انفعالاته، نهض محمود وهو يجاهد أن يحفظ الاتزان وبصوت ميت تمامًا قال للرجل:

- قل له إن مَن بمصر قد ماتوا!

جلس محمود بمقهى قريب من منزل الرجل خوفًا من أن يعود بهذا الوجه الكئيب فتحدث كارثة، حاول أن يبقى عقلانيًا ويتجرد من عواطفه فلم يستطع، غرق في خواطره.. تزوج.. كلنا كنا نتوقع ذلك ولا نستبعده فغيابه الطويل كثيرًا ما أوحى إلينا بذلك، فلماذا انهار عند سماعه بزواجه؟.. هل

كان يأمل أن تخيب الظنون؟ هل كان يعتقد أنه سيظل راهبًا بالدير هناك؟..
الغريب أنه قال حججًا لا منطقية .. تزوج زوجة زميله الأرملة لوجودها بلا عائل هناك، حرصًا على الصداقة وحفاظًا على كرامة أهل البلد.. انجب طفلًا يبلغ من العمر ستين.. تزوج من ثلاث سنوات.. وظل يكذب طيلة هذه السنوات وكان من الممكن أن تستمر الكذبة إلى الأبد، فهو لم يصرح بزواجه إلا عندما ألححت عليه بالعمل معه فأرسل يستنجد بك ويرجوك أن لا تخبر أحدًا بزواجه، معتقدًا أنه طفل سرق بعض الشوكولاتة.. هل يكون هذا هو الذي جعله ينهار؟.. عندما أحس بأن هذا الجسد القوي مجرد خواء عفن يكذب ويخاف، وأن هذه الهالة التي كان يتخفى أسفلها مجرد خيوط عنكبوت.. يضحي برفيقة حياته وأولاد عاشوا أحلامه وفتوته من أجل متع المراهقين.. قطعًا.. متع مراهقين.. فالكذبة دائمًا ما تجر أكاذيب وزوجة الصديق الراحل سيتضح بعد فترة أنها مراهقة في العشرين، ترد الشيخ إلى صباه.. حسنًا ما فعل عندما لم يقبل هذه المساومة الرخيصة .. عقد العمل مقابل السكوت ويعقب السكوت رضوخ واحتمال أن يعينك هناك في مهمة جليس للطفل براتب كبير.

تماسك محمود بجهد جهيد وهو يولج المفتاح في ثقب الباب وحمد الله أن منتصر غير موجود، سألته أخته بشوق عن أخبار العقد، أجابها بصوت عالٍ حتى تسمعه أمه بالداخل بما معناه أنه لم يعجبه العقد لبعد مكان العمل عن مكان الوالد، مما سيحمله أجر السكن والمأكل ولن يبقى إلا الفتات، ثم عقب بأنه طلب من والده عن طريق صديقه أن يعيد البحث عن فرصة أفضل، سرت أخته لكلماته خاصة أنها كانت من أشد المعارضين لسفره بحكم ميولها العاطفية، سمع أمه تناديه بصوت حاد،

رفرف قلبه كالطير الذبيح وخانته أعصابه فقرأ المعوذتين واستعان بالله ودخل، كانت بيدها الإبرتان الرفيعتان ولفاف الصوف، عبرتهم عيناه بسرعة وكادت دموعه تخونه، ودّ لو أزاح من أمامها الصوف وصرخ بها أنه ما عاد في حاجة للصوف بعد أن تولت تدفئته امرأة هناك، وبّخته أمه كثيرًا بدعوى أنه لا رأي له.. يجعل الأب يبحث له عن عمل وعندما يأتيه العمل يرفض بحجج واهية، قال لها مندهشًا:

- كنت أحس عدم رضائك عن سفري.

قالت ويداها ما زالتا تعملان:

- أنا أعترض فقط على طريقتك في الإلحاح وعندما يرسل لك بالعقد بعد الجهد والتعب ترفض كالأطفال.

قبّل يديها وهو يقول:

- أدركت أنني لا أستطيع البعد عنك..

ثم قام منتفضًا خوفًا من أن تخونه الكلمات، لاحظت توتره فنادته مرة أخرى، وقف أمامها كالتلميذ المطيع وعيناه ترحل بعيدًا عبر النافذة المفتوحة، قالت آمرة:

- اذهب مرة أخرى إلى الرجل وأخبره بأنك قبلت العمل.

رفض ومازالت عيناه غائبة بعيدًا.. أنا آسف يا أمي لن أسافر بمثل هذا العقد المتواضع، أطرقت برأسها قليلًا وهي تقول:

- إذن أرسل معه اعتذارًا رقيقًا واصطحب معك هذه الأغراض.

وافق بخشوع ثم استدار متجنبًا رؤيتها وعندما كان الباب فاصلًا بينه وبينها، أحس بدبيب الحياة يكاد يعود إلى قلبه من جديد.

17

هذا زمان المواخير وأقبية الخمور والليالي الضبابية وصياح الحوذية وصهيل الجياد، ففي رأسه ديكنز وتشيكوف يتراقصان وفي الخلفية صوت مقارعة الكؤوس وانكسار الريح الباردة على باب الحانة الزجاجي وتراجع الضوء أمام قتامة لون الطلاء.. طلاء الحرب التي تباعدت سنينها ولم تزله وتغيرت الأوضاع وتبدلت المواضع ولم يمح.. وأنت لم تزل تطارد الوهم بسيوف بتراء وتفرّ من الواقع فرار الناس من الطاعون.. إلى متى ستهرب منها؟ وهل تظن أنها ستنتظرك إلى الأبد؟.. أما كان من الأفضل أن تنتزع الخوف من قلبك بيد من حديد وتبقى إلى جوارها محتملًا ما قد يكون.. ألا زلت تعتقد أن ما سيجيء أسوأ مما هو حادث الآن.. تستبدل دمك بقطرات الكحول وتنادم الأوباش وقطاع الطرق وتضحك على النكات البذيئة وعاهات الناس وما يخص الجنس والدين على حدّ سواء.. تطالع أوراق اليانصيب بشبق المراهق وتزدرد حبات السوداني وأعواد الجرجير بشوق الصائم، ثم تغادر المكان غائبًا محمولًا على الأكتاف وتاخذك السخرية حينما يصدمك الهواء البارد فتنتبه مجرد انتباهة وتضحك بملء الفم سعيدًا لأنك قد أصبحت ندًّا لها.. زعيمًا، وقد ترضى بك الآن.. وحين يلقون بك إلى حضن الأخت وجزع الأم وتشفّي الوقح، تبكي على سوء المصير، ثم تعيد الكرة مرات غير آبه للنصح والوعظ والزجر والنهي، ورسائل تروح

وتجيء من وإلى أب تحطم جبروته وهيلمانه فانكسر وتناثر كعرائس السكر في المولد النبوي وأصبح يخشى أن يهدد ويتوعد فينكشف عريه أمام الناس، كما انكشف أمامك، مما يضطره إلى المخادعة واللين ويصل إلى حد الرجاء بأن تتكرم وترد على إحدى رسائله، وبمقدار الصدمة التي امتصصتها منه ينعقد لسانك بلفظ لا.. ولا يجدي بكاء الأم وتوسل الأخت وتبتلها، ولا حتى كلمات الرياء الممتزجة بالعسل التي تخرج من فم منتصر وتتجمد قبل أن تصل إليك، ويلعب الفأر بكل جسد أمك وتكاد تقبل الأرض تحتك حتى تخبرها بالأمر، فتدّعي أنه لا شيء حدث وتقسم بأن الأمور على ما يرام وتتركها بعد ان تكون قد أغمدت رمحًا مسمومًا في قلبها يظل يأكل جسدها ببطء، وأنت تراقب شحوبها وزوالها التدريجي بقلب أصبح كالصخر وتظل تسأل نفسك أتقتل أمك انتقامًا منه؟ هل هذا قصاص؟ وتكاد ترد.. وهل كانت من قبل تحيا؟ إنها ماتت منذ أمد بعيد منذ أن غادرها أول مرة وما أفعله الآن هو العلاج بالصدمات الكهربائية.. قد يكون له تأثير قوي في البداية لكن ستعتاده في النهاية وبالتدريج تعود إلى حالتها الطبيعية بدون هذا الظل القميء وتعرف أن هناك عالمًا آخر خلف بنيانه المتهالك.. إنه علاج أكيد كما يقول أطباؤنا المهرة في كل وسائل الإعلام عن ضرورة بتر العضو المصاب لإفادة بقية الأجزاء.. وأنا قد بترتك أيها الأب القاسي، كما أني لم أقدر أن انساها أبدًا رغم غيابي عنها كل هذه الأيام والشهور، فلم تزل تحيا في داخلي.. في شهيقي وزفيري.. أكاد أن أقبّل قدمي حتى تأخذني إليها فما عاد يهم أن تركب فوق ظهري أو تجعلني حارسًا ألعق بابها.. ما عاد يخيفني أن أقضي سنينًا بين الزبانية والزنازين، فحمل الأحجار وأكل الروث مهرًا بخثًا. أدفعه عن طيب قلب لأعظم قرينة وأطيب حليلة.

سأذهب إليها اليوم وأخطفها من المقهى أو من الشارع وأذهب بها إلى أي مكان ترغبه بداية من القمر وانتهاء بمقر الحزب.

بدأ العقل اللعين ينتبه، متضامنًا مع خوف فطري لم يزل يلازمه، وقفا في وجهه، سدّا عليه الطريق، صرخا فيه.. تتراجع الآن.. أتعيش إلى الأبد مغيبًا؟.. راجع الصحف. استرجع تعليقات وكالات الأنباء الأجنبية، وأنت تسمعها منفردًا خلف الأبواب المغلقة.. الحالة بالبلد الآن ليست كما كانت.. زيارة وصلح ومقاطعة وسفارة لهم هنا وعلم يرفرف فوق النيل.. أتعتقد أنها انزوت مثلك في البارات ترقب الأحداث بعين غائمة وتثاؤب كسول؟.. ترى خلف أي زنزانة هي الآن؟ خلف أي جدار؟.. أم اتخذت موقفًا أقل تشددًا واكتفت بالاعتصام؟ أو قد تكون تغيرت..مثلك تمامًا تغيرت.. وارتدت بلوزة من الشواربي و(جيب) من بورسعيد ووقفت تتسكع أمام (الأمريكيين) وكأن الأمر كله لا يعنيها.. هل من الممكن أن تكون الآن جالسة في هدوء مكتفية بمراقبة سير الأمور؟ وأنت جبنت ولم تجرؤ على استخدام التعبير العسكري (الاستطلاع عن بعد) لتعرف أين تكون؟.. لم تجرؤ حتى على الاقتراب من المقهى، أو حتى الشارع المقابل للحزب لعلك تظفر برؤيتها واكتفيت بالبار وصحبة السوء مديرًا ظهرك تمامًا لها!! متجاهلًا أن لك حبيبة غير معلومة المصير، لكن إذا أرادت أن تتجاهل حملها هل تستطيع؟..

اكتفيت من الدنيا بالخمر والنساء وارتكاب كل الحماقات، وكأنك آليت على نفسك ألا تسلم جسدك لامرأة أخرى إلا وهو قطعة عفنة تعافها الكلاب، وكنت بين الحين والآخر تفيق فتحاول عقاب نفسك عن خطاياك

فلا تستطيع.. فكيف تقاوم فجأة تركك لوفاء؟.. إهمالك لأمك.. خوفك المطبوع .. تدميرك لأختك.. وكدت ترتكب حماقة أخرى وتتزوج منى لإنقاذها من تشوهها وخلاصها من العذاب، وظللت تبحث عنها في كل الشقق سيئة السمعة وجميع المواخير، وسألت معظم العاهرات وقلبت القاهرة رأسًا على عقب ولم تعثر عليها وكأنك تبحث عن برغوث في ليلة حالكة السواد.

الرأس أصبح أثقل من المائدة التي ترتكز عليها واختلطت بها كل الأمور فما عاد يدري مَن يعاقب مَن؟! .. خيالات وأطياف تروح وتجيء ولم يأت علي ولا برعي ولا أي نذل من الأنذال ولن يقدر على العودة.. سيبيت مرة أخرى هنا خلف الحاجز الرخامي وبجواره ماسح الأحذية.. لا يهم فما دام يدفع بسخاء فلن يعترض أحد وما دام قد وضع الدنيا كلها في كفة وهوى بها إلى البحر، ووضع نفسه في الكفة الأخرى وارتفع بها إلى البر فلا يهم.. وما دام من ينتظرونه من لا يريدهم ومن ينتظرهم لا يأتون فلم يعد شيءٌ يهم..

18

لم يكن الأمر صعبًا وشاقًا كما قدره؛ فسرعان ما عوضته الأقدار، عما يشغله بمشكلات متتالية وجسيمة وعلاقات باردة وحامية، وأوضاع ضبابية بالبلد دفعته إلى أن يكون أكثر حذرًا وينتبه فقط لما هو داخل القوقعة التي حبس فيها نفسه باختياره، بدت الأمور في صالحه تمامًا، فقد استعاد التوكيل من منتصر وأصبح الآن القيّم على مال الأم والمتصرف فيه لو أراد، كما توصل إلى اتفاق ودي مع منتصر وأخته على اقتسام إرث الحي المغترب هناك. حصل بمقتضاه على نصف المنزل الجديد وبضع محلات مناصفة مع أخته واتفقوا على ترك الوديعة المالية كما هي بالبنك للأم تستفيد من ريعها البسيط.

لم يمر هذا الاتفاق سهلًا على منتصر لكنه اضطر إلى الموافقة أمام تلويح محمود باليد الباطشة والعين الحمراء والخوف من خروجه من المولد بجيوب خاوية، أما بالنسبة للأم فقد أدركت بحسها الفطري ما يخفيه محمود وفقدت الأمل نهائيًا في عودة الغائب، فأومأت بالموافقة، وبرغم هذه الاتفاقيات مضى محمود ينقب بحقد اكتسبه أخيرًا ضد الناس والحياة وراء منتصر.. لإحساسه بمدى ما ربحه من خلف ظهرهم وتصميمه على استعادة ولو جزء يسير مما فقدوه أو على أقل تقدير إرهابه وجعله ينام الليل بنصف عين.

اكتشف بعد فترة أن أخته باعت لزوجها نصيبها بالمنزل، كما تركت له إدارة المحلات بالتوكيل، أغاظه هذا جدًا فسألها غاضبًا:

- أين نقود البيع؟

خفضت رأسها وبكت، جذبها من يدها وصرخ مكررًا السؤال، لم ترد، ألقى بها على الأرض وهو يهددها بسجن منتصر وسحق رأسه عندما يعود، خرجت من بين شفتيها كلمات خافتة ذليلة ومنكسرة، ومن عينيها دمعات لازجة كثيفة ممتزجة بكحل أسود فاستكان وهدأ، لم يسأل نفسه أبدًا هذا السؤال.. لماذا لم ينجبا حتى الآن؟ أو لعله سأله لنفسه ثم تصور أنها خطة قد اتفقا عليها لتنظيم النسل كعادة الناس هذه الأيام.. لم يدرك أبدًا أنها عقيم وأنها تدفع لهذا الثعبان ثمنًا للبقاء معها.. اقتسموا السر وأخفوه عنه، ودّ لو صرخ فيها: لا أمل في الدفع.. فمنتصر لن يشعر أبدًا بالإكتفاء وعندما يجف الضرع، سيجيئك بمراهقة صغيرة تخدميها رغمًا عن أنفك وتراث العائلة مليء بالكثير. تمنّى لو تخرج الكلمات بلا حواجز ولا سدود،كانت لا تزال متكومة على الأرض كفرخ صغير غادرته أمه فجأة، شعر بحنين هائل يغمره، افترش الأرض معها، ربت على ظهرها برفق ولين وهمس بهدوء: صدقيني لن أفعل شيئًا معه..سأتناسى الموضوع.

كان الجرح مازال غائرًا، دفعه دفعًا للتنقيب بدقة أكثر، بهدف إيجاد نقاط ضعف أو أي دليل يضع به رأس منتصر تحت حد السيف دائمًا، فيأمن شره ويجبره على عدم التخلي عن تلك الأخت المسكينة التي يبدو أنه لو تركها منتصر لحظة ستغادر الحياة جسدها.

وجد تلاعبًا كبيرًا في أسعار الإسمنت والحديد وأغلب المواد الخام، بالإضافة إلى المغالاة الشديدة في أجور الصنايعية والعمال، وبمجرد تهديد صغير لصاحب الأرض خرّ الرجل سريعًا واعترف بالسعر الحقيقي للبيع، ثم عقب بخنوع بما معناه أنه أراد سعرًا معينًا للأرض، لكنه وجد أن المشتري يعرض عليه الشراء بسعر أكبر مقابل اقتسام الفرق بينهما فهل يرفض مثل هذا العرض السخي؟.. نظر محمود طويلًا إلى جبينه والزبيبة الكبيرة المطبوعة فوقه ثم قال بغيظ: عدّاك العيب يا حاج.

قلب محسن الأوراق بين يديه واستعاد بعض التفصيلات الصغيرة أكثر من مرة من محمود ثم قال بيأس كبير:

- مواد البناء دفنت كلها تحت الأرض، أما بالنسبة لأسعارها فسيدّعي منتصرًا إما جهله بالسعر أو خداع تجار السوق السوداء له، ولا نستطيع أن نرجع عليه إلا بالإهمال، كما أن بائع الأرض بالقطع لن يشهد في المحكمة بالسعر الحقيقي الذي حصل عليه خوفًا من السجن فالأمر كله ينطبق عليه المثل العامي (إدوا القط مفتاح الكرار).

دخل محمود في الموضوع مباشرة وصارح محسن بكل الذي يود أن يفعله بمتصر.. أن يمسك عليه دليل إدانة واحدًا يرهبه به.. لا يريد محكمة ولا قضاة.. فقط أن يعلق الجرس برقبته فيأمن شره.. خرج الأمر من يد محسن تمامًا، قلب شفتيه وبسط يده بما يفيد العجز وعندما اكتشف أنه خذل محمود تراجع بابتسامة حذرة وهو يقول: إذن يجب مراقبته تمامًا ومراجعة جميع تصرفاته فربما ينسى يومًا أن يزيل أثر بصماته وأنصحك بتوخي الحذر حتى لا تلفت نظره فينتبه.

غادر محمود مكتب محسن يائسًا محبطًا لاعنًا "عليًا" واقتراحاته البلهاء، فهو الذي دله على محسن هذا وقال إنه شقيق زميل قديم لهما بالمدرسة الابتدائية ، كان قد تعرف عليه أثناء نظر إحدى قضايا صلاح الخاصة بعدم الإعلان عن سعر سلعة؛ كما قال إنه تردد عليه أكثر من مرة لاستشارته في عدد من الأمور التي كانت تشغله مثل: هل له الحق في رفع قضية على الفندق ومطالبته بالتأمين عليه؟ أو الرجوع عليه بالتعويض في حالة حدوث حادث لسيارته؟.. وعدد كبير من الأسئلة العشوائية غير المنطقية متجاهلًا أنه فرض نفسه بالقوة أمام موقف سيارات الفندق، وسب وبصق وتعارك حتى وطد ودعم مركزه وأصبح يقدم خدمة للفندق نظير أجر مناسب.. خدمة تطوعية فكيف يقابلها الفندق بتأمين إجباري؟ ومتجاهلًا أيضًا أن المحاماة تخصصات كالطب والهندسة وخلافه؛ وأنه من الأفضل له أن يتجه بتساؤلاته إلى مَن لهم علاقة بقانون العمل والتأمينات، لكن العقلية المتحجرة لعلي والتي زادها توقف التعليم صلابة فرضت على محسن الصداقة، وقابلها محسن بجفاء وفتور، تجاهلهما علي تمامًا مستفيدًا بالاستشارات المجانية وادعاء صداقة المتعلمين، ولم يكتف برذالته وإقحامه المقزز لمحسن فقط بل تدخل وأقحم معه آخرين، فما أن علم بحاجة محمود إلى محامٍ حتى قدمه إلى محسن على أنه صديق قديم.. كانت المقابلة الأولى بين محسن ومحمود كئيبة ومتوترة وغير ناجحة في بدايتها، فيبدو أن محسن كان قد ضاق نهائيًا بتطفل علي وفجاجته، واعتقد أن أصدقاءه من نفس الطينة والعينة وبدأ تعامله مع محمود على هذا الأساس.. ردود مقتضبة وموجزة وحركات افتعالية تدّعي الانشغال وضيق الوقت، وزاد الطين بلّة تدخل علي المتوالي بحواراته السمجة وخيالاته الساذجة البلهاء، التي نسجها الكحول

ليلًا وعجزت الشمس عن تبديدها نهارًا، وأحس محمود بأن الحجرة تضيق به كفوهة الزجاجة ودّ الخروج بأسرع ما يمكن قبل أن يورطه علي في اشتباك مع محسن من أول مقابلة، فقام مستأذنًا، شعر محسن أخيرًا بثقل ظله مع ضيف يأتيه لأول مرة فطلب بابتسامة من محمود أن يسجل اسمه وعنوانه ورقم هاتفه لدى السكرتيرة، عزم محمود على تناسي الأمر بمجرد الخروج، لكنه فوجىء بإصرار محسن على توصيله حتى الباب الخارجي والوقوف بجواره أثناء إملاء البيانات، أدرك محمود سبب الكآبة التي خيمت على الحديث وفهم رسالة محسن باستبعاد علي من الحضور.

لم يكن الأمر هذه المرة موفقًا، لم يخرج بشيء من محسن هذا، بدأ يلوم نفسه لاتجاهه إلى محام حديث الخبرة رغم قدرته على التوجه إلى أكبر محامي بالبلد، ولكن ماذا يقول لهم؟ وكيف يدخل إليهم مباشرة؟ وكيف يقنعهم بأن يدخلوا معه في لعبة قذرة لتوريط منتصر؟..منهم مَن سيطرده من مكتبه.. ومنهم مَن سيعطيه درسًا في الأدب وبعضهم سيقبل.. لكن كيف يصل إلى هذا البعض؟ بالرمل.. بالمندل؟ محسن هو الأفضل في هذه المرحلة.. من نفس السن أو أكبر قليلًا.. يبدو أنه متفهم للأمور رغم عجزه الظاهري عن فعل شيء.. تكاد تبين الانتهازية خلف قناع المثل الذي يتوارى خلفه وبالتالي فإن مدخله واضح ومعروف ليس أكثر من التلويح بالمال..

ارتضى محمود هذه النتيجة المنطقية التي توصل إليها أخيرًا وبدأ في التعامل مع محسن على أساسها. تعددت المقابلات وازدادت مساحة الجلسات وتخلل الود والتقارب علاقتهما فخرجا للعشاء أكثر من مرة ولم يمانع محسن في شرب كأس وأحيانًا كأسين، وأفاض في الحديث

عن علاقاته العاطفية ووجّه اللوم أكثر من مرة لمحمود على علاقته بعلي، وذكر أنه سيضع خطة محكمة تجعل متصر لا يكف عن تقبيل قدم محمود واستجداء الرحمة، وطلب أن تكون مكافأته نظير ذلك محلًا صغيرًا يبيع فيه اي شيء لأن المحاماة لم تعد تكفي لشراء خبز على حد قوله.

أصبح الأمر بالنسبة لمحمود لا يتعدى وسيلة من وسائل ابتلاع الوقت، خاصة بعد رفضه للعمل أكثر من مرة واكتفائه بممارسة دور ابن الذوات القديم، لذلك كان الوقت قد أصبح عنده مساحة كبيرة ممتدة ولا نهائية بعد أن ملّ تمامًا علي وبطانته، وفضل الاختلاء بنفسه والسهر منفردًا وحين ينبض في شريانه وازع ضمير وهو يلمح انكسار أخته وتهاويها، يذهب مباشرة إلى محسن ليضعا خططًا لن تنفذ وفروضًا وهمية للحصار، ثم أخيرًا يتفقان على اللقاء ليلًا في أقرب بار ليتدارسا الأمر من جديد، إلى أن أتى يوم ورآها أثناء صعوده العبثي إلى محسن، وكان خارجًا من المصعد منتشيًا بالعطر الذي يملؤه وهي خارجة من مكتب محسن، تسمرت عيناه أمام عينيها الصافيتين والقوام المفصل الممشوق، عبرته نظراتها كما اعتادت أن تعبر سلال القمامة والكلاب الضالة وشحاذي الطريق ودلفت إلى المصعد، حتى بعد سماعه صدى توقف المصعد كان واقفًا مستمتعًا بالعطر الجميل النفاذ والصورة التي لا تغيب بسهولة، استرجع عقله صورتها بسرعة فلم تكن غريبة عنه، كانت من أرستقراطيي المنطقة ورآها أكثر من مرة في محل صلاح تشتري بعض الاحتياجات المنزلية، لاحظ صلاح تحديقه بها، حدجه بنظرة قاسية وصرح له بعد خروجها بكلام كثير عن عائلتها وزوجها وأردف في ارتياح: الحمد لله أنها لم تنتبه لنظراتك.. لم يهتم محمود كثيرًا بكلام صلاح، فهل

من الممكن أن تغضب أي امرأة من نظرة انبهار كنظرته؟ وهذه بالذات التي بالتأكيد تقابل الآلاف مثلها كل يوم بالطريق، كما أنها تبدو غير منتبهة إلى أي شيء آخر بالدنيا. دخلت وخرجت كالعبير.. أشارت إلى الأواني ودفعت النقود وأدارت السيارة ولم تلتفت حتى لصلاح وهو يضعها بالسيارة، هل من الممكن أن تكون قد رأته؟.. لو رأته بالتأكيد ستعتقد أنه جزء مكمل للديكور وليس إنسانًا من لحم ودم فالبشر مؤكد عندها صنف واحد، ترتبط بهم وتعاملهم إلى جانب حثالة أخرى تتشكل منها الحياة، تكررت المشاهدة مرة ثانية وثالثة مع اختلاف طفيف في التفاصيل، وها هو قد رآها الآن وتساءل متحيرًا ما الذي يأتي بها إلى مثل هذا المكتب المتواضع وإلى محامٍ حديث الخبرة؟ .. ربما قريبته!.. غير معقول طبعًا أن يكون محسن الوغد من نفس السلالة.. ترى كيف كانت تتكلم معه؟.. مثل كلامنا هذا.. أم باللكنة الفرنسية.. هل مثل هذا الفم من الممكن أن ينطق كلمة صخر.. ضبع .. حلقوم.. ليسأل محسن حتى يستريح.. لكن محسن لن يجيب بسهولة، ستتلبسه روح الأهمية ويخرج الببغاء من فمه بالكثير من العبارات الجوفاء عن أسرار العملاء وقسم الأطباء، يجب أن يحاور ويناور ويناوم حتى يعرف لماذا دخلت هذا المكان.

كانت خطوات محمود ناجحة في هذا المضمار، أهمل تمامًا أنه رآها أثناء الدخول، وكبت على مضض فضوله الشديد، وامتد بينه وبين محسن حبل الكلام الممل السخيف والاقتراحات غير المنطقية، ثم بحذر وبخبث شديد دعا محسن للعشاء ليلًا وبعد الكأس الثالثة كما توقع حصل منه على ما يريد، وإن لم يصدق تمامًا ما تفوه به محسن، ولولا حرصه الشديد ليلتها

ومجاهدته في حفظ توازنه وعدم السكر حتى يكون متيقظًا لكل كلمة من محسن لا اعتقد أن الأمر كله تهيؤات مخمورين.

أحس محمود وكأنه طفل صغير، يحاول صياغة جملة مفيدة من مفردات قليلة ومتناقضة.. المكتب المتواضع.. محام حديث الخبرة.. كلمات صلاح عنها التي تبدو متناقضة مع كلمات محسن.. أرستقراطية أصيلة.. وبعد أن اجتهد محمود في إعادة تشكيل الجملة بقدر استطاعته، ابتسم ابتسامة عريضة للغز الذي تكوّن، وعزم على حله وإن كلفه الأمر الكثير.

19

جلس محمود سعيدًا باكتشافه الحس المباحثي الذي كان كامنًا فيه واستشعره قديمًا في حالات متعددة أثناء المظاهرات والندوات على المقهى، لكنه نجح الآن في إخراجه من أعماقه وبدأ في التعامل مع مفردات الحياة على أساسه، والغريب أن تفوقه في استخدام هذا الحس كان باهرًا جدًا وأدى إلى نتائج مذهلة.

نبت هذا الحس عندما توقف أمام لا معقولية الأحداث الماثلة أمامه، فتاة ثرية جميلة وأرستقراطية تستطيع بطرف السبابة أن تأتي بالقانون بشحمه ولحمه أمامها، تتجه إلى مكتب متواضع لمحام أشد تواضعًا، محدود الخبرة، هذا بالإضافة إلى كلام صلاح عن عائلتها وزوجها فهل أفلس زوجها حتى تتجه إلى مكتب محسن للاستشارة؟.. هل بارت تجارته وكسدت وباع المرسيدس والبي. إم. في، ومحسن هو فارس المحاماة الذي سيعيده إلى ما كان!! لابد ان أمرًا ووضعًا قلقًا يلبد في هذه المنطقة بالذات، وحين خرجت الكلمات بطيئة مترنحة من فم محسن طيّرت الخمر الرديئة من رأسه وأحلت محلها ترقبًا وذهولًا، واستعادها بالبيت ألف مرة.. جاءتها أول مرة وبصحبتها شاب يبدو أكبر منها بقليل بسمات قيادية لعقد زواج عرفي في مكتبه، أعدّ محسن الصيغة القانونية للورقة، ثم وقع كشاهد عليها معتقدًا أنه بذلك يعطي بعض الطمأنينة للأنثى التي تقع تحت

مثل هذه الظروف وتخضع للزواج المستتر، ثم تدخل لسانه المسحوب وضميره الذي تيقظ فجأة أمام جمالها لتحذيرها بأشرار الزواج العرفي بالنسبة للإرث واعتراف المجتمع به، وكان في نيته الاسترسال لولا أن ألقت عليه بدش بارد، متمثل في ابتسامة عريضة كست وجهها وهي تؤكد له بأنها تعرف كل هذه المخاطر التي يتلوها، حرر محسن الورقة من ثلاثة أصول ناول الزوج واحدة والزوجة واحدة واحتفظ للمكتب بنسخة، سألته بانزعاج: هل من الضروري أن تحتفظ بنسخة؟ أجابها بدهشة بأن هذا أمر طبيعي بما أن العقد في المكتب وعلى ورقة مذيلة بعنوانه وتحت شهادته، تلعثمت قليلًا وهي ترجوه أن تحتفظ بالورقة الثالثة معها، طمأنها محسن بأن وجود هذه الورقة بالمكتب حماية لها مع الاعتذار للزوج إذا حدث لا قدّر الله طلاق وأراد الزوج أن ينفي الزواج من أساسه، كما أنه في حالة اتفاقهما على الانفصال سيتم تمزيق كل الورق هنا بالمكتب، قطع الزوج إلحاحها وهو يؤكد..هنا أضمن.. دهش محسن تمامًا عندما وجدها تتناول ورقة الزوج ثم تضعها مع ورقتها في حقيبتها الجلدية الصغيرة.

غابت عنه مدة تقترب من شهر ثم جاءته في اليوم الذي رآها فيه محمود، دارت ولفّت حول موضعات كثيرة مثل العقارات والأرض وأمنيتها الكبرى بأن تشتري قطعة أرض تواجه الشط بالإسكندرية بأي مبلغ وأعلى نسبة عمولة، ثم دخلت في الموضوع مباشرة وسألته إن كان من الممكن أن تحصل على الورقة.. أعاد محسن طمأنتها وهو يقول إن هذا إجراء روتيني لحفظ حقها لو أراد الزوج اللعب بذيله وحاول سرقة ورقتها، فتحت حقيبتها مبتسمة وأخرجت الورقتين منها وقالت إنها تجيد الاحتياط لنفسها. استطرد

محسن ينبهها بأن هذا أدعى للاحتراس فمن السهل عليه الاستيلاء عليهما، سألته :

- لو أردت الانفصال هل آتي إلى المكتب لأمزق كل الورق؟

أجابها:

- هذا بشرط أن يكون معك الورقتان الأخريان.

ابتسمت مطمئنة ثم سلمت عليه بحرارة وهي تغادر المكتب.

أطرق محسن متحيرًا من كل هذا الإلحاح ولم يسعفه ذكاؤه بالتخمين الصائب، إنما أرجع إلحاحها إلى حالة من الخوف الشديد بألا يعترف الزوج بالزواج وارتاحت رأسه لهذا التخمين فتوقف عن التفكير في عملائه وأطوارهم العجيبة.

عندما انتهت كلمات محسن لمحمود خرج بيقين أن أحدهما كاذب، ثم ما لبث أن استبعد محسن لانتفاء المصلحة في الكذب عليه، إذن لابد أن الكاذب هو صلاح وهذا هو الأرجح. كان يريد ترهيبه حتى لا يضايق إحدى زبائنه فادّعى أن زوجها رجل مهم تلافيًا للمشاكل لكنه عندما استعاد الحكاية مرة واثنتين وثلاثة واستوقفه إلحاحها المستمر في طلب الورقة، لعب الفأر بعبّه ونام واستراح واستولد فترانًا أخرى كثيرة، ووجد أنه لابد أن يجلي الموقف بأكمله ويبحث ويستقصي ويخادع ويناور حتى يصل إلى الحقيقة، وقد أعجبه هذا الدور جدًا في هذه المرحلة المملولة من حياته وقرر أن يستمر فيه إلى النهاية متفرغًا له كلية، وها هو الآن سعيد بدقة ملاحظاته ووفرة المعلومات الهائلة التي حصل عليها بطرق ملتوية ومباشرة.. بنقود وسجائر

من أفواه كثيرة ومتعددة كصلاح وعلي وبرعي والسماك والكواء والجزار والفران، لكن رغم سعادته الظاهرية كان هناك عقبة ضخمة أمامه ولابد أن يجتازها بسرعة حتى تصبح كل الخيوط بيده كلاعب العرائس الماهر، وكانت هذه العقبة هي الورقة ولا بد أن تكون بحوزته وبأسرع ما يكون.

لم يكن الأمر صعبًا أو عسيرًا، فبشيء من التخطيط الماهر، حصل عليها ببساطة شديدة، ذهب إلى المكتب قبيل آذان الظهر مستغلًا وجود السكرتيرة بمفردها لتواجد محسن بالمحكمة صباحًا كما كان يعرف، ثم ادّعى أمامها أن لديه موعدًا مع محسن بالمكتب لبحث موضوع مهم، تبادل معها الأحاديث المرحة الباسمة في إطار من الذوق والأدب وعندما اخترق صوت الأذان حيّز المكان .. استأذنت السكرتيرة للوضوء والصلاة كما توقع تمامًا فبدأ العمل، كان قد عرف من محسن أنها تحتفظ بمفاتيح مكتبه ضمن مفاتيحها لأنها أحيانًا تأتيه بأوراق القضايا في المحكمة، أخذ المفاتيح بسرعة وفتح الدرج العلوي، ثم قلب في الملف الأزرق حتى وصل إلى الورقة وأخذها وأعاد المفاتيح بسرعة إلى مكانها، وهو يمنّي نفسه بليلة جميلة مع الخمر التي ساعدته كثيرًا في فك عقد لسان محسن. أتمّت السكرتيرة الصلاة وعادت إليه بوجه وضاء، أضافت إليها قطرات الوضوء بريقًا جميلًا، لم يستطع رفع رأسه إليها وهو يستأذنها في الخروج، حاولت استبقاءه، اعتذر بأن وراءه موعدًا مهمًا ويبدو أن محسن أيضًا قضاياه في نهاية "الرول".

وفي الطريق حاول بكل طريقة إبعاد وجهها عن ذهنه لكنه لم يستطع، قال لنفسه لو فصلها محسن سأحاول تعويضها بأي شكل من الأشكال، ارتاح لهذا الحل، اتجه عائدًا إلى البيت.

لم تكن برأسه خطة محددة للهجوم ولكن كان هناك تصميم على عدم التراجع، ردّ على محسن باقتضاب معتذرًا بأنه كان يظن أن بينهما موعدًا في الصباح، ضحك محسن ضحكات طويلة متصلة وأرجع ذلك إلى رداءة نوعية الخمر التي يتجرعها محمود هذه الأيام، سايره محمود بضحكة خافتة وعقله ككرة الصوف المتشابكة، قبل أن ينهي محسن مكالمته ذكر أنه غير مشغول هذا المساء واقترح على محمود السهر بأحد البارات، أظهر محمود تعبًا فجائيًا ألمّ به ويمنعه من التركيز ويستلزم وجوده الدائم بجوار دورة المياه، تشبث محسن بالدعوة وأصرّ على أنها دعوة خاصة يحاول بها الرد على بعض دعوات محمود السابقة، شكره محمود وهو يقول إنه لا فرق بينهما فهما أخوان ثم طلب تأجيل هذه الدعوة إلى يوم آخر.

أرهقته المكالمة جدًّا، فقد كان طيلة مدتها يشعر بتأنيب الضمير.. ترى هل تنتهي علاقتهما على خير؟ وماذا سيكون رد فعله حينما يدرك كل شيء؟.. سيبلغ الشرطة.. سيخبر منتصر بكل المؤامرات التي تحاك حوله كجزء من الانتقام!!.. سيقف أمامه بكل عنف وقوة!.. مهما يكن من ردة فعله هذا فهو مستعد لاحتماله، ففي سبيل العسل تهون إبر النحل كما أنه قادر على المواجهة.. مواجهة العالم كله باستثناءات بسيطة، تفرغ محمود لها الآن.. الاسم نهى محمود العيسوي.. السن خمسة وثلاثون عامًا.. العنوان ورقم الهاتف وبعض تفصيلات أخرى كثيرة وبدأ معها اللعب بالهاتف لمدة أسبوع كامل، معاكسات هاتفية عادية تمّت أغلبها بعد منتصف الليل، إثر عودتها من الخارج، تلقى بسببها سيلًا من سباب وشتائم والدتها خاصة عند

اتصاله بها نهارًا، أما عنها فقد استقبلت مكالماته في البداية ببرود غريب، ثم بدأت في سؤاله.

- من أين حصل على الرقم؟

أجابها بأنه رقم عشـوائي، بنفس نبرة الصوت الهادئة قالت:

- إنها سيدة محترمة من أكبر عائلات البلد وممكن جدًّا أن تخفيه من على وجه الأرض.

ضحك ضحكة مـستفزة استبدلت هدوءها بعنف صاخب وهي تغلق الخط. استمرت المكالمات بصفة يومية وفي توقيتات غير معقولة قلبتها إلى نمرة ثائرة، لدرجة أنها قالت له تهدده بأنها ستراقب الخط وتخرب بيته، قال بهدوء قائل:

- لا داعي لمراقبة الخط وقذف النقود في الهواء هذا هو اسمي ورقم هاتفي، تلقت منه اسمه ورقم هاتفه بذهول عجيب، ظهرت آثاره على نبرات صوتها التي احتدت وهي تقول:

- ماذا تريد بالضبـط؟

أجابها بمنتهى البرود وقلة الأدب بأنه يريدها لليلة واحدة فقط لأنه منذ رآها لم يستطع النوم.

وضحك كثيرًا وهو يستقبل نخبة منتقاة من أجود الـسباب المهذب الحاد وتهديد بالشرطة ووعيد بالقتل أعقبته بدوي غلق الخط.. لم تمض نصف ساعة إلا وسمع رنين الهاتف، بادرها قائلًا:

- استطعت بـسرعة حفظ الرقم.

لم ترد وإن كان من الواضح تمامًا أنها شبه منهارة، فقد كان آخر ما تتوقعه أن يكون الرقم سليمًا، ولما تأكدت من سلامته أيقنت أن في الأكمة ما وراءها وأن هناك بوادر خطر تحوم، فهذه ليست معاكسات هاتفية عادية وهذا الشاب إما أن يكون آمنًا تمامًا وواثقًا من أنها لا تستطيع إيذاءه، وإما أن يكون مهووسًا مجنونًا وكلاهما خطره أكيد، ابتلعت ريقها بصعوبة وبكل ما تختزنه من أنوثة لوّنت صوتها وأعادت السؤال:

- ماذا تريد بالضبط؟ مصرًا على إلقاء نفسه أسفل الترام أعاد الإجابة باختصار:

- ليلة واحدة بأمرك فقط تزيد..

اشتعلت جنونًا وصرخت بشتائم أجنبية قذرة لم تغب عن إدراكه ثم هددت بأنها ستتصل توًا بالشرطة لتريه كيف يجرؤ على معاكسة سيدة محترمة، ولن ترتاح إلا وهي تراه مودعًا في الليمان أو مستشفى المجانين. ضحك بسخرية وهو يسألها:

- وهل من آداب السيدات المحترمات الجمع بين زوجين؟

وكأنك مررت على مقابر في حضن الصحراء ذات مساء.. الصمت.. وبعده لا شيء.. ثم مرت الدقائق بطيئة حاول خلالها ألا يتكلم منتظرًا بانتباهة الثعلب اليقظ أول الكلام.. جاءه الصوت خشنًا منكسرًا مهزومًا:

حضرتك الأستاذ محسن؟

بسخرية أجاب:

- أنا الأستاذ محمود.. استفزتها سخريته فصرخت.

- أنت مجنون مليء بالتهيؤات.. مؤكد مجنون.

قال ببرود:

- والورقة التي لديّ هنا أيضًا بتوقيع مجانين؟

تلقت السهم بسكون، لحظات، ثم انطلقت كعاصفة هوجاء وسمع منها الكثير، أنها ستدمر محسن وتُبلّغ عنه النائب العام والنقابة وستقتلعه هو من جذوره، وستجتث أهله من على ظهر البسيطة وستدكّ الحي بمبانيه، تركها حتى انطبقت كبالون فرغ منه الهواء ثم استأذن منها في غلق الخط معلنًا أنه مجهد جدًا الآن وسوف يتصل بها غدًا للاتفاق على بعض الأمور، وأغلق الخط بدون سماع الرد وحينما سمع الرنين بعد خمس دقائق لم يرد، وعندما أيقظه الرنين بعد ساعة قام وفصل مخرج الهاتف.

20

استيقظ كعادته بعد الظهر بقليل، قالت له أخته وهي تقدم طعام الإفطار، إن محسن المحامي اتصل، وأصرّ على إيقاظه لكنها صرفته بصعوبة بعد أن وعدته بإبلاغك فور استيقاظك من النوم، أجابها بلامبالاة:

- طظ..

استطردت:

- كان عصبيًا ومنزعجًا ويبدو أن مشكلة خطيرة تواجهه.

قال وهو يقذف ببذرة الزيتون في منفضة السجائر:

- طظ.

قالت بحيرة:

- إنه ينتظر مكالمتك ولن يغادر المكتب حتى تتصل به.

نظر إليها ببرود وهو يقول:

- بعد الإفطار سأكلمه. ولم تستغرق المكالمة سوى دقيقتين وغادر المنزل في اتجاه المكتب.

أثناء دخوله حاول جاهدًا تفادي رؤية مكتب السكرتيرة الخالي منها، طرق باب غرفة محسن بهدوء شديد، أجابه صوت رفيع خافت:

- ادخل..

بمجرد أن دخل أحس أنه في مكان آخر وليس مكتب محسن، واحتمال أن يكون كهفًا من العصور الحجرية قابع داخله ديناصور، يقذف النار من فمه، وتحير قليلًا هل حدث سطو مسلح على المكتب؟ كتب متناثرة في كل مكان وأوراق مبعثرة تغطي أرضية الغرفة وجسد منهار فوق مقعد ليس به شيء حي، عدا فم يفتح ويقفل بآلية شديدة على سباب وتهديد ووعيد ثم رجاء وتوسل وخنوع. انتفض محمود فجأة عندما احتد محسن ودعاه باللص، جذبه من ياقة قميصه لكن برعونة لإحساسه بمقدار الأذى الذي وجهه إليه، تراجع محسن باستسلام ليس خوفًا من قوة وعزم غريمه لكن لإدراكه بأن عنقه مازال في قبضة يد محمود. بكى محسن منهارًا وامتزجت دموعه مع عرقه الغزير مع كلماته الخانقة الوجلة وهو يقول:

- إن عمها مستشار وابن خالتها قاضي وأسرتها نصفها عسكر ونصفها شرطة بدءًا من قادة الألوية حتى ضباط الأقسام، وقد أقسمت بأن تبلغ النقابة مما يؤدي إلى ضياع مستقبلي وقد تستشهد بالسكرتيرة التي طردتها شر طردة ونحن أصدقاء فهل تبيع بنزوة مستقبل صديق؟.. أرجوك رد لي الورقة ولن أنسى معروفك أبدًا وستستمر صداقتنا وتدوم.

أغاظته ابتسامة محمود وصمته الطويل فبدأ يهدد بصوت حاول جاهدًا أن يجعله عاليًا وقويًّا وخرج رغمًا عنه كهديل الحمام.. سأبلغ منتصر بما تنوي أن تفعله به وسأرسل لوالدك بالخارج وسأبلغ الشرطة عن سرقة مستنداتي. عندما لم يتلقّ ردًّا من محمود قام منتفضًا وكاد يقبّل يده، نهض محمود بسرعة ثم تكلم بصوت هادئ رتيب:

- لا تخف منها وثق بأنها لا تستطيع أن تؤذيك.. هي مسألة بيني وبينها.. أهملها تمامًا وقل لها الورقة مع محمود فتصرّفي معه.. هي لن تقدر على فعل أي شيء ولكي أطمئنك سأذكر لك ما تجهله.. إنها تجمع بين زوجين ومن المستحيل أن تُبلغ عنك.. دعها تهددك بالنائب العام والمدعي العام الاشتراكي فلن تقدر على فعل شيء.

استمع محسن إلى كلمات محمود بذهول ثم اطمأن قليلًا عندما أدرك نقطة ضعفها، لكنه كان غير قادر على العفو والغفران، طلب من محمود ألا يريه وجهه بعد الآن. ابتسم محمود نفس الابتسامة التي رآها محسن كريهة وقبل أن يغادر المكتب مدّ يده بالسلام، ظلت اليد ممدودة، أخفضها محمود بخجل وهو يرجو محسن رجاء أخيرًا أن يعيد السكرتيرة إلى العمل لأنها لا ذنب لها في الأمر، فقد استغل انشغالها بالصلاة واستولى على الورقة، قذف محسن الكلمات قذفًا: اخرج ولا شأن لك بعملي..

تلقاه منتصر بنظرة ماكرة وهو يسحبه من يده بإلحاح إلى داخل غرفته ويتصايح بضحكات ونكات ويتبادل الغمزات مع زوجته، حاول محمود الإفلات من قبضته وفشل تمامًا لإجهاده الشديد فترك العنان ليد منتصر تجره إلى الداخل، وعندما واجه سريره ألقى بجسده عليه متمنيًا أن ينتهي منتصر من كلماته الممجوجة بسرعة لينام.. كل هذا التودد والترحيب يخفي وراءه الكثير.. يخفي ما يخفي..ماذا يريد؟ توكيل.. بيع محل.."الزواج بأخرى".. ليأخذ كل ما يريد ويدعني أستريح، فلن أقاتل على كل الجبهات تكفيني جبهة واحدة الآن.. مهرًا بريًا لابد أن أمتطيه ولو بذلت في سبيله الكثير، لكزه منتصر في جنبه فأفاق حانقًا، اتسعت ابتسامة منتصر وهو يقول:

- اتصلت بك آنسة أكثر من أربع مرات ورجتني في المرة الأخيرة أن أخبرك عندما تعود بأنها ستعاود الاتصال في الصباح.

سرح محمود قليلًا بينما استطرد منتصر:

- قالت إن اسمها نهى.

تنقلت عينا محمود من السقف إلى الجدار إلى منتصر الجالس فوق السرير بوجه الثعلب، تأمل ملامحه محاولًا استشفاف ما خلفهما، أزعجته اللمعة الحادة في العينين، همس له:

- وما أدراك أنها آنسة؟

نهض منتصر وهو يشير بذراعيه بإشارات معلمي الفاكهة الأكثر خبرة:

- كما أن عبير الورد يدل عليه.. الصوت الساحر.. الشوق الكبير.. وجل الصوت الذي يكشف مرارة الانتظار.. وكل هذه أدلة تشي بقصة الحب الكبير التي عرفت جيدًا كيف تخفيها ونسيت أننا كلنا سنبارك هذه الخطوة ونفرح لها مثلك بالضبط وممكن أن نذلل لك أي معوقات. لا تنسَ أننا أهل وبيننا لحم ودم لن تفصمه أي خلافات مادية.

قاطعه محمود متخلصًا من وعظه المقزز قائلًا:

- طبعًا أخبرتهم بكل هذا الهراء.. لمجرد أن واحدة اتصلت بي أربع مرات في اليوم تختلق كل هذه الرواية.. على العموم عندما أتخذ قرار الزواج أعدك بأن تكون أول من يعلمه وأول من يتفاوض مع متعهدي الأفراح..

ابتلع منتصر الكلمات بصعوبة وانطفأ بريق عينيه ثم غادر الحجرة ونظرات محمود لا تزال عالقة بالسقف.

كان أمام محمود خياران أن يبدأ المعركة الآن ويتصل بها في التو واللحظة أو أن يؤجل التوقيت إلى الصباح وفضل الخيار الثاني بعد أن أحس بعدم استعداده الآن خاصة بعد لقاء محسن ووعظ منتصر، أنهكت قواه كلية وأصبح كالعقرب الذي ظلّ يضرب الصخر بذنبه وعندما واجه عدوه اكتشف أن ذنبه خالي الوفاض.. لكن مَن منهما هو العقرب؟ أم أن الأمر كله محض تشبيهات؟

استيقظ متوهمًا بأنها اتصلت به مرة أخرى وأنهم خشوا من إيقاظه ومن ثورته العنيفة، أثناء مروره أمامهم وبعد خروجه من الحمام ومع كل طبق يوضع ويرفع وكل رشفة من كوب الشاي، كادت شفتاه تصرخ بالسؤال.. هل تكلمت؟ متى ستعاود الاتصال؟ لكنه بجهد جهيد تماسك وجرّ قدميه جرًا إلى غرفته وتشاغل بالورقة والقلم، راسمًا علامات وإشارات وخططًا تحت التنفيذ وكلمات نابية ثم أشعار غزل حتى أتاه الرنين، كانت المكالمة قصيرة ومحدودة جدًا، تركت له فيها حرية اختيار المكان، لم يجهد ذهنه كثيرًا.. اختار فندق خمسة نجوم يشرف على النيل يتوافق مع وضعها، حددت له الساعة التاسعة مساء موعدًا للقاء. بعد دقائق أعاد الهاتف الرنين وجاءه صوتها خافتًا مغلفًا بمشروع ضحكة تخبره بأنها لم تره إلى الآن فكيف ستتعرف عليه هناك؟ هل سيرتدي بذلة بيضاء ويصطحب وردة حمراء كبيرة بيده كما يحدث في الأفلام؟ أجابها مفتعلًا ضحكة بأنه سيترك قلبها يقودها إليه ثم عقب بجدية بأنه يعرفها جيدًا وسيتجه إليها بمجرد المجيء.

21

اتجه مباشرة إلى البار وتجرع كأسين في عجالة ثم غادر البهو، اختلس النظر إلى ساعته.. لم يزل باقيًا على موعد اللقاء نصف ساعة، مضت عيناه تستطلع المكان بنظرات قصيرة ولم تتوقف إلا على تمثال رخامي لملكة فرعونية قديمة وعدة مراكز هاتفية، مصطف أمامها عدد من الرواد، استلفتت نظره فتاة نحيلة غائبة عن الحياة والكون وضجيج المكان وسماعة الهاتف راقدة بين رأسها المائل ويدها الحانية العجفاء، أهاجته الذكرى قليلًا لتماثل العود مع وفاء لكن سرعان ما ارتدّ إلى واقعه الحالي وإلى الأمور الجسام المقبلة.

كان البهو رحبًا جدًّا برغم الأمكنة المستقطعة منه والمستغلة بالمطاعم والبار ودورات المياه وقاعات البيع، اقترب من ركن الاستقبال الذي كان غاصًّا بالرواد، فاضل بين الانتظار واقفًا، أو فرض نفسه بالقوة والجلوس على إحدى الأرائك المخصصة لأربع أفراد ويشغلها فقط حبيبان يتناجيان، وكاد يفعل الثانية لولا أن لمح في الطرف القصي من الركن أريكة يجلس عليها ثلاثة من الشباب سيماهم الشعبية تكاد تنطبق على ملابسهم وإشاراتهم العفوية وتوجسهم من المكان وخجلهم الجلي ونظراتهم المنبهرة بكل شيء.. الثياب.. النساء.. الحلي.. الأضواء.. العطور، اقترب منهم مسلمًا ومستأذنًا في الجلوس، تنحوا له عن مكان بابتسامات ترحيب

وغمغمات كلام لكنه لاحظ أنهم قطعوا حديثهم فجأة متوجسين، تشاغل عنهم بالتخمين.. هل هم من أفراد الطبقة الجديدة التي بدأت تطفو وتزاحم في كل الأمكنة؟.. لو كانوا منهم لما تواجدوا هنا ولكان أولى بهم المطعم أو البار، ربما من بائعي الأقراص المخدرة أو المخدرات جاءوا بناء على طلب من عميل! أحس بثقل الظل الذي يخيّم على المكان فمدّ يده بعلبة السجائر الأجنبية التي كان قد أعدّها للقاء، تقبلوا منه السجائر بعد إلحاح، نجحت السجائر في إسقاط الحاجز الوهمي فتكلموا بإحساس ابن البلد الأصيل واستمعوا له كما استمع لهم..

أتوا عن طريق إعلان بالجريدة لمقابلة صاحب عمل خليجي يقيم بالفندق، طلب الإعلان بعض الفنيين كاللحامين والبرادين، لم يقفوا أمام الفندق كالآخرين، سألوا عنه موظف الاستقبال الذي أخبرهم بنومه وقال إنه عندما يستيقظ سيختبرهم واحدًا بعد الآخر، جلسوا في ركن الاستقبال للاحتفاظ بالسبق، وأهملوا الآخرين لإدراكهم من تجاربهم السابقة بأن رجال الأعمال يكتفون عادة بأول خمسة متقدمين، تمنّى لهم التوفيق.

نظر في ساعته.. التاسعة وخمس عشرة دقيقة، غادر البهو إلى الممر الطويل الذي يمتد من باب الفندق حتى الملحق التجاري الذي يواجه الميدان، تسكع أمام محلات الأزياء والمجوهرات، وقف على الدرج الرخامي الكبير يتطلع إلى موقف السيارات حتى لمحها تخرج من سيارتها بصحبة شابين، واسترعى انتباهه وقوفهم أمام السيارة يتحدثون، انسحب بهدوء إلى الداخل عابرًا البهو إلى أريكته مرة أخرى، غرق في خواطره وهو يرد على أسئلتهم بدون وعي تقريبًا، تساءل.. مَن الذين بصحبتها؟ وهل

لم يكفهم الحديث داخل السيارة حتى يكملوه خارجها، استشعر الخوف الحقيقي لكن لم يكن هناك سبيل للتراجع، استعرض في ذاكرته أسماء وعناوين لشخوص قد تنقذه في هذا الموقف وأجهد ذهنه في محاولة تذكر أرقام هواتفهم.. لكن لا أمل فلم يعد للأمر عدته، اعتقد أنها سهلة ويبدو أن الأمر لن يمر بسلام.. لو أدركت خوفه لاعتصرته عصرًا، لابد أن يهاجمها بعنف وأن يهادنها بلين، إنه في حاجة إلى شعرة معاوية. ولكن هل ستترك له الحبل يجذبها ويبعدها كما يريد؟.. لا يعتقد.. فإنها خيل بري أصيل وما دام اختار أن يكون الفارس، فلابد أن يجتاز الاختبار بمهارة وحكمة، وإن فشل فلا يهم فلن تجيء الدنيا بأسوأ مما رآه.

ارتفع برأسه قليلًا فوجدها واقفة بمفردها أمام ركن الاستقبال بمحاذاة مكاتب إحدى شركات السياحة، لفتت أناقتها وقوامها وتفحصها الوجوه أنظار بعض الشباب بالاستقبال وبالمكاتب السياحية، بان الضيق والانزعاج على وجهها خلال بحثها اليائس عنه، كان جالسًا مستمتعًا بمنظرها ومتجنبًا لحظة اللقاء. علق أحد الجالسين معه بتعليق سخيف عنها، اضطره هذا التعليق إلى القيام والاتجاه نحوها، مدّ يده إليها بالسلام، ترددت لحظة وهي تحدجه بنظرة قاسية متشككة، قال لها بصوت هامس اسمه، مدت إليه كفها وما زالت مسحة الضيق على وجهها، وضع كفها بين راحتيه وضغط ضغطة خفيفة، حاول سحبها من خصرها إلى الداخل حيث المطعم الأرضي، برفق أنزلت يده وهي تجاهد أن تظل ابتسامتها على الوجه، ثم قالت إن هناك مطعمًا ظريفًا في الدور الثالث، قبل أن يتجه إليه استدار بنصف وجه وألقى التحية إلى زملاء الأريكة.. قالت له وهي تصعد بخطوات أنثى فريدة:

- أصدقاؤك؟.. همس..

- لا لكني تعرفت عليهم منذ قليل.

أتمّ دوره على أكمل وجه، أرجع المقعد إلى الخلف وأجلسها عليه كما يفعل السادة وانتشل من أصيص الزهور الذي يتصدر المائدة زهرة، أعطاها لها وهو يبتسم، تناولتها ببرود وأسقطتها أمامها بدون أن تشمها وظلت عيناها تتفحصه وفمها مطبق عن الكلام، ناولها قائمة الطعام لتختار، قالت إنها تنفذ ريجيمًا قاسيًا لذلك لن تتناول إلا قطعة لحم مشوية مع طبق السلطة الخضراء، حدق فيها بتعجب فلم يكن يرى فيها قطعة شحم زائدة تستحق أن تزال .

قالت له وعيناها لا تزال عالقة به:

- لم أكن أعتقد أنك بكل هذا الأدب والذوق، فلماذا كانت كلماتك عبر الهاتف تفتقد هذه المميزات؟..

قال لها:

- فلنؤجل الحديث إلى بعد العشاء ونستغل الفرصة في التعارف، وفي نفس الوقت يكون أصدقاؤك قد انصرفوا، فأنا أعتقد أننا لسنا بحاجة لهم فليس هذا اجتماع سياسي ليصفقوا ولا حفل زفاف فيشهدوا. احمرّت وجنتاها من الغضب خاصة عندما ذكر كلمة الزفاف لكن تمالكت نفسها ثم قالت وهي تدّعي الدهشة:

- أصدقاء.. أي أصدقاء!

أومأ إليها برأسه حيث كانا جالسين.

نظرت إلى حيث نظر وهمّت بالكلام لولا أن جاء الرجل بالطعام فانتظرت إلى أن غادرهما وبدأت بالحديث، أسكتها وهو يشير بالشوكة بإشارات ضاحكة ويهمس لها بأن من الأفضل أكل اللحم ساخنًا وإلا برد أثناء الكلام، انتهت من الأكل سريعًا ثم ذهبت للاغتسال وعرجت عليهما أثناء العودة وهمست لهما ببضع كلمات، استبشر خيرًا فهذا دليل على عدم صلابة الرأس، راقب انسحابهما براحة كبيرة مع إحساس بأن همًا كبيرًا انزاح من فوق الصدر، أحست بسعادته التي لم يستطع إخفاءها، طرقت الحديد وهو ساخن وسألته عن مطالبه في مقابل الورقة، نظر طويلًا إلى عينيها وقال بصوت هامس:

- أنت.

امتزجت في ملامحها القسوة والغيظ والازدراء والغضب وبقدرة عظيمة تمالكت نفسها ثم امتدت أناملها إلى حقيبتها الفاخرة وخرجت بدفتر الشيكات، قالت:

- كم تريد؟

ببرود أجاب:

- ليلة واحدة..

ارتعش القلم في يدها وجزت على أسنانها وهي تقول:

- خمسة آلاف تكفيك..

قلب شفتيه. قالت بدون أن ترفع إليه رأسها وإن ظل القلم يكتب:

- عشرة آلاف هي أقصى حدود الابتزاز ولن أدفع مليمًا واحدًا فوقهم، والآن اذكر لي اسمك بالكامل لكي أضعه فوق الشيك.

همس:

- لا داعي للاسم بالكامل يكفي أن تناديني بمحمود أو حمادة ليلة واحدة فقط.

تركت القلم جانبًا وهي ترميه بنظرة خليط من الازدراء والاحتقار والقرف:

- وفر كلماتك القذرة لواحدة من أمثالك وتذكر أني لن أدفع جنيهًا واحدًا فوقهم.

قال بنفس النبرة الهامسة:

- مَن قال لك إني أريد نقودًا؟

- كلامي محدد ودقيق.. ليلة واحدة ولن أتنازل عنها حتى بمال قارون.

كوّرت دفتر الشيكات، وألقت به مع القلم داخل الحقيبة ثم نهضت بسرعة وهي تقول بأنها تعرف كيف ستتصرف مع أمثاله من الأوباش؟

تناول العصير بذهن مضطرب ورغم حاجته الشديدة إلى الراحة بحجرته لكي يدبر كيفية التصرف، جلس أكثر من ساعتين ليتفادى نهائيًا المخاطر، فاحتمال أنها تنتظره بالخارج بصحبة صديقيها ليقتلاه وهذا غير مستبعد بعد أن كاد يوصلها إلى حافة الجنون. سار بمحاذاة الأرصفة وعيناه في كل الاتجاهات ملتفتًا آلاف المرات، يزعجه أدنى احتكاك بجسده من العابرين ويرعده أدنى صوت لنفير إلى أن وصل أخيرًا إلى البيت.

22

مرت أيام ثلاثة بلا اتصال لم يرَ الشارع فيها مطلقًا، أغلق على نفسه باب غرفته وعاش ساعات متتالية متقلب الأفكار، ترضيه أحيانًا مغامرته ويستشعر أحيانًا أخرى ضآلته وقزميته، تتضخم الأنا بداخله تكاد تصرخ بما فعله فخرًا وتيهًا، ثم تخفت وتذوي، لم يكن ما يشغله عدم اتصالها فقد كان واثقًا من أنها ستتصل، لكن كان الذي يزعجه بضعة أمور هلامية لم تزل عالقة به ولم يحاول إجهاد ذهنه في إدراك عتها لخشيته من الاقتراب منها فقد تميته، حاول مفاداة الأفكار السوداء بكل الحذر ومضى يشغل ذهنه بأي شيء، تطلع إلى المرآة في نظرة عبثية، تأمل ملامحه المجهدة واستوقفته شعيرات الذقن التي بدأت تستطيل وتذكره بأيام الدراسة الجادة. فكّر في المبادرة بالاتصال بها بجرعة أكبر من التهديد في محاولة لاختصار المسافة المطاطية التي بينهما الآن، وتذّكر أن التحريات التي جمعها تقول بأن الزوج رجل أعمال كبير، يدير عدة مصانع بالأقاليم ويتغيب فترة تتراوح بين عشرة وخمسة عشر يومًا متصلة، يقطعها بإجازة عادة يومًا أو يومين بالقاهرة، فهل يتصل بها ويلمح لها بأنه سيخبر زوجها بكل شيء عند عودته؟ قطعًا سترضخ وتحاول الحصول على الورقة بأي ثمن.. انتصار رخيص لكنه انتصار على أي حال.. أم ينتظر؟ وقد يطول الانتظار فتتصور أن تهديداته مجرد كلام في الهواء.. إنها الآن قط محاصر في أضيق ركن ممكن ومن حقها الدفاع عن

نفسها بكل ما يخطر على بالها، ويغيب عن ذهنه ما الذي ستفعله؟ فلابد من الاحتياط، قد تكون الآن تنظّم دفاعها مستغلة هذه الهدنة القصيرة في الترتيب والإعداد لكي توجّه الضربة القاسمة والمميتة. أرجعه الرنين الحاد من خواطره، وكاد أن يتعثر وهو ينزل من السرير بسرعة ويتجه إلى المكتب الموازي لباب الغرفة بهرولة، التقط السماعة، دقّ قلبه بعنف عندما جاء صوتها قويًا متماسكًا، وبدأ يسمع بلا أدنى رد فعل ظاهري كلمات مرتبة يبدو أنها بذلت الكثير حتى حفظتها عن ظهر قلب.. قالت إنها فكرت كثيرًا حتى لا تقضي على مستقبله وهو في مقتبل العمر، خاصة أنها ستنالها أيضًا أضرار من تصاعد الخلاف بينهما، وأنها الآن تمر بضائقة مالية ناتجة عن خلافات عائلية كبيرة، وأن المبلغ الذي عرضته هو أقصى ما يمكن دفعه الآن وأنها تعده وعد شرف أن تعوضه عندما تتحسن الظروف قريبًا.

كانت ضحكاته القصيرة الساخرة التي تخللت حديثها قد أغاظتها جدًا وعندما أنهت حديثها ولم يرد ابتلعت الإهانة بحنق شديد وعادت بصبر كبير تسأله:

- ما رأيك؟

فأجابها:

- من رأيي الانتظار إلى حين عودة السيد (...).

وهنا ذكر اسم زوجها ليكون طرفًا ثالثًا في الحوار، لما سمعت باسم زوجها يتفوه به لسانه جفّ حلقها تمامًا، وأدركت أن اللعبة انتهت لصالحه فصرخت به في عصبية:

- أنت كلب قذر.

قال لها باحترام ممتزج بسخرية لاذعة:

- ألفاظ منتقاة تليق فعلًا بسيدة محترمة رائدة من رائدات مصر في ابتداع المذهب الجديد عن كيفية الجمع بين زوجين.

غمغمت بكلمات كثيرة ولم يصله منها إلا بضع كلمات تفيد بأنها تلعن اليوم الأسود الذي رأته فيه. ضحك سعيدًا وهو يقول:

- متى اللقاء؟

قالت بصوت أجش قبيح.

- أيناسبك الخميس المقبل؟

أجاب بصوت طروب:

- يناسبني جدًا.. أفي نفس الفندق؟

قالت بصوت واهن تمامًا:

- هل سيسمحون لنا بالمبيت فيه بدون أوراق رسمية؟

كاد قلبه يثب من ضلوعه وهي تعترف اعترافًا ضمنيًا بأنهما سيبيتان معًا، وبصعوبة تماسك وهو يقول:

- الفندق سيكون مكان لقاء فقط وسأرتب أنا باقي الليلة.

قالت:

- لن أتحرك إلا والورقة معك وسآخذها في نفس الليلة.

قال بصوت آمن تمامًا:

- بالتأكيد فقد حددت طلبي منذ البداية بليلة واحدة فقط وليس هناك داع لأن أقسم بأنك لن تريني بعدها أبدًا.

أتاه صوتها بسرعة:

- أتمنى ألا أراك اليوم قبل الغد..

تعمّد عدم إظهار سماعه لكلامها وقال مؤكدًا الموعد:

- الخميس المقبل الساعة التاسعة في استقبال الفندق.

بعد أن أنهت الاتصال ظلّ فترة ليست بالقصيرة محلقًا في فضاء الغرفة يستعيد بنشوة تفاصيل جسدها التي وشت به ملابسها المثيرة، وملامحها وثنايا وجهها الشيق الرقيق المتناقض تمامًا مع إيماءات الجسد، واستمر يحلم ويحلم وكلما توغل في الحلم أكثر، كانت بؤرة شعوره تمارس دورها الأزلي في التنغيص عليه، وهي تؤكد له بأن الآتي ليس حلمًا بالتأكيد لكنه بالقطع لن يكون أقل من الكابوس.

23

سارت خلفه بلا كلام كمن تقمصتها روح إحدى الجواري الطائعات من زمن الرشيد، اجتازا معظم أروقة الفندق وتسكعا أمام غالبية معروضات الملحق التجاري، وحين هبطا الدرج الرخامي واتجه بها إلى الشارع لم تعترض ولم تسأله فقط أشارت:

- سيارتي هناك.

تناول منها المفتاح بجرأة.. ظنت أنه سيقودها، لم يفعل وجلس على المقعد المجاور، طلبت منه أن يقودها كمحاولة منها لتليينه، أزعجتها بسمة الاستخفاف اللاصقة بفمه وردّه الحاد:

- لم أعتد قيادة السيارات. توقفت عند الدراجات.

تناولت منه المفتاح، وتتبعت سبابته النحيلة المصوبة كنصل خنجر حاد ترشدها إلى الطريق.

توترت جدًّا من اختناق الطريق والأفكار التي تراودها، وإشاراته المفاجئة بالاتجاه نحو اليمين أو اليسار، كانت متحيرة، أتعيد سؤاله عن المكان وتعيد تلقي رده الجاف؟ بطرف عينيها لمحت توتره أيضًا، ونظراته القلقة عبر الزجاج إلى اليمين والخلف واليسار، طمأنها خوفه نوعًا ما، حاولت أن تبدو ساخرة فقالت:

- لا أحد يتبعنا اطمئن سنسلم المخدرات بأمان.

جذبته كلماتها من قاع بئر الخوف الذي كان يرتعد فيه فقال بثقة مفتعلة:

- كنت أتابع شخصًا ظننته لأول وهلة صديقًا. قالت وضحكة عفوية خرجت تسابق كلماتها:

- إذن إلى أين الاتجاه؟

بلا تردد هذه المرة أجاب:

- المقطم.

جذبت العصا بقوة وهي تنظر إلى المرآة، وعندما أيقنت بخلو الطريق استدارت بسيارتها نصف دورة وانطلقت بسرعة، ثم قالت لتوقف اعتراضه:

- أعرف طريقًا مختصرًا. مدّ يده يستطلع أشرطة التسجيل الكثيرة الملقاة فوق المسند الأمامي، وانتقت أصابعه شريطًا للموسيقى الخفيفة وأدار التسجيل، وعندما بدأت الموسيقى تنساب، أعاد ظهره إلى الوراء مسندًا رأسه على المقعد مرخيًا جفنيه مفتعلًا هدوء الأعصاب..

كانا غريبين وسط هذا الجو الأسطوري الحالم.. الشموع المزروعة فوق المناضد، والربوة التي يحتلها المطعم وتطل على ليل القاهرة الجميل، العشاق الذين يملأون المكان.. القبلات الحذرة على الخد والشعر والجبين، والهمس الثنائي الذي يشبه الهديل، والأيادي المتشابكة الوادعة والأخرى اليقظة المتسلّلة التي تختفي أسفل الضوء الخافت. تناولا الطعام في صمت وهدوء، ماتت كلماته التي كان ينوي أن يمتدح بها فستانها الرائع وشعرها

الجميل فوق شفتيه، لمحت اضطرابه وعجزه المفضوح في عينيه فأحست بشعور جارف مرّ بها، كنسمة باردة في أصيل صيف حار وولت هاربة، لم تدرك هذا الشعور أبدًا في حينه لكنها لم تنسه أبدًا، سألته عن سبب صمته، شعر أنه لو أجاب لن يخرج منه سوى السخف.. لا شيء سوى السخف.. فسكت ثم مدّ يده بسرعة وتناول المنشفة البيضاء، ثم مسح بها يديه وفمه بعجالة وصاح في النادل طالبًا الحساب، همّت بمد يدها إلى حقيبتها لكن أوقفتها نظرة حادة خرجت من عينيه.

في الطريق أشار لها بالاستدارة إلى الطريق الموازي للقلعة فأطاعته ثم وقفت حيث أمرها، صعدا المنحدر الجبلي المزروع حديثًا حتى وصلا إلى السفح، كانت القلعة مضاءة بأنوار ساطعة تكشف الترميمات الحديثة التي أجريت عليها وأحدثت بها نوعًا من الزيف حجب بعض شموخها، تطلعت إليها بعين مندهشة متفحصة كل جزء بها.. لم يحدث أن زارتها أبدًا أو حتى زارت أي أثر آخر، وكل صورتها عنها كانت صورة سوداء باهتة لم تزل عالقة بذهنها منذ أيام الدراسة وحكايات عنها مليئة برائحة الدم، لكن الآن ها هي أمامها يشع منها بريق الذهب ويفوح منها عبق التاريخ، جذبها بلطف من يدها وهو يتجه بها إلى أحد المقاعد الخشبية المتراصة أمام شاشة عرض صيفية كبيرة، جاءهما الصبي يهرول فطلب منه كوبين من حمص الشام، أبدت اعتراضها بحجة الريجيم، أشار للصبي بتقليلها. سألته بدلال عقب عودته:

- هل من الضروري حمص الشام؟

أجابها ضاحكًا:

- حتى نتأقلم مع الناس هنا ونستمتع مثلهم بالفيلم، ارتفعت عيناها إلى الشاشة وارتدت بسرعة فقد كان فيلمًا قديمًا وأحداثه تكاد تكون محفوظة.

راقها الجو البديع فطلبت منه السير قليلًا حتى تستطيع هضم الحمص، سارا وسط الحشائش المتناثرة في السفح إلى أن جذبها من يدها وأجلسها على بقعة منداة، غمرها إحساس عميق بالراحة، أرجعته إلى تخليه عن صرامته التي صاحبتها طوال المساء. كادت كرة تصطدم بوجهها كاشفة عن بعض عيوب المكان، بدأ يشعر بضجرها فأبعد عينيه المتلصصة وراء تسلل قميص داخلي أحمر من أسفل إحدى الملاءات السوداء لشابة حسنة الوجه والجسد، واقترب بوجهه منها يسألها بصوت منخفض:

- أنذهب الآن؟..

قالت وعيناها مازالتا بخوف تراقبان الأولاد وهم يلعبون:

- تحت أمرك..

لم تدر وهي بالسيارة من أي عجينة خُلق هذا المخلوق؟ ولماذا إصراره على إجهاض هذه الليلة التي بدت جميلة بكلمات قذرة.. بعد أن بدأت تتناسى وتحاول أن تبتلعه كشراب الخروع حينما يصر عليه الطبيب، لماذا يصر على أن يعود كنقطة البدء حشرة مقززة، اقتحمت عليها الحياة في ليلة سوداء؟

غضبت فلتغضب هي ليلة لا أكثر وأنا ما قلت شيئًا جارحًا إلى هذا الحد، فقط سألتها إن كانت قد أحضرت حقيبة ملابسها واندفع لساني

يكمل الأسئلة عن محتوياتها والألوان، فلماذا اكفهر وجهها؟ لقد قلت أكثر من هذا الكلام في الهاتف، بل وسميت لها بعض الأسماء.. فلتغضب ولتأمرني بالنزول فثمة شيء خطأ يحدث الآن..

عندما أصبحت الفريسة قاب قوسين أو أدنى من براثني.. أصبح طعم الصيد فاترًا وغير شهي.. كل هذا الجنون نظير ليلة واحدة فقط.. أخسر أصدقاء، وأقطع الرزق عن موظفة كادحة، وأظهر بصورة المبتز الحقير، كل هذا نظير ليلة واحدة.. كل هذا نظير لقاء ليلة واحدة فقط.. ياله من ثمن زهيد! ولو نلت منها الليلة ما أبغيه ما يدريني ماذا سيحدث بالمستقبل؟ أليس محتملًا أن تجعلني هدفًا لها إلى نهاية الحياة؟

ماذا يضيرني لو قلبت الأسطوانة على الوجه الآخر وفعلت بالضبط ما فكرت فيه في الليالي الماضية. أستعير بعض مفردات حياتها كما جمعتها من التحريات وأسكبها في السيناريو المحكم الذي سبق إعداده.. ماذا يضيرني فعلًا؟ من الممكن أن تصبح الليلة لياليَ واللحظة عمرًا ممتدًا.. لن يضيرني شيء لو نفذته بدقة ولابد من الآن انتزاع ثوب "الفتوة البلطجي" الذي أدركت أخيرًا خطأ ارتدائه وضآلة مكافأته.. لكن هل يسعفني الوقت لتعديل الخطط؟

تابع محمود سيرها العشوائي وإطباقة فمها الغضبى وإمساكها حتى عن السؤال، ثم حرك يده بنعومة حتى نامت فوق يدها المسندة على عصا القيادة، حاولت بأصابعها المقاومة لكن لم يمكنها من الإفلات، وقبل أن تشتد مقاومتها قال محاولًا إخراج صوته بنعومة محبة: طريقنا أول المنيل.. ثم انسلت يده برقة منسحبة.

وصلا إلى الشقة الفاخرة التي انتقاها بعد بحث طويل مجهد مع برعي، وعلي إلى أن وجدوها، لم يتنازل برعي عن خمسين جنيهًا أجرًا ليوم واحد، وقال إنها لا تؤجر إلا للدبلوماسيين وطلاب الجامعة الأميركية الأمريكان وليس العرب، وقال أيضًا إنه يغامر بتأجيرها له، لأنه لو علم صاحبها بأمر هذا الإيجار سيمنعه عن السمسرة في هذا الحي كله. وأردف بأنه يقدم هذه الخدمة نظرًا للصداقة التي تجمعهما ثم عقب بصوت هامس:

- لا تنسَ إعطاء البواب عشرة جنيهات إكرامية وإلا منعك من الدخول وأحرجك أمام صديقتك.

دفع محمود العربون متخلصًا بأعجوبة منهما.

نظر إلى ساعته فوجدها الثانية عشرة والنصف. موعد مناسب جدًّا بعد أن تعمد التأخير بالقلعة والمقطم حتى لا يحتك بأحد السكان، أو يفاجأ بوجود علي أسفل العمارة كامنًا كي يتعرف على صديقته. سألته وهي تتفحص الأثاث الوثير:

- شقة صديقك؟

ابتسم لغمزها بأن نوعيته لا تقتني مثل هذه القصور الصغيرة وأجاب:

- شقة صديق عربي أعارها لي الليلة..

قالت بحيرة:

- ألن يزعجنا أحد أصدقائه.

أجاب بسرعة:

- لا.. فقد أخذهم جميعًا لقضاء الليلة بالإسماعيلية.

اتجهت إلى الشرفة المواجهة للنيل، ومن خلال الزجاج ظلت تتطلع إلى الأنوار الساطعة بطول شاطئيه، والتي تنعكس على مياهه ذهبية وفضية، بينما وقف هو أمام البار يعد كأسين لهما وهو يغمغم.. صديق عربي.. لو علمت أنها شقة مفروشة ستلقي بي إلى الشارع.تناولت كأسها وهي تطلب سيجارة فوجدته غارقًا في المقعد الوثير مباعدًا بين قدميه واضعًا رأسه بين كفيه مستغرقًا في تفكير عميق، ظلت تنظر إليه إلى أن ارتفعت رأسه فاستأذن متعجلًا لاستبدال ملابسه.

قالت والدخان الكثيف يخرج مع كلامها ويكاد يحجب نصف وجهها:

- هل من الممكن أن أرى الورقة؟

مدّ يده بآلية إلى جيبه الخلفي وأخرج حافظته، اقتربت برأسها حتى تطمئن إلى صحة الورقة، دسها في حافظته بعد أن انتهت من تفحصها وتكاسل عن إدخال الحافظة في جيبه مرة أخرى وألقاها على المائدة التي أمامها. تشاغلت عنه وعادت مرة أخرى إلى الشرفة، جاءها صوته:

- ألن تبدلي ثيابك؟..

خرج منها الصوت أجوف وما زال ظهرها له:

- بعدك..

سمعت صوت رشفته الأخيرة تلتها خطواته المبتعدة فسكنت لحظة ثم التفتت بقلق، ارتاحت قسمات وجهها عندما التقت بالحافظة .. اتجهت إليها والصمت يقودها.

عاد مرتديًا منامته الحريرية فوجدها لا تزال تعبث بالحافظة وأوراقه الكثيرة متناثرة أسفل قدميها، ضحك ضحكة طفولية حادة أربكتها، وجعلتها تتوجه إليه برأسها في حنق بعد أن ألقتها من يدها كقاتل يتخلص من دليل إدانته:

- ألا يزال يخونك ذكاؤك؟

سكتت ولم ترد. أكمل:

- أكنت تنوين سرقتها ونسيت الدروس الأخلاقية التي أعطيتها لي عن السرقة؟

أجابت بغيظ مكتوم:

- وهل تفيد الأخلاق في التعامل مع مَن لا يملكها؟

قدّم لها كأسًا أخرى أزاحته وهي تتكلم من أنفها:

- أين سأبدل ثيابي؟

أشار إلى نهاية البهو محنيًا كفه تجاه اليمين، جذبت حقيبتها بعنف ثم اتجهت إلى حيث أشار. رشف جرعات متتالية من كأسه واستغرق في تفكير عميق حتى إنه لم يتنبه إلى عودتها وفوق جسدها كل ما يثير، ولعلها قد عقدت العزم تمامًا على الاستسلام وكفى حروبًا استنزفتها مع مبتزين وقذرة وحواة، لأنها ألقت بالكأس في جوفها بمجرد العودة، ثم تناولت

سيجارة أشعلتها بيد مرتجفة وجلست أمامه تفصلهما المنضدة التي عليها الزجاجة وبضع فواتح الشهية، سألها فجأة:

- أتلعبين الورق؟

أجابت وهي تحاول سبر غوره:

- أستقضي الليلة في لعب الورق؟ هل لن تنتهي الليلة أبدًا؟

أجاب مبتسمًا:

- وعلام العجلة؟

قالت بحزم:

- يجب أن أعود إلى المنزل قبل الرابعة فالملاهي أيضًا لها موعد وأمي لن تصدق بأني كنت أسهر عند أصدقائي.

مدّ يده موحيًا لها بمد يده فمدتها، فوجئ بيدها راقدة في يده كفردة حذاء يستبدلها البائع.. همس:

- هل لأن الذي جمعنا ورقة ستفرقنا أيضًا ورقة؟

لمعت عيناها وبدت غير فاهمة فلم تنطق. سألها:

- هل أنت مستعدة؟

أومأت برأسها ثم قامت فجأة. أشار لها بالجلوس فجلست متحيرة، مدَّ يده وقرّب منفضة السجائر منه، أخرج من جيبه الورقة ثم الكبريت وأشعله، ثم قرّبه من الورقة حتى نال طرفها النار وتركها تشتعل داخل المنفضة. راقبت فعلته بذهول تام إلى أن انتهت الورقة كلها فأطرقت فترة صامتة ثم قالت:

- لعبة أخرى جديدة تلعبها بعد أن نسخت منها عدة صور في ماكينات التصوير؟

ردّ بهدوء:

- وهل من المعقول أن أتلف الأصل وأستبدل به نسخًا مصورة، يمكن لأي طفل صغير أن يزوّرها عندما يضع صورة فوق صورة؟

وجدت أن الكلام معقول فازدادت حيرة. سألته:

- هل من الممكن أن أرتدي ثيابي؟

أشار بيده بعلامة الموافقة.

ما الخدعة الجديدة، كان هذا سؤالها المستمر لنفسها أثناء ارتدائها لملابسها لكنها لم تجد الإجابة. تباطأت أمامه وهي تحمل الحقيبة في محاولة لفهم الموقف، لم يظهر شيء، قالت هامسة:

- مع السلامة.

رد السلام وهو مازال جالسًا، اقتربت من الباب وهي تحس بأن المتاهة التي وضعها فيها أكبر بكثير من الجنس أو مجرد ليلة تنتهي بالطول والعرض. عادت إليه بعد أن وضعت حقيبتها أرضًا وسألته :

- لماذا فعلت ذلك؟

أجابها مبتسمًا:

- استيقظ ضميري.

قالت حانقة إنها ليست مستعدة أن تكون طرفًا في لعبة أو دمية في يدي أي شخص.

قال لها بصوت منخفض:

- إنها ليست دمية وأن الأمر كله صحوة ضمير مفاجئة من الأفضل أن تستفيد منها وتنفلت وكفى الله المؤمنين القتال.

قالت محتدة:

- لابد أن تذكر السبب فالأمر هكذا معلق وممكن أن تعاود مضايقتي.

سكب لها كأسًا وهو يسألها إن كانت ستنصت له إذا ما تكلم. أجابته بسرعة شديدة:

- طبعًا.

بدأ يتكلم:

- المسألة بسيطة جدًّا.. فأنت تشبهين من أحببتها إلى درجة التطابق، وأعتقد أني بإطلاق سراحك أكون قد رددت بعض الجميل إلى مَن وهبتني لحظات سعيدة لن تموت أبدًا.

أنصتت باهتمام ثم نطقت بسخرية:

- وهل رد الجميل عندك يتمثل في إهانة شبيهتها بألفاظ ومعانٍ قذرة وتهديد ووعيد وحصار بهذه الطريقة؟

أجابها ساهمًا:

- كنت أعتقد أنك ستغفرين لي..

تشاغلت بإشعال سيجارة ثم قالت:

- هل انتهت علاقتكما؟

أجابها وهو ينظر إلى كأسه التي يحضنها كفه:

- لم يكن بيننا علاقة.. كان حبًا من طرف واحد.. مراهق أحب فتاة تكبره بثلاث سنوات أثناء لعبه الكرة أسفل منزلها.. لسنين طويلة كان يترك الكرة إذا ما رآها تطل في الشرفة أو تعبر الطريق، وأيام طويلة ظل يتبعها من بعيد ويرقبها في صمت وخجل من أن تلتفت فتراه.

قاطعته قائلة:

- ولم تبح لها بحبك؟

بدا غير منتبه لكلامها مستمرًا في سرده:

- كان الحاجز كبيرًا وكان يدركه جيدًا برغم صغر سنه، وكان متيقنًا من أنها لو عرفت لن تمر أيامه على خير، فاكتفى بتلك الخطوات القليلة التي تبدأ من بيتها وتنتهي إلى مدرسة الأم المقدسة.

هنا انتبهت للكلام واندفعت كلماتها تسأله:

- ما اسمها؟ لم يجب فقط قال هامسًا:

- أرجوك دعيني أحتفظ بالاسم.

أومأت إليه:

- استمر.

خرجت كلماته مصحوبة بدفء غريب:

- كانت أيامًا جميلة سجلها كلها في قصائد طفولية بكر وأغنيات لا تزال تحتفظ بها الذاكرة، كانت أملًا ضخمًا بالنسبة له وكان أجمل ما يتمناه أن

تعرف فقط أن هناك قلبًا يعيش فقط من أجلها، لذلك لم يستوعب أيامها أنها من الممكن أن تتزوج وبتلاشى فجأة حلمه المستحيل.

بكى وغضب وتحايل حتى ذهب إلى حفل زفافها في الفندق العتيق، وظلّ يرقبها بدموع من دم، ولو كان به قدر ضئيل من جرأة يومها لأغمد الخنجر في قلب العريس، لكنه عاد مصطحبًا دموعه إلى بيت الحبيب وجلس فوق سور الطوب المحيط بالخرابة التي تقابل منزلها وتحولت إلى بنك أجنبي الآن، ينظر إلى شرفتها متوهمًا بأنه يراها وأنها تناديه، وعندما اشتد به الحزن والبرد، اشترى سيجارتين وعلبة من الكبريت ثم عاد إلى مكانه وآكلهما في دقائق، وفي لحظة حقد على العالم كله بما يحتويه، أشعل عود ثقاب وألقاه داخل الخرابة حيث الحشائش والأعواد اليابسة وبقايا المهملات التي ساعدت على انتشار النار في دقائق معدودات، مما أذهله تمامًا وجعله يجري مبتعدًا في جنون حتى وصل بيته منهارًا.

أفاق بعد ثلاثة أيام على صوت الطبيب وضجيج الأهل والجيران، وعرف منهم أن حمى شديدة أصابته وجعلته يهذي بجنون وهو يهمس بأسماء كثيرة، سنين مرت وهو يتمنّى من الله أن تعرف فقط قدر حبه ولم يخيب الله رجاءه، كما أشعل النار قديمًا حزنًا على فقد حبيبته، أشعلها الآن مرة أخرى كي يثبت لها قدر حبه، وكما شاهد نهاية حلمه في هذا الفندق، جمعتهما الأيام على مائدة واحدة هناك.

قامت فجأة منزعجة وهي تصرخ به:

- كاذب.. أنت كاذب.. أنت كاذب.. حرباء من نوع جديد.. أنا لم أرك أبدًا، والنار التي تتحدث عنها كانت تحدث كثيرًا هناك بمجرد أن يلقي

أحد بسيجارة أو يعبث طفل بالكبريت.. إذا كنت تظن أنك بهذا الكذب تكسبني تكون واهمًا جدًا.. أعترف أنك مؤلف خطير، لكني أحذرك لو أعدت الاتصال بي سأنسفك نسفًا وأرتاح من هذا الجنون.

أزعجتها إطراقته، فهزت كتفه في غلظة حتى تسكب غضبها على وجهه، لكنه عندما رفع رأسه إليها ورأت عينيه التي اجتهد كثيرًا في جعلها حمراء دامعة، وقفت حائرة ثم أمسكت رأسها بيده لحظة، خطفت بعدها حقيبتها وهرولت خارجة.

ابتسم سعيدًا بعد خروجها من "السيناريو" المحكم الذي أجاد ترتيبه وإلقاءه مستفيدًا من بعض مفردات قليلة وحكايات تافهة خرجت من أبواب البوابين وبائعي اللبن.. جعلته هذه الحكايات قاسمًا مشتركًا في حياتها.. قالوا إن زواجها كان نحسًا لاحتراق الخرابة التي أمام منزلها ليلة عرسها بمجرد عودتها.. وبمجرد أن تقمص دور رجل المباحث وذهب ليعاين المكان، اكتشف ملعبه القديم أيام الدراسة وبحسبة بسيطة لعمرها من الورقة، وتقصّ أبسط عن مدرستها، وإجهاد لحظي لعضلات العين، أجاد تأليف الحكاية وتمثيل الدور لكن الأمر لا يعدو مقامرة كبيرة.. تضحية بعصفور في اليد مقابل عصافير الشجرة.. ليلة كان يتمناها بليالٍ في علم الغيب.. مهما كان فالأمر يستحق المقامرة بل هو الآن في أشد الاحتياج للمقامرة حتى بحياته.

24

قابلها زوجها بتودد حذر وهو يبدي اعتذاره الشديد لغيابه الطويل، متحججًا بقرب الانتخابات النيابية التي يجب الاستعداد لها جيدًا من أجل الحصول على مقعد يعيد إلى العائلة سابق سطوتها، أهملته متجهة إلى الداخل فاندهش، مضى خلفها يسألها عن سبب غضبها، أشاحت بوجهها وهي تقول بصوت خافت:

- أنا مجهدة من السفر.

همس:

- ألف حمد الله على سلامتك.

ثم عقب بصوت أشد خفوتًا أنه قد أعدّ وليمة لأهل الدائرة بعد العشاء، وأنه يرى أنه من المناسب أن تتجول في زيارات ودية لزوجات أعيان البلد والأقارب بعد أن تأخذ راحتها في النوم. احتدّت عليه قائلة بأنها لن تخرج من هنا إلا عائدة للقاهرة، وبحزم طلبت منه أن يتركها ترتاح.

أنّبت نفسها على المجيء هنا من أساسه، سنوات طويلة وقد قطعت كل خيوطها بالمنصورة عقب وفاة الوالد فلِمَ العودة اليوم؟.. فرارًا منه؟ أم فرارًا من جنون يفرد لها ذراعيه؟.. ثلاثون ليلة انقضت عجزت خلالها عن مجرد التفكير في شيء عداه، وكل الذين استنجدت بهم جبناء وخونة خلوا بها،

وتقلصت أوردتها وشرايينها وانطبقت الرئتان على حفنة هواء يسيرة بالكاد تستطيع منها أن تعيش.. مَن كان يتصور مجرد التصور أن تبتلي بمثل هذه البلية؟ أن يطاردها شبح تكرهه ولا تستطيع الإفلات منه.. استرجعت كل حياتها.. أجمل لحظات عمرها.. مراحل القوة والبطش.. فترات الحسن والجمال.. لحظات الصمت في حضرتها والانبهار بهيبتها.. لكن لا مفر.. تدرك جيدًا أنه خيال مآتة لكنها للأسف ارتدت أمامه عصفورًا صغيرًا مرتعدًا .. فلتحاول مرة أخرى استدعاء حياتها منذ الطفولة فربما تجده وراءها صغيرًا يتبعها ككلب ضال، أو لا تراه فتتأكد من وقاحته وكذبه، لكن ليس برأس الإنسان زر يستعيد به ماضيه بمجرد الضغط، والأكثر مرارة وسخطًا أنه بمجرد التركيز في الاستحضار، تتلاشى الصور نهائيًا وتصبح ضبابًا هلاميًا ممتدًا بلا أمد.

كادت تعصف بها الضوضاء المنبعثة من صوت الصحون وهرولة المهرولين والأوامر المتشنجة الصادرة للخدم، قامت وفي نيتها فتح الباب، وإطلاق الحنجرة بكل سباب الأرض، لولا تذكرها لمهابة والدها الراحل هنا، واستعداد زوجها لحربه الجديدة في الانتخابات، والتي يعتبرها كل حياته ولو هزت صورته أمامهم لن يرحمها، خاصة أن الحياة بينهما تحدّها فواصل من زجاج غير مرئي، حتى في أشد وأعنف خلافاتهما كانا حريصين عليه حتى لا يرى أحد غسيلهما القذر، حجبت الوسادة بعض الأصوات وإن أفقدتها التنفس المنتظم والاسترجاع اليقظ، غلبها التعب والعجز والقرف فنامت.. لم تستطع إفلات رأسها من أسفل الجرار الزراعي، وعجزت يدها اليسرى عن حماية اليمنى التي خطفها الكلب وجرى، وكانت الريح شديدة فعرت ثوبها إلى أعلى البطن تقريبًا، بينما شلت يدها اليسرى تمامًا فظلت

مكشوفة أمام عيونهم الجاحظة، وخانها جفناها فلم ينطبقا أمام فجور أعينهم، وأطلت كلاب وثعالب وذئاب مدربة تسعى إليها بامتداد الألسن ورغبة تعرفها جيدًا.. صرخت بكل ما في صوتها من قوة، تناولت الماء من صاحبة العين المشفقة وقالت والماء لا يكاد يبل العروق: كابوس.. مجرد كابوس، انسحبت الفتاة ولا تزال عيناها ترثي كل هذا الجمال الذي ابتلاه الله بالمرض، وأدركت كم كان سيدها مصيبًا عندما منعها من الحضور إلى البلد، وكم كانت غبية وهي تسأله لماذا لم تأتِ السيدة؟ كيف فسرت لحظات صمته وهروب حدقتيه تفسيرات خاطئة.. كيف لم تصدقه وهو يقول إنها ليست على ما يرام وتتعبها مشقة الطريق؟ أدركت الآن صدقه وحذرت ما كان يخفيه، واستعاذت بالله كثيرًا من مرضها، وتعجبت أن يصيب الجنون إحدى بنات الأسر المقتدرة المتمكنة.. لكن رغم كل حساباتها الدقيقة كما بدت لها، أهملت شيئًا واحدًا لم تحسب حسابه جيدًا وهو وقوفها أمام الباب كل هذه الدقائق وظهرها للسيدة، بيد أنها لم تلبث أن أفاقت على صوت صرخات وسباب لها فخرجت مهرولة وقد تصورت أن النوبة قد حان ميعادها وأنها قد تكون الضحية، وتجاوزت في طريقها المارين، اصطدمت بالأواني والحلل، ثم همست بالحكاية في أذن رفيقتها، التي وصلت بسرعة البرق إلى أذن كبير الطهاة المخضرم، الذي سرعان ما لطمها لطمة أفاقت بعدها وهي تتذكر شيئًا واحدًا فقط ألا وهو أنها نسيت كل شيء.

كان حائرًا بشدة أمام بكائها، متخبطًا في أفكاره، فتارة يعتقد في صدقها ويؤنب نفسه على إهمالها، وتارة أخرى يتجسم أمامه سابق أفعالها وصلابتها، وتمسكها برأيها الذي قد يصل إلى حد تدميره وتدمير نفسها

فيأخذ الموقف النقيض، أزاحت يده من فوق جبينها بعصبية، سألها عن سبب بكائها، فأجابت بصوت خشن:

- لاشيء فقط تذكرت والدي.

تنهّد حائرًا وهو يفكر في ضيوفه القادمين، وكان متأكدًا من أنه لو جلس أمامها العمر كله لن تبوح له بشيء، فقام متمهلًا وهو يجهز لسانه بكلمات منتقاة للاعتذار، أعفته من كل هذه المشقة عندما طلبت منه النزول للإشراف على الحفل فليس بها شيء.

راقبت خروجه بنظرات مهينة وهي تلوم نفسها على ارتباطها بمثل هذا الرجل.. لم يكن اختيارًا تم فيه المفاضلة بينه وبين الآخرين، بل كان قدرًا أسود الصفحات انتقى اللحظة المناسبة تمامًا.. جاءها الوالد بوجه مرح وكلمات ساخرة وهو يهمس ضاحكًا بأن ابن عمها يريدها، ألقى الأب الكلمة كما يلقي العابث بسنارة في بانيو الحمام غير منتظر صيد السمك، ذهل الأب تمامًا عندما خرجت سنارته بالسمك، صرخ فيها ذاهلًا:

- كيف توافقين وفارق العمر بينكما أكثر من عشرين سنة؟ وترتضين الزواج بأرمل له طفلان؟ ماذا أقول؟.. من أجل المال؟ قطعًا لا. فنحن أغنى منه.. هو الطامع بالتأكيد.. الوقح لمجرد ساعتين أسبوعيًا كان يساعدك فيها في دروسك طمع فيك وملأ عقلك وأنت لاتزالين طفلة.. الخطأ خطئي من البداية، كان يجب أن أستمع لاعتراضك، أصممت أذني عن سماعك وقلت زيادة الخير خيرين، للأسف تسلل خلفي بمكره وخبثه، صدقيني اعتقدت أنه يمزح في البداية لكنه أصر على أخذ رأيك.. من الممكن أن أخرج وأطرده غير عابىء لا بالأهل ولا بالعائلة لو قلت لا.. فقوليها..

لم يصدق الأب أذنه وكلماتها الرقيقة تصيب منه مقتلًا:

- من فضلك يا أبي هذا ابن عمي خير من يحفظ صلة الدم.

خرج الأب ولم يعد لها، لكن الأم هي التي جاءت وراحت أكثر من مرة، وبالحس الأنثوي الغريزي أدركت أن في الأكمة ما وراءها وعجزت عن معرفة كم من المرات تركتهما معًا، فابتلعت غصتها في قلبها ووافقت مكرهة وهي حريصة على ألا يشم الأب أي رائحة.

كانت ثمرة ناضجة لو مرت ريشة من جناح طائر بجوارها لسقطت، فما بالكم برجل مخضرم كان يرقب بشوق استدارة جسدها وتفتحه للحياة وعندما حانت الساعة لم يتوانَ لحظة على الانقضاض.. ولم تكن بريئة تمامًا وهي تستلذ وتستمتع ثم تصرخ صرخة وليد قابل الحياة وجهًا لوجه لأول مرة.. ولم تكن الأم اللاهية بنواديها ومجتمعاتها بريئة أيضًا.. ولم يكن الأب المنشغل بكلمات قليلة تُنشر عنه بالصحف خالصًا من دمها.. لم تدرك حجم مأساتها بالكامل إلا بداخل كلية الألسن وهي وسط أبناء عمرها، وقصص الحب لا تنتهي، ومطاردات الشباب لها وكذبها المستمر عليهم.. هنا صديق أبي.. هذا ابن عمي.. هذا والد زوجي كأنها تخشى أن يلتصق بها إلى الأبد ما يشينها، والغريب أنها بقدر ما كرهته، تخلل هو في ثنايا جلد والدها بعد ان أصبح ذراعه الأيمن وعقله المدبر، مشرفًا على الأرض ومستبدلًا بها مزارعًا سمكية ورابحًا من وراء هذا المشروع الكثير الذي يعود له ولوالدها على هيئة أرصدة متخمة في البنوك، تجعل الأب يرتد سعيدًا كطفل صغير اكتشف في نفسه القدرة على التدمير فيضحك بملء الفم وهو يقول: زوجك رجل عبقري.. مصنع ملابس الأطفال الذي

أقامه بالمنصورة اكتسح الدنيا ولم يكتفِ.. يحاول أن يقنعني بإقامة مصنع للبسكويت والشوكولاتة بعد أن ينتهي من دراسة الجدوى هذا الأسبوع وأنا ليس عندي مانع فهو عقلية رياضية منظمة.. دائما بينكما مشروعات يا أمي ومصالح مشتركة وبعد أن كنت متخوفًا من زواجنا، آليت على نفسك ألا تموت إلا بعد أن أرسلت في طلبه، واطمأننت منه على البسكويت والسمك ثم أغمضت عينيك في إغفاءة، استيقظت بعدها على رجاء بأن يرعاها وانسلّ الضوء من عينيك بغير التفاتة إلينا.. أما أنت يا أمي فأنت رابحة على الدوام.. انهارت مقاومتك لزواجنا بعد أول هدية منه عقب شهر العسل، ثم أصبح رجل المهام الصعبة، والابن الذي لم تنجبيه وعديد من الألقاب تضاف بقدر امتلاء علب مجوهراتك.. نعم لم يكن فقيرًا فادّعى أنه أثرى من أموالنا، لكنه كان يملك بقدر ما نملك أو أقل قليلًا واستغل ممتلكاتنا لتكبير ممتلكاته في ظل قوانين متعاقبة، كان يشمها كالكلب قبل صدورها، ويرقبها كزرقاء اليمامة بتدبير من حديد، واكتفى مني بليالٍ يتحايل فيها عليّ، ثم يحصل على ما يريد بعد مشاجرات وعنف وملاينة وأحيانًا تدخل الأب والأم، ثم قرر الاستقرار في المنصورة مركز أعماله والتردد على القاهرة مرة كل أسبوع أو أسبوعين من أجل المحافظة على الشكل الاجتماعي.. لم آبه لاعتراض أمي ووافقت بحزم، وتركتها تتردد عليه للإشراف على أعمالنا المشتركة والمحاسبة، وأصممت أذني تمامًا عن سماع أخبار نجاحه المستمر.. علاقاته النسائية، مراهقته الجديدة مع فتيات مصنع الملابس، وعشت الحياة التي أتمناها هنا، وتركني أعيشها على كره منه.. لكنه تركني.. وعندما اقتربت مرة من منطقة الخطر وصرخت طالبة الطلاق أظهر لي نابًا آخر لم أره من قبل، وكادت يده في ثورة تمتد عليّ، وأفهمتني

أمي أمورًا كانت غائبة عني.. أن في يده كل أمعاء البطن، وحتى لو تساهل وترك لنا بعض الأعمال نديرها سنغرق في شبر ماء، وهو يعرف ذلك جيدًا وأكدت لي أمي بأنه لن يتنازل عني أبدًا، ليس حبًا في جمالي بقدر ما هو التصاق بمالي، ثم أضافت أمي باللامبالاة:

- لماذا إصرارك على ضرب رأسك بالحائط وفي يدك حريتك وهو لا يسأل، وكل الذي يطلبه منك بضعة أيام بالشهر، وكان كلامها منطقيًا أدار وجهي إلى وجهة أخرى من الحياة، خاصة أنه ليس هناك شيء يستحق التضحية من أجله بطلب الطلاق، وحريتي كلها بيدي، فأشعت عن نفسي أني مطلقة هربًا من أسئلة لزجة وتلميحات ماكرة تتساءل عن سبب غياب الزوج، وعرفت الكثير ممن هم فوق أو دون السن لكني لم أتنازل قط، لم أتصور أن أبدو عاهرة في عين أي شخص، حتى قابلته بعد عدة مباريات للتنس بيننا كان هو في أغلبها المنتصر، واستمالتني إليه وسامته وأناقته التي تليق بدبلوماسي، وجاءت اللحظة الحاسمة بعد أن أغرقني بكلمات كالعسل، جلس كتلميذ خائب يبرر رسوبه وسوء نتائجه.. تكلم عن متاعبه مع زوجته وعجزه عن طلاقها حتى لا يدمر والدها مستقبله وعن حبه اللامتهي لي ورغبته في الارتباط بي بعقد عرفي، ولاقت الفكرة هوى في نفسي، فقد كنت عاجزة عن إخباره بمشكلتي المعقدة وطلاقي المزيف، كما كانت بي رغبة شديدة تتملكني من زمن في عقاب من اغتصبني مستغلًا طفولتي.. طلبت مهلة للتفكير ودرست كل شيء جيدًا. ولم أخف فقط طمأنني جيدًا خوفه الشديد من افتضاح أمره.. اخترت محاميًا مجهولًا، لفتت نظري لافتته عندما كنت أملأ إطارات سيارتي أسفل العمارة التي بها مكتبه، وكنت اعتزم الحفاظ على الورقتين معي

زيادة في الحرص والأمان، خنت زوجي أمام نفسي كمن يخلع حذاءً ضيقًا من قدميه، ثم أتت الرياح بما تشتهي السفن عندما أصر المحامي على الاحتفاظ بورقة داخل مكتبه، حرصًا على عملائه كما ادّعى ، وأتى الشيطان من حيث لا أحتسب.. أنا لم أره أبدًا في أي مرحلة من العمر.. طفلًا صغيرًا يلعب أمام المنزل! ما يدريني! كانوا كثيرين ولازلت أذكرهم وهم يقفزون في خفة القرود من على السور هربًا من الشرطي الذي كان يطاردهم بدراجته.. وأذكر كيف كانوا يختارون أسوأ الأوقات للعب وقت القيلولة، وكم من المرات اتصل أبي بالشرطة لصرفهم فكانوا يختفون في الحشائش. ثم يعودون.. هل كان بينهم؟..واقفًا أمام باب مدرسة العائلة المقدسة؟

كما كان يدّعي.. يوم زفافي بالفندق كان هناك فعلًا حريق وتشاءمت منه يومها وعلمت أن حياتي مع هذا الرجل لن تنتهي بخير..لكن هل هو الذي أشعله؟.. حبًا لي وسخطًا على زواجي..! ماذا تعني دموعه البراقة.. وإفلاته لي بعد أن كان قاب شعرة مني؟

هل كل هذا كذب؟ وماذا سيستفيد؟ كنت أظنه سيعاود الاتصال لكنه حتى الآن لم يتصل.. ليس وسيمًا ولا في منزلتي.. وماذا فعل معي الوسيم ذو الحسب؟.. بكى مخافة أن يخبر أحد زوجته بزواجنا، ورجاني أن أقبل الابتزاز وأدفع كل المطلوب حتى لا تثار علينا الزوابع، وأعلن أنه سيمدني بالمال اللازم عن طريق صديق حتى لا يشاهدنا أحد معًا في هذه الأيام فتتأكد الحكاية، وعندما صرخت في وجهه بأن لا يتصل بي بعد اليوم، أغرقني باتصالاته خوفًا ورعبًا من أن يستغل المبتز اسمه في الموضوع ويخبر زوجته.. صرخت فيه وأخبرته بأني كاذبة وأني اختلقت هذه الحكاية

لكي أعرف مقدار حبه وأننا من الأفضل الآن أن ننفصل، فسكن لحظة، ثم جاءني صوته الناعم يتسلل كحية رقطاء سائلًا عما فعلته بالورق.. صرخت.. أحرقتهم.. وانتهى كل ما بيننا.

أغمضت عينيها مجهدة وأوشك رأسها على الانفجار، وسرعان ما رأته بالبنطلون القصير يتبعها، ثم يسند رأسه على الشجرة المواجهة للمدرسة ويبكي، واكتشفته يتسلل من الحفل متعثرًا ويجري من أمام النار مهرولًا واللهب يكاد يلتهمه، فقفزت فزعة ودعكت عينيها، وفي أقل من ساعة تهيأت للعودة، مرت بهم فهبوا لتحيتها.. ردت بكلمات مقتضبة. كادت رأس زوجها تشاركها المقعد الأمامي وجسده خارج السيارة، فأحست بالعجز عن التنفس وصاحت به بأنها لا تطيق البقاء ولو لدقيقة واحدة، قال كلامًا كثيرًا عن الموقف والناس والظروف الحالية، أدارت السيارة، انسحب برأسه وهو يهمس بكلمات حانقة، لكن في استدارته كان وجهه بالكامل قد تشكل بابتسامة ترحيب وخلفه كان صوت هدير المحرك يضيف ضوضاء جديدة إلى المكان.

25

في اللحظة التي تيقن فيها محمود من فشله وعزم على الاستدارة إلى منتصر لمواصلة تكدير حياته، في هذه اللحظة تمامًا جاءه هاتفها، لم يصدق أذنيه ولم يستوعب بدقة الكلمات، لكنه وجد نفسه يتحرك بآلية شديدة وسرعة فائقة، أدار الهاتف في اتصالات متعددة، وصحبت كلماته كافة أنواع التوسل والرجاء والخنوع والإغراء بالمال أضعافًا مضاعفة، حتى استطاع الحصول على نفس المكان التي زارته فيه، حتى لا يفر الطير من المصيدة، وظل مشدودًا قلقًا حتى موعدها، ثم اكتشف بعد مرور عدة ساعات على الموعد أنه نجح نجاحًا مبهرًا إلى أكثر مما كان يتصور.

قام من جوارها متصورًا نومها، أحست به فسألته وعيناها مازالتا مغمضتين:

- إلى أين؟

مال إلى جبينها فقبّله وشعر بتدفق دمه، وهي تحيطه بذراعيها وتداعب أناملها شعره فانطلق يعيد الكرة، ثم بدأ يحكي من جديد، قال لها كل الذي لم يقله لوفاء وابتلعه في صمت، ووصف أحاسيسه بدقة متناهية، وكيف كان يموت في اليوم ألف مرة وهي بعيدة عنه، وكيف قاوم رغبته في إيقاف الناس بالشوارع، يسألهم واحدًا إثر واحد عنها أو يخبرهم كم يحبها.. وحاذر

بشدة أن يخونه لسانه فينطق باسم وفاء، وجاهد بعنف أن يظل هامش شعوره متيقظًا، حتى وإن أعاد تشكيل ملامحها الخيال وجعلها صورة مكررة من وفاء.. الحذر كل الحذر فما عادت السنوات تحتمل ضياع المزيد، ومن العجيب أنه بقدر انغماسه في حياته الجديدة، بقدر ما انتبه تمامًا لتلك المنطقة بالتحديد، ولم يتوقف أبدًا عن عقد المقارنات، وأراحته كثيرًا هذه العلاقة فقد وجد فيها متنفسًا لمكبوتاته، وخلاصًا من ضيق طالما لازمه، أصبح يخرجه الآن في صور متعددة.. عبارات غزل.. قبلات مجنونة.. أفعال صبيانية، ولم يدرك في حينها أن كل هذه المخرجات ستزيد طريقه الموحول بللًا، وستسقطه في رمال متحركة ليس منها فكاكًا، فما ظنه علاقة عابرة تجاوزت في العمر السنوات، وما اعتقده كلمات فارغة لاستقطابها تمسكت هي به كطوق نجاة، وظنت بل تأكدت من حبه واستقبل قلبها الظمآن حبه بجنون خطير، فأشعلت حياته نارًا لغيرتها الجنونية وتصرفاتها غير المسؤولة، التي وصلت إلى درجة أنها أخبرته باستعدادها لمواجهة العالم كله بحبها حتى زوجها.. وليكن ما يكون، لاطفها وحايلها حتى نجح مؤقتًا في طرد أفكارها الحمقاء، لكن قلقًا رهيبًا رقد في قلبه ساكنًا في انتظار، أجبره على معاودة ترتيب الأمور.

لقد نجح تمامًا في التخطيط لهذه اللعبة، وإمعانًا في الحرص رفض السكن بشقة مفروشة، واستأجر شقة بحي متوسط في ضواحي القاهرة تكون مكانًا للقاء، وافقت على مضض بعد أن أقنعها أن الأماكن غير الفاخرة هي الأكثر ملاءمة لظروفها، فأولاد البلد ميالون للتصديق، والأماكن الفاخرة فخاخ جيدة يستغلها رجال الشرطة والمتحرشون، أشاع في المكان

الجديد أنهما زوجان، وأنها طبيبة بالمنصورة ولا تتواجد إلا في المناسبات والإجازات، ثم مدّها بأعداد من المجلات الطبية وجلب لصيدلية المنزل العديد من مسكنات الأسنان لكي تعطيهم للجيران في حالات الضرورة.

قرأت المجلات في البداية باستخفاف، ثم أعجبها الأمر وراقها فدرست الحالات المنشورة دراسة شبه تخصصية، خرجت منها بأنها مهنة جيدة ومن السهل جدًّا ممارستها بالاستعانة بمقعد آلي و"كلابات" حديدية، ضحك محذرًا أن تطيع جنونها يومًا وتحاول خلع ضرس أي جار فتقتلع فكه، سألته بعد تفكير: أليس من الإحكام لحبكة الرواية أن نأتي بالمقعد والمستلزمات إلى هنا؟ ثم ضحكت ضحكة طويلة، أجهضت قلقه وانزعاجه،ارتاح في هذا المكان لبعده عن منزله الذي أصبح لا يطيق جدرانه ولا محتوياته وكل شيء به يفكره بمنتصر وأبيه ووفاء، كما استطاعت نهى أن تضيف إلى المسكن الجديد بعض اللمسات الجميلة التي اختارتها والتقسيم المثالي للحجرات التي أصرت عليه، ولعل هذا هو الشيء الوحيد الذي حببها إلى المكان، وجعلها تبتلع في كل مرة ضيقها من الازدحام والروائح غير المألوفة وتحديق العيون.

وازنت هذه العلاقة حياته قليلًا، فما عاد ناقمًا على ما فات، ولا خائفًا مما سيجيء، إلا بعض اللحظات القليلة، ويبدو أنه ارتضى هذا المستوى من العلاقات، واعتقد أنه يساوي تمامًا المرتبة الأخلاقية التي نزل إليها أخيرًا، قابل وفاء مرة في إحدى اللحظات القليلة.. لم يرها مصادفة بل ذهب إليها طائعًا مختارًا، وإن شئت الحقيقة انتهز فرصة ذهاب نهى لكوافيرها في وسط البلد وأشار لها بالتوقف أمام المقهى، ثم استأذن في انتظارها حتى

تنتهي من تزيينها، وبرر سلوكه الفجائي بتبرمه من الانتظار بداخل المحل محدقًا في ظهور السيدات وسيقانهن، تبسمت وهي تقول:

- إذن أوصلك للهيلتون.

أصر أن المقهى أفضل، جلس على مقعده يتطلع إلى وجوه غير مألوفة إليه وطلاء قبيح شوه الجدران تقريبًا، وتفحص المحلات المجاورة مندهشًا من مرور الزمن، وهو يحس بإحساس من وقع من دراجته النارية وسط طريق مزدحم بسيارات مجنونة..ما الذي آتى به إلى هنا؟ ليتأكد من أن عهدًا قديمًا قد ولى.. مات الذي مات ورحل من رحل.. أم أن الذي جذبه إلى هنا حنين جارف لم يمحه الزمن.. ودّ لو تجرأ قليلًا واستطاع أن يدفع الكلمات من فمه سائلًا عنها الصبي وفشل تمامًا في إخراج السؤال، تساءل ماذا سيفعل لو علم أنها بكرب الآن؟ أو في السجن..أو متزوجة.. وماذا بمقدوره أن يفعل؟ كل الذي بيده أن يتجرع قهوته ويمضي وقد زاد حجم قيحه قيحًا جديدًا.. تشاغل بنهي.. لعلها الآن بدأت في تقليم أظافر قدميها أو ربما أوشكت على الانتهاء.

قطعت استرساله في أفكاره تحية بيد قوية وأحضان مصحوبة بقبلات. كان رشاد بجسده الفارع ماثلًا أمامه. جلسا يجتران الذكريات وعندما برر محمود غيابه الطويل بالسفر، سرح رشاد بعينيه في اتجاه الأمام فنظر محمود إلى حيث ينظر، وفوجئ بالوفود الآتية من بعيد وفي مقدمتهم وفاء وحسن وآخرون يعرفهم وبعض غير المعروفين، أربكته المفاجأة جدًا كما أربكتها لكنها تماسكت وهتفت بمرح:

- حمدًا لله على سلامتك، ثم اختارت المقعد المجاور له ومضت تسأله أسئلة روتينية عن السفر، وظلت تضحك بسعادة وهي تسمعه يصف المشاق والغرائب التي قابلها.

بدا مندهشًا من سلوكها، سألها عن حالها وهو يقلب بنظره بنصري يديها. قالت:

- الحمد لله.

ثم عرضت عليه الذهاب معهم لحفل نقابة الصحفيين الذي سيحييه بعض الفنانين العرب. اعتذر لانشغاله هذه الليلة وقال بأنه سيحاول لقاءهم قبل انتهاء زيارته للبلاد. ضحكت بصوت قوي حيّره تمامًا، فسألها مندهشًا عن سبب ضحكها قالت ببراءة:

- ألسنا أصدقاء؟

لم يجب، استطردت:

- إذن أين الهدايا التي يأتي بها العائدون من السفر؟

أحس أن السنين أتت فعلها وربما شهور قد قضتها بالسجن أوصلتها لهذه الحالة فبدأ يرثي لها.

قطع حديثهما نفير سيارة أطلت منها نهى بوجه قاس نحوهما ثم أمرته بحدة بالركوب. مدّ يده إليها بالسلام والخجل يكاد يبتلعه. أثارته بسمتها الخفيفة وهمسها له بأنه عرف كيف ينتقي الهدية. دخل السيارة حانقًا مقسمًا في داخله بأنه لن يعود إلى هنا مرة أخرى، بعد أن وصل إلى قناعة بأن هذه

المقابلة الأخيرة قد فصمت كل شيء، حتى الحلم الضئيل الذي ظل سا...
به بأنه سيأتي اليوم الذي يلتئم فيه شملهما.

لأكثر من سنة أحالت نهى حياته إلى جحيم بسبب تلك المقابلة، ولم تقتنع أبدًا بأنها زميلة من الجامعة، وعابت عليه أن يصادق ويزامل فتاة ترتاد المقاهي وتتسكع على الأزقة، وكادت تصل بحماقتها إلى كلمات أوقح ومسميات مبتذلة لولا رؤيتها للشرر الذي يتوارى خلف ناظريه، وأكد لها هذا الشرر صدق حدسها بأن المسألة ليست زمالة فقط، فهددته أكثر من مرة أثناء خلافاتهم بكلمات بين بين، بأنها من الممكن أن تلقي بأصدقائه كلهم إلى السجن.. هؤلاء الشيوعيون الرعاع.. كما استغلت بضع كلمات قليلة كان قد قالها متفاخرًا في بدء علاقتهما عن نضاله وثوريته أثناء الجامعة، وبضع كلمات كانت تسمعها عن ذاك المقهى من الصحف والناس وأتمت الدائرة، وأصبح لها الآن لأول مرة سلاح باتر تقضي به عليه لو تخلى عنها يومًا، فقد أصبحت عاجزة تمامًا عن تصور حياتها بدونه بعد أن تخلل كل قطرة من دمها واستقر بالقلب.

بجهد مضن وصبر كبير استطاع أن ينسيها هذه المقابلة ويتناسى بالمقابل الذكريات، ولأنه من المستحيل أن تحتفظ إلى الأبد بسر مهما بلغت من خداع وتمويه، بدت الآن علاقتهما كصندوق كرتوني مثقوب يربى فيه الأطفال دودة القز، وقفزت العيون الشرهة تقتحم كل الثقوب، فلم تغب عن عينيه التفاتات البائعين بالحي القديم وتلميحات برعي وعلي ومحاولتهما المستميتة فهم سر العلاقة، خاصة بعد أن تصادف ورآهما علي أثناء تجواله بسيارته يتناجيان بحب ووله، كذلك أدرك بحسه الداخلي سر

قلقها وانفعالها الشديدين في الأيام الأخيرة، حتى إنه اعتقد أنه لو وقفت فوق أنفها ذبابة لكان فيها فناء العالم، اضطر لبذل مجهود كبير وملاينة غير طبيعية حتى تأكد من قلقها عندما صرحت له بالأسباب، وبدا ما كان يخيفه في لحظات عابرة، متجسدًا وجاثمًا أمامه الآن.. لقد أحس زوجها بأن في الأمور ما وراءها، فهادنها في البداية وهو يرجوها بأن تخفف إلى حدّ ما من سهراتها التي لا تليق بمركزه الآن، وعندما تمادت ولم تعره انتباهًا، بدأ يضغط بعنف ويتكئ على جراح قديمة لم يزل بها الدم، وفي لحظة ثورة طلبت منه الطلاق، وكأنها فتحت على نفسها أبواب الجحيم، جنّد كل ما يملكه لمضايقتها وتهديدها، ثم استدار مواجهًا الأسرة بأكملها، واكتشفت كم أصبح قويًا، عندما أتتها أمها تبكي على صدرها وترجوها المهادنة للمحافظة على الشكل الاجتماعي، خاصة وأن بيده جميع أوراق اللعب الآن، كما أنه إذا فرضنا وأجابها إلى طلبها ستفقد الكثير، وما تملكه في البنوك لن يكفينا عامين، بينما وأنت معه لن يجد الفقر أبدًا ثقبًا يتسلل منه إليك.. شيء واحد هو الذي جعلها تسمع نصيحة الأم، عندما أخبرتها أمها بأن زوجها قد عرف اسم حبيبها وتحرّى عنه جيدًا، عندها أدركت أن الساعات القادمة حاسمة، وأنها لابد أن تسابق الزمن وتحمي حبيبها من شر علاقات زوجها، وأتاها الحل متمثلًا في الهرب إلى الخارج وترك زوجها يكذب كعادته أسفل القبة، وحمدت الله أن زوجها لم يتنبه لتلك النقطة وترك جوازها المستقل في حوزتها.. فلتهرب سنة أو سنتين ثم تعود تطلب حقها وإلا فضحته، ومؤكد سيرضخ، لكن محمود هو الذي وقف عثرة في طريقها، تحجج بأمه وأخته وحجج أخرى واهية، حتى اضطرها إلى ذكر

السبب، مما أرعده جدًا وهو يدرك بأن كل شيء قد انكشف وأنه من الآن فصاعدًا يجب أن يحافظ على رأسه فوق كتفيه، فوافق مضطرًا وجرت كل الأمور بسرية تامة. ففي يوم شتاء قارس تواعدا على اللقاء عقب منتصف الليل، ثم السفر معًا واحتفظ محمود بتذكرته حتى إذا ما ارتاب بشيء في الطريق لا يتجه مباشرة إلى بيتهما بل يذهب رأسًا إلى المطار.

26

لم يكن عادل موفقًا في بيعته أيضًا هذه المرة، استقبله الرجل بعبوسه الدائم، ثم قلب الملابس بيديه تقليبًا عابرًا، جذب بعدها من الدرج المفتوح ورقة فئة العشرين جنيهًا رماها إليه بقرف، احتج عادل بغيظ وهو يجتهد ألا تعلو نبراته:

- عشرون جنيهًا ثمنًا لحقيبة أغلبها ملابس مستوردة.

حدجه الرجل بنظرة نكراء ثم قال وهو يزيح الملابس من أمامه:

- الباب يتسع لجمل وهناك الكثيرون من أمثالي، اذهب إليهم لترى كم يدفعون، وإذا أعجزك البيع فاتجه إلى سوق الحرامية فربما تجد هناك مشتريًا يدفع أكثر، حاول عادل استقطاب الرجل بمداعبته وتذكيره بالعشرة الطويلة التي بينهما، ثم رجاه وكاد يتوسل إلا أنه لم يكن أيضًا موفقًا، أصرّ الرجل على رأيه وهو يقول:

- بصراحة أنا متشائم منك.. آخر مرة بمجرد أن وضع الصبي مسروقاتك أمامه وبدأ في البيع. هبط رجال المباحث إلى السوق وقبضوا على الجميع ولم نستطع الإفراج عنه إلا بكفالة كبيرة.. بمعنى أن بيعتك جاءتنا بالخسارة.

أحبط عادل بالحكاية الوهمية التي يقولها المعلم ليبخس السعر فاحتج بصوت هامس مبحوح:

- والناضورجية يا معلم.

قاطعه المعلم باستهزاء:

- عميوا يا فالح.. أمر الله.. عميوا يا أفندي.

خرج عادل محبطًا مهزومًا .. مغامرة ليلية قد تكلفه يومًا حياته، أو على الأقل تلقي به في السجن بلا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، وكل هذا لأجل عشرين جنيهًا، عشرة لصاحب السيارة المتبرم دومًا من قلة الأجر، والخوف على السيارة التي لم يدفع فيها قرشًا أكثر من ثمن الطلاء وتغيير بعض ملامحها حتى لا يتعرف عليها صاحبها الأصلي، وعشرة أخرى له يصرف منها على الأسرة إلى أن يفرجها الله بزبون قديم يحتاجه في الكواء أو مغامرة قاتلة أخرى.. أسيظل هكذا طيلة عمره يضحي بحياته في مقابل الفتات، ويتحمل انكسار عيني زوجته ويتنصت إلى دعائها الليلي الهامس بأن يهبه الله عملًا شريفًا؟ للآن يا صباح تحلمين بعمل شريف وقد رأيت منهم مثلما رأيت، ومازالت بعض آثاره على جبهتك تشي بالسر وتقول، وطعمه مازال علقمًا في شفتيك.. ظننت أنك بقفصين من جريد ويضع حبات من الطماطم وأعواد الملوخية، ستغزين السوق وستشترين وتبيعين بالحلال، وبمجرد أن أشترى منك اثنان، فقط اثنان، تحرشوا بك واستدرجوك لنزاع، ثم استراحوا بعد أن كسروا الجريد فوق رأسك، وأنذروك بالدفن في نفس المكان لو عدت مرة أخرى حتى لمجرد الشراء.. عمل شريف آخر يا صباح، نتقافز في السيارات العامة بالإبر والأمشاط، أو نلقي في حجر الناس بالنعناع أو المصاحف الصغيرة.. مازلت تحلمين.. معذرة اكتفي بحلمك للصغار وادعي الله أن يجنبهم سوء المصير..

كانت الشمس قد بدأت تتوارى في الأفق عندما قفز عادل داخل "أتوبيس" كان يتسعد لمغادرة المحطة. تذكر ضرورة الاحتفاء بالضيف،

خاصة أن محمود ليس ضيفًا عاديًا بل صديق قديم يعيده إلى الأيام الجميلة بصحن مسجد شيخون، وإلى الجيرة الطيبة المتسامحة برغم المشاحنات، وإلى وفاء البنت الأصيلة التي طالما وقفت إلى جوار زوجته صباح، في مرضها وولادتها، حتى بدت بجوارها كأم حنون برغم صغر سنها، وكذلك في محاولاتها الجادة لتعليمها القراءة والكتابة، والأكثر من ذلك اعتزازها الكبير بصداقتها، وإصرارها على تعريف زميلاتها بهما بلا حرج، وأشياء أخرى صغيرة في تفصيلاتها عظيمة في معانيها.. محمود هذا. راهنا عليه هو وزوجته دون سائر الزملاء.. هو الأصلح لوفاء.. كانا يبدوان كزوج الحمام الجميل.. ترى ما الذي فرّق بينهما الآن؟ وبه كل الصفات الطيبة التي تجعله أهلًا لوفاء، تواضع شديد وسماحة كبيرة، واستعداد للتعايش في ظل أسوأ أو أحسن الظروف، ومما لا شك فيه أن وفاء كانت تحبه. أدركت ذلك كما أحست به زوجتي بحسها الأنثوي.. ترى ما الذي فرّق بينهما؟ زارتها زوجتي مرة عقب استقرارنا بالدويقة وأدهشها تجنبها الحديث عنه بقدر الإمكان، وإن لم تستطع أن تكبح جماح رعشة هدبيها ورجفة شفتيها وهي تهمس بأنها لم تعد تعرف عنه شيئًا، ومن الغريب أنها لم ترد الزيارة وكأن سؤال زوجتي لها، اقفل بابًا ضخمًا على الصداقة إلى الأبد.. عاودت زوجتي الذهاب إلى مسجد شيخون ففوجئت بغلق المسجد نهائيًا أمام الإيواء، ثم علمت أن كل المقيمين تمّ توزيعهم على المساكن الجديدة، لكنها عجزت عن الاهتداء إلى عنوان وفاء.. لابد أن محمود يعرف مكانها ولكن هل من اللائق أن أسأله؟..لا.. فقد يكون السؤال خاتمة أخرى للصداقة.. يجب محادثته بحذر كما أني لن أسأله ممن يهرب؟ فليس غائبًا عني بما كانوا يتناقشون، سأرحب بإخفاء منشوراته، ولن أتردد في أن أعرض عليه البقاء معنا حتى تنجلي له الأمور. وماذا لو قبضوا عليه عندي؟! سأحاط بهالة من

تكريم تخفي قذارة ما أفعله، وقد يعتقد الجيران أن مغامراتي الليلية بسبب السياسة فيكفوا عن تخمينات السوء.. وقطعًا ما يفعلانه شيء طيب جدًا، فإنسان بهذه الأخلاق وفتاة تملك كل هذه الشهامة والخدمات النافعة. مؤكد لا يفعلان ما يضير.. بل يفعلان ما هو في صالح الجميع.

توقف «الأتوبيس» في محطته النهائية فاتجه رأسًا إلى السوق الكبير وعاد محملًا بخضروات وبرتقال، ليس مهمًا كم صرف ففي المنزل بعض النقود. تحرص زوجته دائمًا على احتجازها لمواجهة الظروف ومحمود سخي وكريم ولابد أن أرد له بعض الجميل، قابلته زوجته بشوق وهي تتفحص المشتريات ولأول مرة لم تعلق بشيء على كل هذا الإسراف، سألها عن محمود، أجابت بحيرة أنه مازال نائمًا لكنه يتفض كثيرًا ويزوم، لم يتحير حيرتها لاعتقاده بمعرفة سبب كل هذا القلق الذي يواجه محمود، ولدهشته الشديدة أبدت ارتياحًا لقراره باستضافة محمود رغم المخاطر المحققة، ثم قالت ببسمة حانية وعين لامعة:

- لعلنا نرد بعض أفضال وفاء.

أيقظته الخطوات العشوائية والحركة الدائبة التي حرصا على كتمانها بقدر الإمكان، لم يفاجأ بغياب الشمس وإن بوغت تمامًا لوجوده بينهما، كان ذهنه مجهدًا جدًا وبدا كرجل فضاء عائد من رحلة طويلة عبر الزمن، أنهكته تمامًا الذكريات وظلّ متحيرًا، هل كان نائمًا حقًا يحلم خلال كل هذا الزمن الطويل؟ أم متيقظًا ينكأ جراحه بسيخ من نار ونصل من ملح؟ أزاح بيده الغطاء الذي دثرته به وهو نائم واستأذن في الذهاب إلى الحمام، وهناك بدأ يعود إلى رشده بالتدريج، عافت نفسه العشاء إلا من لقيمات قليلة ازدردها بذهن مشتت تمامًا، حاول تبرير أسباب عزوفه عن الطعام للزوجة الغاضبة

التي أرجعت الأمر إلى سوء طهيها، أخيرًا تقبّل عادل وزوجته تبريراته لكن باستياء، فشل تمامًا في التركيز فقد كان محتاجًا لوقت طويل، خاصة أن حياته كانت طيلة السنوات الأخيرة أشبه بترس ماكينة يعمل بجنون، والآن توقف، وقبل العودة إلى العمل من جديد لابد من مراجعة الكثير من الأمور والاستقرار النهائي على وجهة الطريق.. هو محتاج للوقت والوحدة وحتمًا لن يجد مكانًا مناسبًا أفضل من هذا المكان لا يقتحمه المقتحمون، لكن كيف يطلب من عادل البقاء دون أن يثير في قلبه المخاوف والشكوك؟ أسعفه ذهنه أخيرًا بالحل.. اتجه إلى التمويه، نظر إلى ساعته وكأنه في عجلة من الأمر، ثم ارتدى ملابسه بين دهشة عادل وزوجته التي سألته بحيرة:

- إلى أين؟ ردّ وهو يوثق الحذاء:

- إلى صديق.. قام عادل منتفضًا وقال بغضب ممتزج بأسف:

- كنت لا أظن أن تخرج هذه الكلمة من فمك أبدًا.

أحس محمود بخطئه واندفاعه فقد كان يجب توخي الحذر، خاصة وهو يعلم تمامًا بمقدار حساسية عادل، اعتذر محمود بندم حقيقي وقال بأنه لا يقصد وأن الكلمة خرجت عفوية، فقد كان ينوي الرحيل فقط حتى لا يسبب لهما أي ضيق، تعاطف عادل مع الكلمات التي استشعر صدقها، فجذب الحقيبة من جوار محمود وهو يقول:

- ستمكث معنا حتى تهدأ الأمور..

ابتسم محمود وهو يقول:

- أي أمور؟

كاد عادل يتكلم لولا أن أسكته زوجته بضربة حانية على الصدر.. أدرك محمود ما يظنانه فقال ضاحكًا:

- لست هاربًا من الشرطة.. صدقاني.

ثم تذكر شيئًا فجأة، فغامت عيناه وهو يستطرد:

- إنما أنا هارب من نفسي.

ولما تركاه بمفرده ظلّ فترة طويلة محدقًا بالسقف، محاولًا تخيل ما تفعله نهى الآن.. لكنه عجز تماما، وإن كان متيقنًا من ردود أفعالها الحمقاء.. قطعًا لن تسافر بدونه.. ولعلها الآن تبحث عنه بكل مكان، وترتكب من أفعال الهوس والجنون ما يزيد الطين بلة ويلوث مياه المحيط.. إنها غلطة عمره. لكن هل أُغلقت أبواب السماء وأُوصد باب التوبة؟

وإن قبل توبته مَن بيده كل شيء، فهل هو قادر على احتمال ما ستجنيه به نهى من غباء وجنون. لأكثر من يومين ظلّ محمود قابعًا بالدويقة يتدبر الأمر، وعندما هيأ له ذهنه الحل الأمثل ودّع عادل وزوجته وداعًا عاصفًا مبللًا بدموع، ورغم تشاؤمه وتوجسه من شجونهما فإن قلبه كاد يتوقف من الانفعال، أعاد له عادل النقود التي دسها في يد الطفل وهو يصر بغضب، اضطر لأخذها وهو يربت على كتف عادل الذي همس له بصوت مرتجف:

- هل من الضروري أن تغادرنا الآن؟

أجابه وهو يمسح على شعر الطفل:

- ضروري فأنا ذاهب لإصلاح بعض الأمور..

فوجئ ببسمة رضا تنبعث من شفتي زوجة عادل وكلمات رطبة تخرج من فمها:

- أرجوك سلّم على وفاء..

وقف عاجزًا عن الرد وعندما التقت عيناهما قرأ في عينيها الكثير.

27

كأنه إنسان آلي تمامًا أو ما يطلقون عليه "ربوت"، سار بسرعة وآلية شديدة في المسار الذي سبق وبرمج عليه دماغه.. أولًا ذهب إلى شقته مباشرة، ولم يفاجأ بالكتب المتناثرة والدرف المفتوحة والأواني الملقاة، بل شعر بإحساس عصفور بليد وقف يراقب من بعيد اعتصار نسر لوكره، ألقى بحقيبته إلى الأرض وغادر الشقة متخذًا نفس المسار، عندما لم يجدها بالمقهى لم ينتظر لكن ذهب مباشرة إلى الأتيليه، خرج عن برنامجه بعض الوقت، قضاه في مشاهدة بعض لوحات من الفن التشكيلي، ثم عاد إلى حديقة الأتيليه يتجرع القهوة في توتر، أخيرًا عثر على شخص من مجموعتها لم يكن بينهما قبلًا كلام، تجاوز حرجه واتجه إلى الشاب، أجاب الشاب على أسئلته بإجابات مقتضبة، كان حاصلها صفرًا.. لم تعد تأتي لا هنا ولا إلى المقهى.. سعد وحسن قُبض عليهما في معرض الكتاب ولا نعلم هل خرجا أم لا.. أعتقد أنها لم تتزوج إن لم تكن قد فعلتها في فترة غيابها. ضجر محمود منه تمامًا ثم أسلم رأسه لكفيه يكاد يقتله صداع ملعون، ظلّ يطحن رأسه بوتيرة واحدة، استأذن الشاب مهرولًا خلف فتاة حتى جلسا بين مجموعة بنهاية الحديقة، كان صوت الفتاة حادًا وهي تلقي بقصيدتها وكانت قوافيها تضرب رأسه بوحشية، بينما بدا الشاب غير منتبه لقصيدتها وإن كان يختلس النظرات إليها، قبل أن يتحرك محمود منصرفًا قرر الشاب

أمرًا ثم اتجه إليه، انزعج محمود من تردده فحثه بقلق على الكلام. تكلم الشاب بخجل بكلمات تبدو عبثية:

- إنها لم تعد تأتي منذ أن لفّقوا لها القضية.

سأله محمود بجنون:

- مَن هم؟ وأي قضية؟

انسابت كلمات الفتى تحرق ولا تذر:

- لم يصدقوا أنها منفردة بالشاعر لمجرد مناقشة قصائده..

جرجروها زحفًا على الدرج حتى أرضية بهو الفندق الذي كان مكتظًا كحاله أيام المهرجان السينمائي.. كل الذين شاهدوا الواقعة قالوا إنها لم تصرخ ولم تبكِ وكل الذي رأوه خلفها بعض الدماء.. أجبروه على مغادرة البلاد والرحيل إلى الأردن، موطن جواز سفره.. لم يبرئها القضاء تمامًا لكنها خرجت بالكفالة والضمان الشخصي..

سأله محمود والطواحين تدوي برأسه:

- أين أجدها الآن؟

أجاب الفتى ببلادة وهو يتابع فتاته على البعد ويتحرك شوقًا لانتهاء القصيدة:

- لا أعرف.

لكن محمود كان يعرف كيف يقلب الأرض حجرًا حجرًا حتى يجدها، اتجه مباشرة إلى الهرم حيث منزل ابنة خالتها ليلى وزوجها مصطفى، فقد

تكون مقيمة معهما أو على الأقل سيعرف منهما أين تقيم. تغيرت ملامح المنطقة قليلًا بمحلات الأسواق المتكاملة والمنازل الجديدة التي زحفت على الرقعة الزراعية زحفًا، فوجئ بعجوز تفتح له الباب وخلفها تطل رؤوس أطفال متفاوتة في العمر، بخجل سألها عن مصطفى، أجابته السيدة وهي توبخ الأطفال بأنها لا تعرف أحدًا بهذا الاسم، ولتأكده من المكان ألحّ بالسؤال. أعادت السيدة الإجابة وهي تعيد تفحصه من جديد، أزعجته نظرات العجوز فشرح لها في عجلة أنه صديق للزوجين وعائد من الخارج منذ بضعة أيام، ويريد فقط الاطمئنان عليهما.. ويعرف إلى أين رحلا بعد أن تركا لها الشقة. سألته العجوز:

- ما اسم الزوجة؟

أجاب بسرعة:

- ليلى.

هزت رأسها ثم استأذنت دقيقة، عادت بعدها بليلى.

سلمت عليه ليلى بحرارة وهي تأخذ بيده حتى يستطيع عبور اللعب والمجلات والأطفال المكتظ بهم البهو، خفت الضجيج بعد دخولهما الغرفة،أغلقت دفترًا يبدو أنها كانت تراجعه قبل دخوله مباشرة، وهي تشير له بالجلوس على المقعد المقابل لمكتبها، قلب نظره بسرعة في المكان وسرح قليلًا في ذكريات ضمتهم داخل هذه الغرفة قبل أن تنقلب إلى ما يشبه أرشيف وزارة عتيقة، سألها:

- ما سبب هذا التغيير؟

أجابت ببسمة ساخرة:

- نظرية المنفعة أطبقها جيدًا.. أحاول أن أعلم الأطفال بعض القيم في مقابل فتات النقود.

استشعر القلق من لهجتها، لكنه لم يستطع منع لسانه من الاستمرار في الأسئلة:

- هل هي فكرتك أم فكرة مصطفى؟

ضحكت ضحكة ممطوطة وهي تقول:

- مصطفى يحتفظ بأفكاره للتليفزيون ولصفحات الأدب والنقد بالصحف والمجلات، وأحيانًا لتنبيه الرأي العام من أخطار الرعاع.. ألم تشاهده أبدًا بالتليفزيون؟

هز رأسه بالنفي، قالت:

- شكله رائع وكلامه ممنطق جميل كملبسه يتناسب مع لقب دكتور.

ثم مدّت يدها إلى مجموعة من المجلات كانت مكدسة فوق رف خلفها فتحت واحدة على مقالة لمصطفى وناولتها له، نظر إلى المقالة نظرة عابرة واستوقفه اللقب برهة، قال مبررا عدم متابعته لشهرة مصطفى:

- آسف فقد قضيت فترة بالخارج وانقطعت عني أخبار مصر.

ضحكت نفس الضحكة وهي تقول:

- كأهل الكهف..

ثم استدركت عندما لمحت تقطيبه وقالت:

- أنا أيضًا كنت في الكهف وعندما أفقت كان قد ضاع كل شيء.

أنهت كلامها ثم بكت بكاءً مرًا وجد نفسه أمامه مدفوعًا لتهدئتها. بعد دقائق تمالكت نفسها وقالت:

- أنا آسفة.

كان قد أدرك من كلامها بعض الحقيقة فسألها ليتأكد:

- أهو تزوج؟

هزت راسها بألم وأجابت:

- مذيعة بالتليفزيون كان يعدّ برامجها.

ربت على يدها المتشنجة الممتدة أمامه وقال:

- لماذا؟

أجابته بنفس البسمة الساخرة وهي تشير إلى الجدران والأثاث:

- اتهمني بالتبديد.. قال إني بعت الثلاجة والتليفزيون وسوار الزفاف.. وكان معه كل الحق فقد بعتهم فعلًا.

هتف في وجهها:

- لماذا؟

ابتلعته إجابتها الساخرة:

- كي أصرف على رسالته للدكتوراه..

بدأ يرتاب في عقلها لكن دموعها الحبيسة أعادته إلى رشده، انحنت رأسه عاجزة عن النظر إليها، جاءه كلامها هامسًا:

- لا تغضب.. فقد فقدته منذ زمن بعيد.. لو تذكر الذي خرج من القسم. لم يكن مصطفى لكن إنسان آخر لا أعرفه، وظللت أكذب على نفسي سنوات وأوصدت الكهف عليّ تمامًا، إلى أن بدأ ينسل مني قطعة .. قطعة، وعندما انتبهت لم يكن باقيًا غير الندم.

تحيّر محمود قليلًا وهو يسائل نفسه: هل الظرف مناسب للسؤال؟ أم يؤجل سؤاله إلى مرة أخرى مقبلة؟ لكن متى تجيء هذه المرة؟ وكل يوم يمر تتعقد حياته وتتشابك. أنقذته من حيرته وهي تقول له بودّ:

- جئت تسأل عن عنوان وفاء؟

هزّ رأسه بخجل، جرت يدها بالقلم فوق ورقة بيضاء، ثم ناولته العنوان، دسه في جيبه يكاد يغلبه الفرح ثم نهض مستأذنًا وهو يعدها بزيارة قريبة، عادت إلى وجهها نفس البسمة الساخرة، استوقفته قبل اجتياز الباب تسأله:

- هل تعرف ظروفها الأخيرة؟

قال:

- نعم.

استطردت:

- وهل أنت مقتنع ببراءتها؟

هز رأسه هزة قاطعة وهو يقول:

- بالتأكيد.

ضغطت على يده بقوة وهي تهمس:

- أرجوك أخرجها من الكهف فلم يعد لها أحد غيرك.

كان المشوار طويلًا مجهدًا من أقصى نقطة بالهرم إلى مدينة تتميز بالصخب تدّعى السلام، وكان لمنازلها ذات التصميم المتشابه أثر مهين للعين، لدرجة أعجزته وأعجزت من بعده الأدلاء عن الاهتداء إلى بيتها، وزاد الطين بلة أن ليلى لم تكتب رقم المنزل، واكتفت باسم الشارع وبعض الرموز للاهتداء، وكانت هذه الرموز أكثر من متشابهة، وأخيرًا أتى طوق النجاة من حيث لا يحتسب متمثلًا في طفلة صغيرة لا تتجاوز العاشرة، اندست وسط حيرتهم وعندما استمعت لأوصافها منه أشارت بيدها الصغيرة إلى نهاية الشارع، ثم ارتفعت يدها شيئًا فشيئًا كعوامة خزان المياه إلى أن استقرت عند نهاية طريق أحد المباني قالت بعد ذلك: أبله وفاء ساكنة هناك..

أكلت قدماه الدرجات الحجرية حتى وصل إلى الطابق الأخير، وتحيّر قليلًا أمام باب الشقتين أيهما يبدأ بطرقه؟ اختار الشقة اليمنى الأقرب إليه، اقترب من الباب، تصاعدت دقات قلبه مع صوت فيروز المتسلل إلى أذنه

عبر الباب الخشبي.. "ردني إلى بلادي". طرق الباب بعد تردد لخشيته من المواجهة، بوغتت تمامًا وهي تراه فسقطت من يدها قطعة القماش البالية، وارتجفت لحظة ثم تماسكت ولم تتكلم، إنما أشارت له بترحاب ليدخل، أسرعت إليه بمقعد وضعته في مواجهة منضدة الكواء حيث كانت تكوي، صبّت له كوبًا من الشاي من ترمس كان بجوارها بعد أن خفضت صوت المسجل قليلًا، ظلت تفرد وتلملم ثوبها أسفل المكواة وهي تختلس إليه النظر. سألها إن كانت تنوي الخروج وهو يرنو إلى ما تفعله أجابته بابتسامة: إنها فرصة للاستفادة من يوم معتدل هكذا في موسم الشتاء. أطرق برأسه وهو يعزيها في وفاة والدتها معتذرًا عن تأخره. قالت بحياد: السنوات تمر بسرعة.

قال إنه داخ كثيرًا حتى عثر عليها. قالت ورشاش ماء يندفع من فمها فوق الثوب:

- لماذا؟

ثم أضافت بسخرية:

- لو أشرت بسبابتك لجئتك مهرولة.

ابتلع سخريتها وهو يكاد يتوسل أن تستمع إليه بانتباه فقد يكون هذا هو آخر لقاء بينهما. استمرت في الكواء وهي تومئ له برأسها أن يتكلم، قام منتفضًا ونزع المشترك الكهربائي فاصلًا المكواة والمسجل، ثم أزاح من أمامها لفة الملابس المبللة. نظرت إليه مندهشة وهي تقول:

- تكلم.

سكت لحظة مستجمعًا أفكاره منزعجًا من ثورته المنفلتة، ثم نطق بصوت متهدج وحروف متآكلة وبدا صوته خارجًا من قبو أجوف بعيد.

أنصتت إليه باهتمام مفتعل، ثم ضحكت ضحكة عالية عندما ختم كلماته، قال بأسى:

- تهزئين من كلامي!

قالت:

- بعد كل هذه السنوات تأتيني بنفس العرض؟

احتج قائلًا:

- ليس نفس العرض لو قبلت بي سنبدأ معًا قدمًا بقدم وكتفًا بكتف.. محمود المتخاذل انتهى منذ سنوات.

شردت نظرتها قليلًا ثم انتبهت فعادت تقول بنفس السخرية:

- هل طردتك السيدة؟

احمرّ وجهه من الغضب وبرغم ذلك لم يتكلم، فقط كان يستمع إلى استرسالها المملوء بالأسى:

- هل تعتقد أني صدقت كذبتك عن السفر؟.. كانت تأتيني أخبارك رغمًا عني وأحيانًا برغبتي، وعشت طويلًا والحلم مازال داخلي أن تعود كما تمنيت دائمًا أن تكون.. تصهرنا نفس البوتقة.. وصدقت كلماتك عن حسن ورشاد، وبدأت التخوف منهما واعتقدت أيامها أنهما يدسان عليك، حتى يتلاشى الخيط الذي بيننا، وكذبت على الآخرين الذين ليست لهم مصلحة

في خلافنا، والذين كانوا يقسمون بمشاهدتكما كثيرًا.. في السيارة.. وهي تنتقي ملابسك.. في المطاعم الفاخرة عبر الزجاج الملون.. كذبتهم كلهم وكنت أبكي ليلًا على صدر أمي التي ماتت كمدًا وهي تحلم بأن تراني كسائر الفتيات زوجة..وكنت على استعداد لتكذيبهم إلى الأبد وانتظارك إلى ما لانهاية، حتى اللحظة التي رأيتك فيها عائدًا إليّ وهي بعدك تتبعك لتنهي كل صراعاتي مع النفس.. حقيقة ذوقك ممتاز وانتقاؤك مبهر.. كل من رآها شهد لك بهذا.. أشكرك كثيرًا لأنك أدخلتني في مقارنات معها وهذا شرف كبير لي..

توقفت الكلمات بحلق محمود وأحس أنه داخل صراع غير متكافئ، فهمس بعد جهد:

- دعينا من كل الذي مضى واعتبريني تائبًا جاء يطلب المغفرة وهو يتمسح ببابك.

صرخت بحدة وصوتها يكاد يبكي:

- أنا لست قديسة كما تعرفني وما قلته هونهاية كل شيء.

قام مترنحًا وخرجت الكلمات أكثر منه ترنحًا:

- هل من الممكن أن أعتبر نفسي صديقًا؟

أجابت بلا تردد:

- الصديق من يتلوث حذاؤه معنا ويقتسم خبزنا وينام بيننا يحلم بغد أفضل.

خرجت الكلمات من فمه بسرعة وتوسل يصل إلى حد الاستجداء بعروض لمدى خدماته:

- لي أصدقاء ذوو أهمية.. قضاة ومحامون.. اقبلي مني المساعدة بأي صفة.. اعتبريني حتى مجرد زميل قديم..

شردت قليلًا ثم هزت رأسها وهي تقول:

- كنت تعلم بالقضية!

أجابها بسرعة:

- وأعرف إلى أي مدى يلفقون. ضحكت وهي تقول: وهل تظن أن الأمر كان ملفقًا؟ لهم شهود وأنا أيضًا لست قديسة.

صرخ في وجهها:

- اصمتي اصمتي..

لكن برغم صراخه كانت كلماتها تصل إليه:

- مازلت تعيش منعزلًا رغم مرور كل هذه السنوات، تتغير وتظن أن العالم كله يراك من حيث تراه، كذبتهم دون أن تسألني التفاصيل، ليست في الأمر ثقة كما تدّعي لنفسك، بل رغبة قوية في الإفلات من وحل مازلت تغرق فيه، وغدًا عندما تموت الحكاية، ستتجسد في خيالك تفاصيل غير التفاصيل وستعاملني بنفس تعاملك مع وحلك القديم.. هل تصدقني يا محمود لو قلت لك إن المحامي أكد أن زواجي ينهي القضية؟ وبرغم ذلك أرفض عرضك الكريم.

لا تدري إلى أي مدى ظلت ساكنة بعد رحيله لكنها ولأول مرة منذ زمن بعيد وقفت تنظر إلى المرآة بتمعن،وتتأمل التجاعيد التي بدأت تكسو العنق وتظهر أسفل العينين، لم تحزن ولم تكتئب بل غنّت فقط أغنية حزينة تردد صداها وسط السكون الذي كان يملأ المكان، ولم تلبث أن تذكرت مقطعًا من قصيدة لحجازي كانت على ما تقول:

كأنها مغنية

لم تلفت أنظار المقهى

فغنّت وحدها

لحنًا

بغير معجبين

28

جاء صوتها هادرًا لاعنًا عبر أسلاك الهاتف، لم تجدِ كل محاولاته لتهدئتها، طلبت أيضًا تفسيرًا سريعًا لأسباب تراجعه عن القرار، قال في دعة واستسلام: إن الأمر ليس تخليًا عن القرار، ولكن هناك أسبابًا خطيرة أدت إلى تأجيله فترة قصيرة. رفض الإفصاح في الهاتف، سألت بتوتر:

- إلى متى سيتم التأجيل؟

أجابها بصوت اجتهد في إخراجه هادئًا:

- ليس أكثر من يومين..

لم يخف عليه آثار الغضب والثورة المبلل به صوتها، اضطر إلى ملاينتها بشدة فطلب منها الحضور بشريط التسجيل الذي طالما تراقصا على أنغامه، ثم طلب أيضًا كعادته السمجة ألوانًا معينة من ملابسها الداخلية. أتاه هذه المرة صوتها مصحوبًا برغبة متأججة:

- نتناول العشاء بالخارج قبل اللقاء.

اعترض بإصرار مدّعيًا عدم رغبته في إضاعة الوقت بالخارج بعد أن افتقدها كثيرًا طيلة الأيام الماضية. لم تكف عن إلقاء اللوم عليه، اضطر أن يعيد القول والكذب بأن أشياء خطيرة حدثت في محيط أسرته وعندما يلتقيان سيشرح لها الأمر بالتفصيل.

هدأ محمود بعض الشيء عقب المكالمة، وإن ظل يجهد ذهنه في اختلاق مبرر قوي يقنع نهى بسبب تراجعه.. قال إنها أسباب تتعلق بأسرته، ولكن أين أسرته الآن؟ استقطبهم منتصر للإقامة بالمنزل الجديد وأصبحوا لا يتواجدون هنا إلا نادرًا.. أم متعلقة بابنتها الممسكة بذيل زوجها، ونفضوا أيديهم منه تمامًا يأسًا أم اضطرارًا.. ليس يدري؟ سيذكر لها أول خاطر يمر بباله، فلو استمر في التفكير هكذا سيُدمر عقله تمامًا ومازال خنجر تقطر منه الدماء مُغمَدًا في ظهره.

مضى يتجول داخل الشقة ببلادة، ثم وقف أمام النافذة يرقب أسراب السيارات المارة في بطء السلحفاة ساعة الذروة، فاجأه من خلفه رنين جرس الباب، أعدّ نفسه لمقابلتهم بوجوم بمجرد فتح الباب، بوغت تمامًا وبرعي منتصب أمامه، عاتبه برعي كثيرًا لانقطاعه عنهم، وهو يقول بأنهم اصبحوا يفتقدونه بشدة أثناء سهراتهم. حرص محمود على ألا تطفو فوق وجهه سحب القرف والغضب المختزنة، فقد أزعجته زيارة برعي واقتحامه المريب للمنزل.. ماذا سيظن السكان به؟ وهم يرون الحثالة التي بدأت تزوره.. أحس برعي بأن زيارته كدّرت محمود فحاول أن يبرر سببها فادّعى أن هناك أخباراً مهمة يود أن يسرّ بها إليه، لذلك بمجرد أن لمحه يتطلع من النافذة لم يستطع الصبر والانتظار إلى أن يراه بالشارع وهرول بالأخبار إليه.

قال محمود برتابة وعدم تصديق:

- أي أخبار؟

لعق برعي لسانه وسوّى ياقة جلبابه، ثم قال بابتسامة لزجة:

- السيدة سألت عنك.

أتت إلى محل صلاح وأنا وعلي متواجدان به وسألت عنك بإلحاح.. أشار صلاح إلينا وهو يخبرها بأننا نعرف كل خطواتك، لم تقتنع بأننا نعرف عنك كل شيء، وكان من الواضح أن أمرًا خطيرًا قد حدث لها، وأنها بحاجة إلى معونتك، لم تبح لنا بشيء، ورمتنا بنظرة زاجرة عندما ألححنا.. أتيتك بالمنزل ولم أجد أحدًا وتملكني القلق.. أخبرت علي بالبحث عنك في كل أماكننا السابقة، ولم يعثر عليك، وعندما لمحتك لم أتمالك نفسي وهرولت إليك.

شكره محمود وهو يتجه إلى المطبخ، ثم عاد بعد قليل وبيده صينية عليها كوبان من الشاي، ناوله أحدهما وهو يسأله أسئلة روتينية عن علي وصلاح والآخرين. أجاب برعي وعيناه تمسحان أثاث الشقة، وتتوقف أمام المقتنيات الكهربائية الحديثة، ثم أنهى كوبه وسأل محمود بخبث: ألن ترجع سهراتنا الجميلة؟ أجابه محمود بصوت اقترب كثيرًا من الحدة أن لديه أعمالًا كثيرة تأخذ كل وقته..وعندما يجد فراغًا متاحًا سيسهر معهم بالتأكيد. قال برعي بسرعة: بالطبع فكلنا نعرف أن أعمالك الآن كثيرة وجميلة بل وفي منتهى الجمال.. احتدّ محمود بشدة وقال له:ماذا تقصد؟بابتسامة عاهرة قال برعي: إنه لا يقصد شيئًا بالتحديد ولكن الصداقة تفرض أن نقتسم الحلوة والمرة.

أدرك محمود أن هذا اليوم لن يمر بسلام، وحاول جاهدًا التماسك وهو ينصت لبرعي، الذي فتح فجأة بئر الذكريات العفنة وجذب بحبل قذارته القيح والصديد.

- أتذكر كيف كنا نحملك على أكتافنا وأنت تسب الناس وتمطر بصاقك الأرض؟.. أتذكر صياحك بالرجل الذي يقوم بالشواء بأي ذنب أدخل الدجاج النار؟ وارتعاد الفتى وزميله وهما يسلمانك جوازي السفر وبكاؤهما في جنون، توسلا لك بألا تعلم سفارة بلديهما باصطحابهما للغواني والعاهرات.

ومائة ذكرى أخرى مريرة من جهة محمود، ومثيرة للسخرية والضحك في عرف برعي، ظلّ الوقح يصبها نارًا سائلة في أذن محمود، وعندما انتهى لتوه من اجترار الذكريات، تطلع إلى محمود ببسمة مرابي مخضرم انتهى لتوه من سرد قائمة الحساب متظرًا بشوق لحظة السداد، وكان محمود قد انتبه تمامًا لهذه النقطة خلال حديث برعي الطويل، وأحس بالعجز التام على مواجهة ما تخبئه الأيام من أحداث متلاحقة لم تخطر له أبدًا ببال، وخمن أن الذي جاء ببرعي لا شيء سوى المال، كشفته عيناه وهو يتأمل أثاث الشقة، وأنبأت عنه معاملات سابقة كانت تتميز بالجشع والابتزاز. ارتاح محمود قليلًا لهذا التخمين فسأله مباشرة في محاولة لاختصار الطريق: ما أخبار التجارة والسمسرة .. تنهّد برعي تنهيدة طويلة وهو يقول:

- فاشلة تمامًا هذه الأيام.. كل الناس دخلت اللعبة، حتى الطلبة الصغار بمجرد أن يتخرجوا لا يدري أحد من أين يجيئون بالأموال التي يفتحون بها مكاتب التصدير والاستيراد؟ ويتداخلون في كل الأعمال بما فيها أعمالنا.. بارت الأعمال.. واقتربنا من الإفلاس فالناس بطبعهم ميالون للمتعلمين وأصحاب الشهادات. أراد محمود الإمساك بطرف الخيط

فتدخل عارضًا خدماته وقال لبرعي إنه سيكلم منتصر زوج أخته لكي يساعده في بعض التوريدات التجارية لمحله.

ضحك برعي ضحكة سخرية واستهزاء وهو يقول:

- لا داعي لإخباره فما اعتدت أبدًا تجارة الورقة والقلم.

سأله محمود مندهشًا:

- وكيف تعالج أمورك الآن؟

بالبسمة التي تبقت من ضحكاته الأخيرة أجاب برعي:

- ببعض الأمور الصبيانية مثل أيام زمان.

هز محمود رأسه ناويًا أن يقدم بعض المال لمساعدته وتحجيمه لو لا أن خرج سؤال من فم برعي دمر هدوء الغرفة:

- ما أخبار السيدة الآن؟

امتلأ محمود بالغضب لكنه لم يتكلم، فقط ظلّ ينظر إلى برعى المنطلق في الكلام غير عابئ بما يحدثه من تأثير:

- مسكينة جميلة وبنت ناس، لكن من يقدّر مثل هذا الجمال والزوج لا يهتم إلا بالأرض والعضوية.. صدقني لم أكن أتصور أنك بكل هذا الحذق والمهارة، كنت أظنك مجرد تلميذ يريد أن يطاول الكبار بالجلوس في البارات، إنما الآن أعطيك لقب الأستاذية بجدارة.

خاطبه محمود بحذر:

- يبدو أنك فهمت بعض الأمور خطأ.

أشاح برعي بيده بما يفيد أنه محصن ضد جميع أنواع الخداع ثم قال:

- لا داعي للإخفاء فنحن صديقان، وثق بأني أفرح للخير الذي تناله كأني نلته بالضبط، ثم إن كل الحي يعلم سيرتها.. صحيح لم يتجرأ أحد على الاقتراب منها غيرك، إلا أن أمورها لم تكن خافية على أحد.. لا تغضب مني أنا أصدقك القول بحكم الصداقة التي جمعتنا.. على العموم لا داعي للدخول فيما يغضب إنما جئتك من أجل "البيزنس".

كادت تطفو بسمة سخرية فوق شفتي محمود رغم تكدره، من طريقة نطق برعي للكلمة باللغة الإنكليزية وهو يجهلها تمامًا.

ابتلع محمود مراراته ثم سأله في حيرة:

- أي «بزنس»؟

تمطى برعي بجسده القوي ثم أراح ظهره للأريكة وبدأ في الكلام:

- أنت تعلم أن السياحة بدأت تتحسن من جديد، وجاءت بالعديد من الأثرياء الحقيقيين، وليسوا كطلبة الماضي وهؤلاء الأثرياء لا يتواجدون إلا بالفنادق الكبرى والمطاعم الفاخرة، ولكي يدخلوا الفخ لابد من طعم جيد، يجعلهم يدخلون بأعين مغمضة وقلب آمن وكل الذي علينا هو الانفراد بهم في شقة، اترك لي تدبيرها، ثم تدخل أنت كضابط بصحبة بعض المخبرين المزيفين ونمارس اللعبة القديمة ولا تخف من شيء هذه المرة، فأولئك أشد جبنًا من الطلبة ويرتعدون من زوجاتهم أكثر من عزرائيل.

قام محمود مشتعلًا بالغضب، لكنه تماسك برغم إدراكه إلى أي مدى سيقوده هذا المعتوه، أصر على سماعه إلى النهاية حتى يتيقن تمامًا من جنونه، قال له محمود بارتياب:

- وما هو الطعم الجيد في نظرك؟

أجابه برعي بسرعة وكأنه يلقي بجوربه للغسيل:

- السيدة طبعًا، فبجمالها وأناقتها لن تصيد لنا إلا العتاة، وممكن أن نعدل في التخطيط بدلًا من أن تمثل دور الضابط تمثل دور الزوج المخدوع، وقطعًا سيضطرون للهرب تاركين خلفهم كل غالٍ وثمين..

جذبه محمود من ياقة جلبابه محاولًا إنهاضه فعجزت يداه، تطلع إليه برعي مندهشًا ثم قام متحيرًا، وعندما التقى الوجهان لطمه محمود بأصلب ما في أنامله، ولما همّ بمناولته اللطمة الثانية، أمسكه برعي من يديه بغضب وبعنف، وألقاهما بجانبه وقال له من خلال الرذاذ المتطاير من فمه إن أمامه فقط ثلاثة أيام للموافقة وإلا سيتجه بعدها للزوج يخبره بكل شيء.. وعنده من البراهين ما يقنعه ويقنع الآخرين.. ثم أردف برعي ببرود بأنه لن يرد اللطمة لأنه لايزال يضع حسابًا للعيش والملح.

جلس محمود فترة واضعًا رأسه بين كفيه، عاجزًا عن التفكير في أي شيء أو حتى فعل أي شيء، وهو يحس بأن هامش شعوره ما عاد يحتمل المزيد.. كلما قابلته مشكلة ألقاها به حتى أصبح كبالون على وشك الانفجار.. آه لو يقدر على مواجهة نفسه.. مواجهة أبيه.. مواجهة وفاء.. مواجهة نهى.. مواجهة برعي.. مواجهة أي شيء..

جرى مهرولًا إلى الغرفة، كان والده مازال معلقًا هناك بجلبابه وعصاه، مدّ يدًا مرتعشة والتقطه ويقدم ذات عزم من حديد، ظلّ يضرب الإطار بعنف مجنون، وهو يرقب تناثره بعين زجاجية وقلب من جليد.



29

بنظرة متفحصة للسماء، أدرك محمود أن كل شيء قد تحالف ضده بما فيه المناخ، كان الغيم قد تكاثف والتحم وتحول لونه إلى ما يشبه الرماد، وبدأت النسمات الباردة الحادة كالإبر تهاجم الأجسام وتستوطن العظام، عبر بصعوبة الشارع التي تجري عرباته في سباق مجنون، للاحتماء بأسرّة دافئة في مواجهة الصقيع، لم يتعجب من تلبد الجو فجأة في غضون بضع ساعات، إنما قارن بينه وبين حياته التي تعاقدت وتشابكت ككرة الصوف في يد قط صغير.

عرج على الصيدلية ودلف من بابها نصف المفتوح، تبادل عدة كلمات مع الصيدلي وجاهد كثيرًا أن تخرج الكلمات بمرح، داعبه الصيدلي وهو يناوله الشريطين وللمعرفة القديمة التي كانت بينهما نصحه بهمس:من الأفضل أن تنام طبيعيًا فكل الأقراص لها تأثيرات كيميائية ضارة بالجسم هذا فضلًا عن أن إدمانها يسير.. لذلك أُدرجت في جداول المخدرات.

· قال محمود كتلميذ مطيع إنه لا يستخدمها إلا في حالات الضرورة عندما يستبد به القلق والإجهاد، ثم طلب بصوت رقيق حقنة بلاستيكية ادّعى أنها من لوازم علاج الوالدة، لفّ له الصيدلي الطلب وهو يرجوه بإيصال تحياته إلى الوالدة وسلامه الخاص إلى منتصر. وأن يسأله لماذا تأخرت توريدات

مستحضرات التجميل؟ تعجب محمود من قدرة هذا الأخطبوط منتصر وتغلغله حتى في تجارة أدوات التجميل.. لقد أهمله في الفترة الأخيرة تمامًا ويبدو أنه تمطى وامتد وأصبح الآن يماثل في حجمه التنين.

بمجرد أن خرج من محل البقالة حاملًا مشترياته فوجئ بوابل المطر الكثيف، قبل مساومة سائق سيارة الأجرة لتوصيله في هذا الجو العجيب، نظر إلى ساعته بمجرد دخوله الشقة كان لا يزال باقيًا على موعده ما يقارب الساعتين، اجتهد كثيرًا في إزالة ما أمكنه من آثار العدوان وهو يركز تركيزًا خاصًا على غرفة النوم، حتى جعلها أقرب ما تكون إلى سابق عهدها، التقط الكتب المتناثرة في البهو وسوّى بقدر الإمكان المكان، وفي المطبخ، كان العمل أكثر جهدًا وتعبًا، عقب انتهائه من التقاط الأواني والأكواب والصحون وفرز السليم من المكسور، أعدّ لنفسه كوبًا من الشاي وجلس يلتقط الأنفاس، أراحه هذا الجهد البدني من التفكير، والآن عليه مواجهة أصعب ما في الموضوع لحظة لقائها، ثم تنفيذ ما استقرت عليه خلايا مخه المنهكة.

تناول من اللفافة علبة الحليب المغلفة بغلاف كرتوني جميل ووضعها أمامه على منضدة المطبخ الرخامية، أخرج من جيبه شريط الأقراص ومضى يفرغه بعين زائغة على السطح اللامع، تناول هونًا صغيرًا كان قد وضعه بجواره، وظل يطحن الأقراص حتى أصبحت في نعومة سكر الكعك، ثم مزجها بالماء في كوب زجاجي، وسحب المزيج بسن الحقنة حتى امتلأت وبيد مهتزة عصبية أمسك بصعوبة علبة الحليب، وبإبهام أشد توترًا رفع المثلث الصغير الذي بجانب العلبة عند انتهاء اللحام، وغرز به

سن الحقنة مفرغًا محتوياتها في علبة الحليب، وظلّ يكرر نفس الخطوات حتى انتهى المزيج وأنزل المثلث الصغير، ثم قرب العلبة من عينيه، وهو يتأملها بعين إنسان غائب عن الوجود مرتاح تمامًا لما يفعله غير متذكر من أين استمد هذه الطريقة.. من الكتب.. أم الجرائد.. أم الأفلام.. غير عابئ بالنتائج مهما تكون.

لم يكرر نفس الخطوات الرتيبة بالنسبة للشريط الثاني إنما فقط طحنه بعجالة ثم دسه في ورقة صغيرة طبقها بعناية وخبأها أسفل علبة التوابل.

تجمد في ذهول وهو يسمع صوت صرير المفتاح يشق غمارالسكون، ثم تطلع إليها بنفس الذهول وهي تقتحم عليه المكان، ألقت بحقائبها أرضًا وجرت إليه تقبّله بمرح، ثم تعانقه بجنون، كادت يدها تقطتع شعره، أحس بمرور يدها على جسده أشبه بمرور قاطرة من حديد، وبدأ يختنق تمامًا من "برفانها" المميز وقبلاتها المحمومة، كما فوجئ بقطرات الدموع، ربت على ظهرها بحنان، ثم حملها من خصرها إلى غرفة النوم، وهناك جفف دموعها واستأذنها في إحضار الحقائب، سألته بدهشة عن سبب جلوسه بالبهو، أجاب بصوت أجوف:

- كنت أنتظر وصولك.

ضحكت ضحكة صافية لكن لم يلبث أن كدرها خاطر فعادت تسأله باستجواب محقق سمج:

- اذكر لي الآن فورًا ما هي الأمور الخطيرة التي جعلتك تؤجل السفر وتختفي كل هذه الأيام؟

اقترب منها بصمت وأقعى على ركبتيه يداعب بيديه أذنيها، ثم قبّلها في الفم بوله، وهمس بصوت كابد كثيرًا حتى يجعله رقيقًا :

- دعينا اليوم نستمتع باللقاء وغدًا صباحًا أخبرك بالتفصيل.

اعترضت بعنف مبالغ فيه وهي تبعد يديه وتقول:

- الآن تقول لي ولن تلمسني قبل أن تقول.

انسحب أمامها بانكسار وخرجت الكلمات من فمه حانقة:

- سأدفع قيمة التذاكر الملغاة وجميع التكاليف والخسائر. قامت متفضة من الغضب بعد أن جرحها تمامًا، وكادت تعنفه لولا حزن غريب وجدته راقدًا في عينيه، جرت إليه ثم ألقت بجسدها عليه، وهي تدفن رأسها في صدره شبه باكية وتعاتبه بعتاب رقيق:

- هل تقيس القلق عليك بالربح والخسارة؟ كاد يقتلني الخوف.. تصورت أن زوجي أضرك.. سافرت إليه هناك ووجدته مشغولًا باجتماعاته.. كدت أصرخ بوجهه سائلة عنك لولا بقية من حذر لا تزال بي.. عدت أنتظر بجوار الهاتف بعد أن سألت عنك حتى حجارة الطرق، إلى أن تكلمت، وأقسم بأغلى ما لديّ لو كان اتصالك قد تاخر يومًا واحدًا لفتكت بزوجي معتقدة بأنه السبب..

أنت لا تعلم ماذا فعلت بي الأيام الماضية، وإلى أي مدى اكتشفت كم أحبك، وأقسم أنه بعد الآن لن يفرقنا إلا الموت..

داعب محمود بيده ظهرها وهو يقبّل شعرها، ثم أبعد برفق رأسها من فوق صدره، نظر طويلًا إلى عينيها،أدهشتها جدًّا نظرته وكلماته التي كانت تؤكد كلامها:

- فعلًا لن يفرقنا إلا الموت. ولم تدر أتفرح لتأكيده، أم تترك نفسها فريسة لقلق مصدره عيناه الغائمتان؟

جاءها بالحقائب وهو يقول بصوت حاول أن يجعله متزنًا:

- آسف لم أقصد جرحك بكلماتي، أنا فقط أردت تأجيل سرد التفاصيل لأن تذكرها يكدرنا.. وقد افتقدتك كثيرًا ولا أريد ضياع بهجة اللقاء في سرد المنغصات. ارتاحت لكلماته، لذلك ظلت تفتح الحقائب بمرح وهي تريه ما انتقته من ملابس ومغريات، جلب المنضدة الصغيرة ورص عليها طعام العشاء، حاولت مساعدته لكنه قال بابتسامة:

- إن كل مهامها اليوم أن تبدو كملكة ويأتيها هو بطعامها إلى السرير.. ترضية لما عانته في هذه الأيام الأخيرة. قالت وهي تضحك ضحكة طويلة:

- الملوك لا يأكلون في السرير.. المرضى فقط.

قال متجاوبًا مع ضحكتها:

- إذن اعتبري نفسك مريضة وأنا الطبيب ألم تملي من تمثيل دور الطبيبة؟

جاءته مهرولة وعلى وجهها ضحكة طفلة، تشكو من برودة ماء الصنبور. ثم اندست في الفراش وهي تقول:

- لا يزال المطر مستمرًا ويبدو أنني سأظل معك حتى الصباح، اندس بجوارها بينما امتدت يده لإطفاء المصباح. امتد اللقاء فترة وعندما أحس بها وقد همدت تمامًا، قام وأشعل مرة أخرى المصباح، داعبها ضوء المصباح ففتحت عينيها ورأته، نظرت إليه نظرة طويلة، ثم طلبت منه أن

يجينها لتخبره بشيء، وعندما أتاها تعلقت برقبته حتى كاد يختل توازنه ويسقط بجوارها، ومضت تقبّل جسده بلا استثناء، قال:

إنه كان ذاهبًا لإحضار الحليب، قالت وقبلاتها تبلله:

- ألا تنسى شيئًا أبدًا؟

ثم قامت خلفه منتشية غير مهتمة بالبرد ولا الصقيع، وتناولت منه العلبة وارتشفت رشفتين، ثم التصقت به مرة أخرى كما يلتصق الشريط اللاصق بالورق، طلب منها أن تشرب باقي العلبة فقالت بدلال:

- ليس الآن.

ثم تناولت إصبعًا من الموز ظلت تلوكه وتمضغه بشهية، كانت لاتزال بملابسها الداخلية، ولا أثر للبرد غير ارتعاشة ضئيلة غير ملحوظة، وكان قد أدرك أن الأيام القلائل الماضية جعلتها أشبه بالأرض البور التي لا تكفيها جرعة ماء واحدة، طلبت أن ترقص ومضت تتلوى بشبق جنسي وحركات أقرب إلى الفجور. طرد الذكريات المريرة التي عاودته وجذبها من يديها، وفي محاولة للتناسي ارتد كثور هائج مفلوت، وعندما قام من فوقها ابتلعته تمامًا بسمة الرضا المحفورة فوق شفتيها، وبجهد جهيد تماسك وهو يضع رأسها فوق صدره ويسكب بين شفتيها الحليب، كانت نظراتها لاتزال لامعة وسعيدة وهي تنظر إليه بوله شديد. ألقى بالعلبة جانبًا ثم قبّلها في وجهها قبلات مبللة حنونة، بكى بعدها بصوت متقطع كتلميذ فقد أبويه. سألته:

- هل تحبني كل هذا الحب؟ أومأ بالإيجاب. استطردت وهل تقسم ألا يفرقنا شيء إلا الموت.

أجاب وصوته مازال يغلبه الحزن:

- مؤكد لن يفرقنا إلا الموت.

عقب عودته من الحمام كانت قد نامت تمامًا، حاول إيقاظها أكثر من مرة لاختبارها ولم تجبه إلا بهمهمات واهية، ذهب إلى المطبخ ثم ملأ الحلة الكبيرة بالمياه وأشعل "البوتاغاز"، عاد إليها مرة أخرى وجردها من ثيابها الداخلية، ثم تخلص من ثيابه أيضًا ووضعهم جميعًا في الحلة التي فوق النيران، سكب عصير البرتقال في كوب زجاجي ومزج به الأقراص المسحوقة ثم تجرع الكوب بسرعة، هرول إلى جميع أنحاء الشقة للاطمئنان على مدى إحكام غلق جميع المنافذ، ثم أدار مفتاح الغاز إلى أقصى ارتفاع بعد أن ترك باب المطبخ مفتوحًا بالإضافة إلى باب غرفة نومها، رقد فوق جسدها العاري ودس وجهه بين ثدييها.

كان الغيم قد تكاثف جدًا وامتد حتى دخل الغرفة، ولم يجد مهربًا إلا في السقف، فتعلق جسده العاري بالمصباح محتملًا بصبر حرارته الشديدة. ظلّ الغيم يطارده، وعقله يعمل في جنون باحثًا عن ثقب للنجاة في كل الاتجاهات، نظر إلى أسفل، كان جسده ما يزال راقدًا محتضنًا جسدها، وأزعجه جدًا أن يرى الناس أليتيه، فحاول بقدر ما وقع فيه من قوة استنفدها المصباح النزول لستر جسده وفشل تمامًا فقد كان هناك دائمًا فاصل بين جسده والمصباح.ومن العجيب أن هذا الفاصل كان يمتد ويمتد حتى أصبح جسده يبدو كنقطة في المحيط، وعندما أعجزه فشله أغلق عينيه في سكوت وإن كانت لا تزال تلسعه حرارة المصباح.

انتهت

[illegible] فوق يديه تقبلها في رجاء، [illegible]

والشجون، أرهقته تمامًا لدرجة دفعته إلى دفع رأسها إلى حافة السرير بيد صلبة وعنف ملحوظ وأمام حمرة عينيه لم تجد مفرًا من الاستسلام. باعدت بين قدميها وأغمضت عينيها تمامًا، جذب الجونلة بغضب وأدهشه سروالها الداخلي الطويل الذي ظهر أمامه فجأة كشراع مراكب الصيد، خلعه بإحساس النازي المنتصر، تجمّد دمه في العروق فقد كانت أمامه كتلة شوهاء! وطيات من جلد ميت ومحروق ممتدة حتى أعلى الفخذ، ارتد مذعورًا إلى الأرض محاولًا أن يجنّب ذاكرته الاحتفاظ بالصورة البغيضة المريرة».

ليست الأشياء كما نراها دائمًا، فخلف الأبواب المزخرفة مآسٍ دامية، ووراء الوجوه المبتسمة قلوب كسيرة وأخرى كاسرة. الحياة تكمن في التفاصيل، وليس أدرى بالدروب من أصحابها. ولا أخبر بالسفينة من قرانها!

مكاوي سعيد.. كاتب وروائي مصري. بدأ رحلته مع الكتابة بكتابة الشعر في أثناء دراسته الجامعية.. ثم اتجه إلى السرد وأصدر مجموعته القصصية الأولى "الركض وراء الضوء" عام 1982، ثم توالت أعماله الإبداعية في القصة والرواية وأدب الأطفال. ومن أشهر أعماله رواية "تغريدة البجعة" التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية عام 2007، وكذلك كتاب "مقتنيات وسط البلد"، و"كراسة التحرير"، ومجموعته القصصية "البهجة تحزم حقائبها"، الحائزة على جائزة ساويرس في القصة القصيرة للكبار عام 2015. وقد صدر له رواية " أن تحبك جيهان" الأكثر مبيعًا عام 2015 . وقد حصل على جوائز وتكريمات أخرى في مصر والبلاد العربية، كما ترجمت مجموعة من أعماله إلى اللغة الإنجليزية والألمانية والفرنسية.

الدار المصرية اللبنانية



